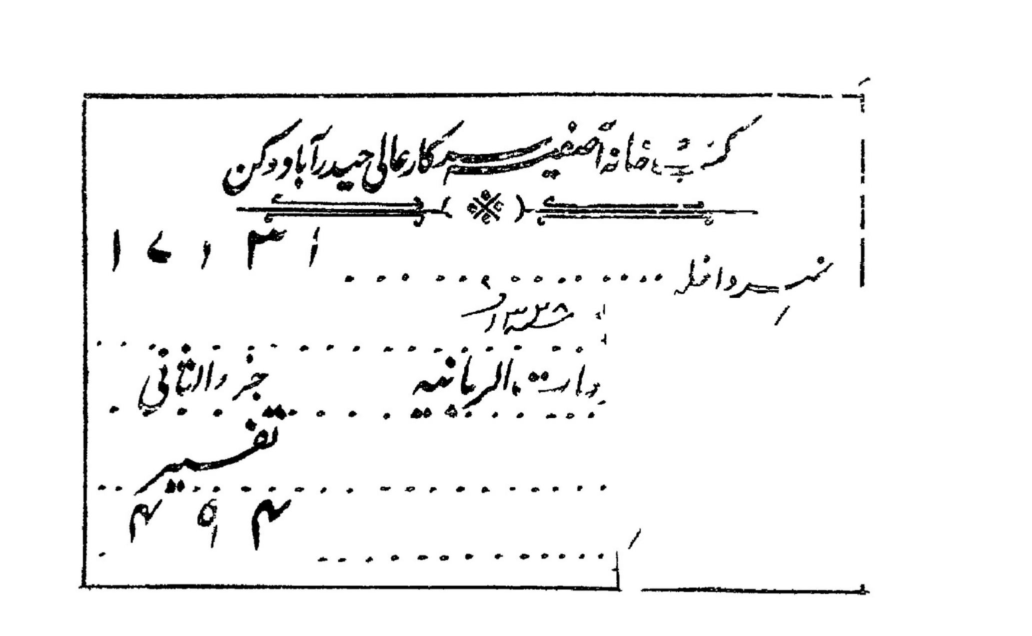
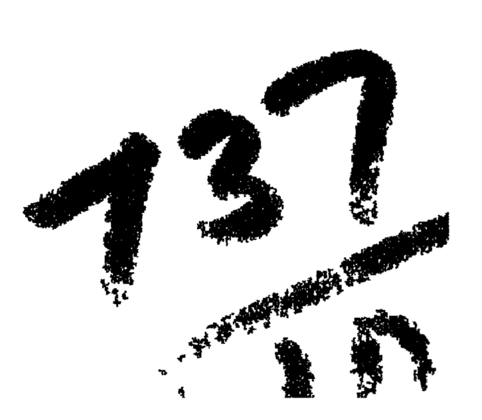

کتب خانہ آصفیہ سرکار عالی حیدرآباد دکن
نمبر داخلہ ۱۷۱۳۱
۱۳۲۳ھ
ہدایۃ الربانیہ جزء الثانی
تفسیر
۴۵۴


137

الفتوحات الربانية

في تفسير ما ورد في القرآن من الأوامر والنواهي الإلهية

﴿ الجزء الثاني في النواهي ﴾

(تأليف)

أضعف خلق الله القوي العظيم

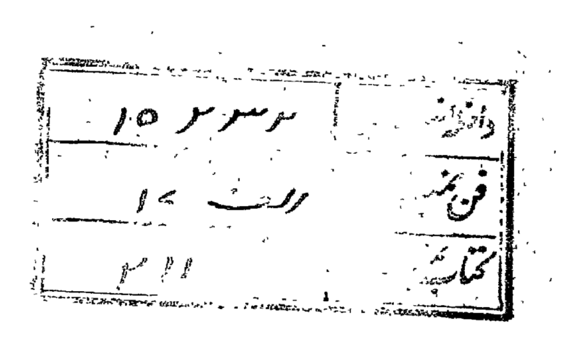
محمد عبد العزيز الحكيم

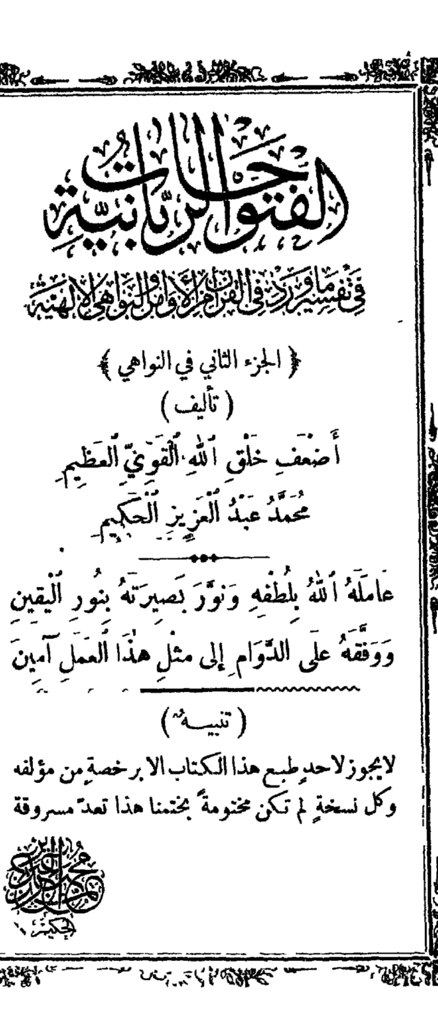
عامله الله بلطفه ونور بصيرته بنور اليقين

ووفقه على الدوام إلى مثل هذا العمل آمين

(تنبيه)

﴿ فهرست الجزء الثاني من كتاب الفتوحات الربانية في تفسير ما ورد في القرآن من النواهي الإلهية ﴾


داخلہ نمبر
فن نمبر
کتاب نمبر



الفتوحات الربانية

في تفسير ما ورد في القرآن من الأوامر والنواهي الإلهية

﴿ الجزء الثاني في النواهي ﴾

(تأليف)

أَضعف خلق ٱللّٰه ٱلقويّ ٱلعظيم
مُحَمَّدُ عَبْدُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيم

عَامَلَهُ ٱللّٰهُ بِلُطْفِهِ وَنوَّرَ بَصِيرَتَهُ بِنُورِ ٱلْيَقِين
وَوَفَّقَهُ عَلَى الدَّوَامِ إِلَى مِثْلِ هٰذَا ٱلْعَمَلِ آمِينَ

تنبيه

اعلم أيها الواقف على كتابنا هذا أننا سلكنا في ترتيبه طريقة يستحسنها كل ذي عقل سليم ولا يأباها الا من لا معرفة له بالتأليف وهي أننا اذا وجدنا آية مشتملة على جملة من الأوامر وفي آخرها نهي واحد ذكرنا تفسيرها في القسم الأول الذي هو قسم الأوامر واذا وجدنا آية مشتملة على جملة من النواهي وفي أولها أو آخرها أمر واحد ذكرنا تفسيرها في هذا القسم • والمقصود من تأليفه كما تقدم ذكره في القسم الأول ليس الا الانتفاع الخالص لمن سلطانه قلب سليم • ويسهل أخذ الأحكام الضرورية التي يهم تفسيرها من القرآن بأقرب وجه مع التوكل على الرحمن • فان من توكل عليه كفاه ووفقه لما يرضاه • ونشرع الآن فيما قصدنا بعون من عليه اعتمدنا — فنقول



﴿ الباب الأول فيما ورد في سورة البقرة من النواهي ﴾

﴿ وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ *

قد تصادف أن أول آية من آيات النهي اشتملت من حيث منطوقها على النهي عن أكل أموال الناس بالباطل وتضمنت من حيث مفهومها الحثّ على حسن المعاملة بين عموم الناس لأنه هو أساس الأعمال الصالحات وعليه مدار عمار الدنيا وعدم حصول النزاع والشر بين المخلوقات *

﴿ فصل ﴾ اعلم أن المال اما حلالٌ • وهو ماملكه الانسان بوجه شرعيٍّ كالموروث والموهوب • واما حرامٌ • وهو بخلافه • والحرمة اما ذاتيةٌ كما في الجواهر السامة • واما عرضيةٌ كما في المال المغصوب • وكما يكون المال حلالا أو حراماً باعتبار كسبه يكون

كذلك حراماً باعتبار صرفه • فكما يجب على الشخص أن يتحرّى في تحصيل المال طرُقَ الشرع كذلك يجب عليه أن يتحرّي طرُقه في صرفه • وكما لايحل له أن يمدّ يده الى مال غيره بغير حق كذلك لايحلُّ له أن يتصرف في ماله بغير العدلِ • ومتى جرى في كسبه وتصرفه على هذا القانون الالهيّ وكان سلطان الشرع سائداً على سلطان نفسه وهواه • ووقفَ عند حدّ الشرع في جميع تصرفاته أمِنَ غوائل الناس وأمن الناس غوائله وكان من السعداء الفائزين دنيا واُخرى • قوله سبحانه وتعالى ﴿ ولا تأكلوا ﴾ أيها المؤمنون ان أردتم النجاة من كل سوءٍ والقربَ من الله تعالى ﴿ أموالكم ﴾ التى تكون في المعاملات والتصرفات التجارية وغيرها ﴿ بينكم بالباطلِ ﴾ أي الوجه الذي لم يبحه الله تعالى ولم يشرعه • وذلك بأن يأكل بعضكم مال بعض بغير وجه حلالٍ كالسرقة والغصب والنهب والغش وغير ذلك كصرف أموالكم الحلال فيما حرمته الشريعة عليكم • فتبين مما ذكرناه أنه ليس المراد من الآية النهي عن أكل الأموال بالباطل فقط بل المراد النهي عن كل التصرفات الباطلة من باب اطلاق الخاص وارادة العام • وانما خص الله تعالى الأكل بالذكر في الآية لانه المقصود الأعظم من المال ﴿ وتدلوا بها ﴾ أي تتقربوا بها بالرشوة والهدايا ﴿ الى الحكام ﴾ ليعينوكم على الظلم وارتكاب مالايليق للعدالة ولأن الحاكم قد يكون عادلاً ولكن يشتبه عليه الحق بسبب ظهور حجة أحد الخصمين • كما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم

انه قال لخصمين عنده (انما أنا بشر مثلكم وأنتم تختصمون الىّ ولعل بعضكم ألحن) أى أبين بحجته (من بعض فأقضي له على ما أسمع منه) أي بسبب قوة حجته على حجة أخيه وهو غير محق • فمن قضيت له بشيء من حق أخيه فانما أقضي له قطعةً من نار • فبكيا فقال كل واحد منهما حقي لصاحبي • فقال لهم عليه الصلاة والسلام (اذهبا فتوخيا) أي فاقصدا الحق فيما تصنعانه من القسمة • ثم استهما أي اقترعا وليأخذ كل منكما ما تخرجه القسمة بالقرعة • ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه * فانظروا عباد الله كيف رجع هذان الخصمان عن خصومتهما بعد ماتبين لهم الحق من موعظة رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرفوا انهم غير مصيبين وندموا على ما فعلوا فاقتدوا بهم ولا تجعلوا أموالكم رشوةً وهدية الى الحكام ﴿ لتأكلوا ﴾ بالتحاكم اليهم والاستعانة بظلمهم ﴿ فريقاً من أموال الناس بالاثم ﴾ أي بما يوجب الاثم كشهادة الزور والأيمان الفاجرة ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أنكم على الباطل فان ارتكاب المعاصي مع العلم بقبحها أشد معصية وأقبح اثماً • فيستحق من يفعل ذلك مقت الله وغضبه • انتهى

قَالَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ اَلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ

وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَى وَٱتَّقُونِ يَا أُولِي ٱلْأَلْبَابِ ﴾

ان الله سبحانه وتعالى أرشدنا في هذه الآية الكريمة الى أن الحج لا يصح وقوعه في جميع أوقات السنة بل هو موقت بأشهر مخصوصة منها . ونهانا فيها عن فعل ما ظهر وما بطن من الفواحش في الحج . ثم أرشدنا سبحانه وتعالى الى أنه يعلم ما يفعله الانسان من خير أو شر تنبيهاً منه تعالى على أن فعل الخير نافع نفعاً أبدياً . وفعل الشر ضار ضرراً مخلداً . وان التزود من التقوى هو خير الزاد . والحاصل ان هذه الآية ترشد الى خير الطاعات وآداب الحج وجميل الأخلاق وحسن المعاملة مع الله تعالى في كل طاعة كما قال جل شأنه ﴿ الحج ﴾ أي وقت الحج ﴿ أشهر ﴾ من السنة ﴿ معلومات ﴾ أي معروفات بين الناس ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم وهي شوال * وذو القعدة * وعشر ذى الحجة * وانما أطلق عليها أشهر بالجمع من باب تغليب الكل على الجزء ﴿ فمن فرض ﴾ أي فمن ألزم نفسه ﴿ فيهن ﴾ أي في هذه الأشهر المتقدمة ﴿ الحج ﴾ أي أن يحج . وهذا الالزام يحصل بالاحرام بالحج وسمي احراماً لأن الحاج يحرم عليه أشياء كانت حلالاً له قبل أن يحرم . وصفة الإحرام اى على الوجه الأكمل هو أن يصلي الشخص ركعتين سنة الاحرام ثم بعد سلامه يقول ﴿ اللهم انى أريد

الحجّ فيسره لى وتقبله مني • ويشرع في التلبية حتى يتمها وهو قاعد* ثم الأخذ في السير والاكثار من التلبية بعد الاحرام مستحب سواء كان المحرم قاعداً أوقائماً أو راكباً أو ماشياً لأنها ذكر مطلق يجوز حتى للجنب والحائض فهو كالتسبيح • فاذا أحرم الشخص ﴿ فلا رفث ﴾ أي فلا فحش بالجماع وغيره ﴿ ولا فسوق ﴾ أي فلا خروج عن حدود الشرع بارتكاب المعاصي ﴿ ولا جدال ﴾ أي ولا نزاع بين الخدم والرفقاء ﴿ في الحج ﴾ وذلك لأن الرفث الذي فسره ابن عباس بالجماع يفسد الحج والعمرة • والفسوق يؤدي الى مخالفة أمر الله تعالى • والجدال يؤدي الى العداوة والبغضاء وعدم الانقياد الى الحق * واعلم أن الجدال الذي نهى الله عنه هو الذي يكون الغرض منه المنازعة والتعصب النفسي لتنفيذ الآراء الباطلة • وتحصيل الأغراض الدنيوية الفاسدة وأما الجدال الذي يكون الغرض منه المدافعة عن الدين القويم • والدعاء الى الصراط المستقيم • فهو مأمور به في قوله تعالى وجادلهم بالتي هي أحسن • وهذا الجدال يكون بمقدمات مشهورة وآراء محمودة حتى يلجم الخصم المعاند بلجام السكوت حين يرى الحق قد استقر في مركزه • واضمحلت صولة الباطل • ثم ان الله تعالى لما نهى عباده عن الشر حثهم على الخير تتميماً لمكارم الاخلاق فقال ﴿ وما تفعلوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ من خير ﴾ كصلاة أو حجّ أو صوم أو غير ذلك ﴿ يعلمه الله ﴾ فيجازيكم به خير جزاء • وانما لم يذكر سبحانه وتعالى ضد الخير مع أنه يعلمه كما يعلم الخير لنكتة عجيبة وهي أن الله تعالى كأنه يقول

لعبده يا عبدي اني اذا علمت منك الخير ذكرته وأظهرته واذا علمت منك ضده أخفيته وسترته لتعلم أنه اذا كانت رحمتي بك هكذا في الدنيا فكيف يكون الحال في الآخرة • وهذا فيه ترغيبٌ للمطيعين وايذانٌ بأنهم من المحسنين . والعبد الصالح اذا علم اطلاع مولاه على سرائره وخفاياه اجتهد في أداء ما أمره به واجتنب عن ارتكاب مانهاه عنه ويستمر على هذا العمل حتى يقضي مدة الحياة الفانية . انتهى

ومن لطيف عنايته تعالى بعباده أنه بعد أن حثهم على استعمال الخير رغبهم في الزيادة من أعمال البرّ والتقوى بقوله ﴿وتزوّدوا﴾ لآخرتكم ﴿ فان خير الزاد ﴾ للمعاد ﴿ التقوى ﴾ أي تقوى الله جلّ شأنه فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (خيرُ الزّادِ التقوَى وخيرُ ما أُلقِيَ في القلبِ اليقينُ)

فاجعلوا أيها الإخوان زادكم الى الآخرة فعلَ الحسنات واجتناب القبائح • فان ذلك خير الزاد في السفر من هذه الدنيا الى الآخرة • فان السفر منها ليس آهون من السفر فيها • فكما آن السفر فيها لا بد له من زاد فكذلك السفر منها الي الآخرة يحتاج الى زاد بل زاده أقوى من السفر الدنيوي فان زاد الدنيا يخلصك من عذاب منقطع غير معلوم • ويوصلك الي متاع الغرور • ويكون سبباً في بلوغ النفس الي لذاتها وشهواتها • وزاد الآخرة ينجيك من عذاب آبديّ معلوم • ويبلغك دار السرور ويوصلك الي باب الجلال والحضور (شعرٌ)

إذَا أنْتَ لَمْ تَرْحَلْ بِزَادٍ مِنَ التُّقَى
وَلاَقَيْتَ بَعْدَ المَوْتِ مَنْ قَدْ تَزَوَّدَا
نَدِمْتَ عَلَى أنْ لاَ تَكُونَ كَمِثْلِهِ
وَأَنَّكَ لَمْ تُرْصِدْ كَمَا كَانَ أَرْصَدَا

واعلم أن لكل سالكٍ زاداً • فالذين قصدوا البيت وأرادوا الجنة يكون زادهم زاداً دنيوياً فهؤلاء يفوزون في الآخرة بقشور الخيرات • والوقوف على باب النفحات • والذين قصدوا ربّ البيت ولم يكن مقصودهم غير خدمته يكون زادهم التقوى • والاخلاص في السرّ والنجوى • وهؤلاء يفوزون بلبّ الخيرات • ويدخلون حضيرة القدس • ويكسونَ حلة الأنس لأنهم لما كان مقصدهم ومقصودهم خيرَ المقاصد كان زادهم خير الزاد ولهذا خاطبهم الله مشرّفاً لهم بوصفهم باللب والعقل قائلاً ﴿ واتقون ﴾ أي وخافوا عقابي بامتثال ما أمرتكم به واجتناب ما نهيتكم عنه ﴿ يا أولي الألباب ﴾ أي يا أهل العقول السليمة والافهام المستقيمة وانما خاطبهم تعالي بوصفهم بالعقل لأن العقل في الحقيقة هو تقوى الله تعالي ومن لم يتقه فلا عقل له في التحقيق

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا

أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ
وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ *
ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
غَفُورٌ رَحِيمٌ *

ثم انه سبحانه وتعالى لما منع الناس عن الجدال في الآية السابقة وقع في قلوب المكلفين شبهة • وهي ان التجارة لما كان النزاع في قلة القيمة وكثرتها ينشأعنها في الأغلب يجب أن تكون من أنواع الجدال الذي نهى الله عنه في الحج وخصوصاً انها كانت محرمة وقت الحج في زمن الجاهلية وأيضاً انها أمر غيرمستحسن في الظاهر لأن المشتغل بخدمة الله تعالى ينبغي له أن يترك المطامع الدنيوية فأنزل الله هذه الآية دفعاً لهذه الشبهة فقال ﴿ليس عليكم﴾ أيها المكلفون ﴿جناح﴾ أي اثم وحرج في ﴿أن تبتغوا﴾ أي تطلبوا ﴿فضلا﴾ أي عطاء وزيادة في الرزق ﴿من ربكم﴾ بسبب التجارة والربح فيها (لطيفة) روي ان آدم عليه السلام لما أمره الله تعالى ببناء البيت بمكة فرغ من بنائه في اليوم الثامن من ذي الحجة ثم تفكر فقال يارب ان لكل عامل أجراً فما أجري على هذا العمل فأوحى الله اليه يا آدم انك اذا طفت بهذا البيت غفرت لك ذنوبك بأول شوط من طوافك • فقال يارب زدني من احسانك • فقال تعالى أغفر لأولادك اذا طافوا به • فقال يارب زدني فقال أغفر

لكل من استغفرله الطائفون من موحدي أولادك • فقال آدم • حسبي يارب حسبي) أي يكفيني يكفيني • فلهذا السبب سمي اليوم الثامن من ذي الحجة يوم التروية أي يوم التفكر • وروي أيضاً ان ابراهيم عليه السلام رأى في منامه ليلة اليوم المذكور كأنه يذبح ابنه فأصبح متفكراً هل هذا من الله أو من الشيطان فلما رأى ليلة عرفة أنه يؤمر بذلك أصبح فقال عرفت يارب انه من عندك • فلهذا السبب أيضاً سمي اليوم التاسع من ذي الحجة يوم عرفة • انتهى *

قال صلي الله عليه وسلم (صَوْمُ يومِ التَرْوِيةِ كفارةُ سنةٍ وصَوْمُ يوم عرَفةَ كفارةُ سنتينِ)

ثم قال تعالي ﴿ فاذا أفضتم ﴾ أي دفعتم بكثرة وتوجهتم ﴿ من عرفات فاذكروا الله ﴾ تعالي بالتلبية والتهليل والدعاء ﴿ عند المشعر الحرام ﴾ أي عند ما يقرب منه • وهو جبل يقف عليه الامام ويسمى قزحاً وهذا سنة لأن المزدلفة كلها موقف الا وادي محسرٍ فليس بموقف ﴿ واذكروه ﴾ تعالى ذكراً حسناً ﴿ كما هداكم ﴾ هداية حسنة الى سنة ابراهيم في مناسك الحج بل الى جميع أنواع العبادة كي تكونوا شاكرين له * فالذكر الأول مقيد بكونه عند المشعر الحرام والثاني مطلق يدل علي وجوب ذكره تعالى في كل زمان ومكان وعلي كل حال فالذكر الاول لاقامة الوظيفة الشرعية والثاني ارتقاء كل معارج الحقيقة • وهو أن ينقطع القلب عن المشعر الحرام بل عن ما سواه من حلالٍ وحرام ﴿ وان كنتم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ من قبله ﴾

أي من قبل الهدى الذي جاء به الرسول المنزل عليه الكتاب الذي بين الله تعالى فيه معالم دينكم ﴿ لمن الضالين ﴾ أي لمن الجاهلين لا تعرفون كيف تذكرونه وتعبدونه ﴿ ثم أفيضوا ﴾ من المزدلفة الي منى يوم النحر قبل طلوع الشمس لأجل الرمي والذبح ﴿ من حيث أفاض الناس ﴾ وهم ابراهيم واسماعيل ومن اقتدى بهما ﴿ واستغفروا الله ﴾ من مخالفتكم في الوقوف ونحوه من أفعال الجاهلية ويجب الاستغفار علي كل مكلف وان لم يعلم من ظاهر حاله خطيئة • فان النقص والقصور من خصائص الانسان • وكيف لا وقد قالت الملائكة الذين حالهم أرفع وأعلي من حال البشر سبحانك ما عبدناك حق عبادتك • ولا بد في الاستغفار أن يكون باللسان مع التوبة بالقلب • وهي أن يندم علي كل ما قصر فيه من طاعة الله وأن يعزم علي أن لا يقصر فيما بعده ابتغاء مرضاته لا للمنافع العاجلة • وصورة الاستغفار(١) علي ما رواه البخاري في صحيحه انه قال قال النبي صلي الله عليه وسلم سيد الاستغفار أن يقولَ العبدُ اللهمّ أنتَ ربي لا الهَ الاّ أنتَ خلقتني وَأنا عبدُكَ وَأنا علي عهدِكَ ووَعدِكَ مااستطعتُ. أعوذُ بكَ من شرّ ماصنعتُ أبوءُ لكَ بنعمتك عليّ وَأبوءُ بذنبي فاغفر لي ذُنوبي فانهُ لا يغفرُ الذنوبَ الاّ أنتَ * ولو اقتصر علي قوله أستغفر الله كفى • ولو زادَ فقال اللهم اني أستغفرك وأتوبُ اليك وأنت التواب الرحيم • أو قال

---

(١) أي المدلول عليه بقوله تعالى ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله)

أستغفر الله الذي لا اله الا هو الحي القيوم ذا الجلال والاكرام من كل ذنب أذنبته ومعصية ارتكبتها وأتوب اليه من الذنب الذي أعلم ومن الذنب الذي لا أعلم كان حسناً *واعلم ان التوبة لا تصح الا اذا توفرت شروطها وهي ثلاثة ان كانت في حق الله تعالي الاقلاع عن الذنب أي الخروج منه الثاني الندم بقلبه وروحه علي ما فعل من الذنب الثالث العزم علي أن لا يعود الي ذنب أبداً • فان كانت التوبة في حقوق الآدميين زيدَ فيها شرط رابعٌ وهو رد المظالم الى أهلها ولا فائدة في قول أستغفر الله العظيم بدون وجود هذه الشروط فمن استغفر بلسانه وأخلص بقلبه في توبته بالوجه الذي ذكرناه قبلَ الله توبته تفضلاً منه تعالي وغفرَ له ما فرط فيه ف ﴿ ان الله ﴾ تعالي ﴿ غفور رحيم ﴾ يغفر ذنب المستغفر وينعم عليه من فضله . انتهى

تابع لما قبله من الآية الشريفة

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا • فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ • وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ • أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا • وَاللَّهُ سَرِيعُ

ٱلْحِسَابِ ﴾

اعلم أن من تحمل مفارقة الأهل والوطن وهان عليه انفاق الأموال النفيسة والتزم المشاق في سفر الحج فاللائق به بعد الفراغ من أعماله أن يقبل علي الدعاء والتضرع وكثرة الاستغفار والانقطاع الي الله تعالي • فلهذا أمر الله تعالي عباده في هذه الآية أنهم اذا فرغوا من حجهم يقبلون عليه تعالي بالدعاء والاستغفار كما وردت به السنة بعد الفراغ من الصلاة • فان المقصود من العبادة قهر النفس ومحو آثارها الطبيعية . وتصفية القلب من الظلمات التي تحجبه عن مراقبة الرب حتى يتجلي فيه نور جلال الله تعالي •وأمرهم في هذه الآية أيضاً أن يكون ذكرهم لربهم كذكرهم لآبائهم بل أشد منه • فقال ﴿ فاذا قضيتم مناسككم ﴾ أي فاذا فرغتم من عباداتكم التي أُمرتم بها في الحج • وأزلتم الآثار البشرية • وقهرتم القوى الطبيعية وقطعتم الأذى من طريق السلوك ﴿ فاذكروا الله ﴾ أي فاشتغلوا بعد ذلك بذكر الله المنور لقلوبكم والثناء عليه • وكونوا مواظبين عليه ﴿ كذكركم آباءكم ﴾ أي مثل ذكركم لآبائكم عند تناشدكم وتفاخركم • وبيان ذلك انهم كانوا يجتمعون فى مكان وكل واحدٍ منهم يذكر مآثر آبائه وحسبهم ونسبهم لأجل أن يتفاخر ويتعاظم كل منهم علي صاحبه ﴿ أو أشد ذكراً ﴾ من ذكركم لآبائكم فانه الاله المستحق للذكر لا غيره فالزموا ذكره فى غالب الأوقات لتتحلوا بمواهب السعادات الباقيات •ثم انه

تعالي لما أمر بالعبادة التي هي تصفية للنفس وتطهيرٌ لها من ظلمات الكبر والضلال • وأمر عقيب ذلك بما ينشأ عنه تنوير الباطن بنور الجلال والجمال بكثرة الاشتغال بذكر الكبير المتعال • نبه علي حسن طلب مزيد الانعام والافضال • فذكر أن الناس فريقان فريقٌ منهم جعل دعائه مقصوراً علي طلب اللذات الدنيوية العاجلة وفريقٌ منهم جعله مقصوراً علي طلب اللذات الآجلة ونعيم الاخرة • فقال ﴿ فمن الناس مَن ﴾ لا يطلب بذكر الله الا الدنيا ف ﴿ يقول ﴾ فى ذكره ﴿ ربنا آتنا فى الدنيا ﴾ أي ربنا اجعل عطيتك لنا فى الدنيا خاصة ﴿ وما ﴾ أي وليس ﴿ له في الآخرة من خلاق ﴾ أي من حظٍ ونصيب لأنه جعل همه قاصراً علي الدنيا فخصص دعائه بالمطالب الدنيوية الفانية وأعرض عن المطالب الأخروية الباقية• وهذا القسم هو فريقٌ من المسلمين سألوا الله تعالي فى أعظم المواقف وأشرف المشاهدِ أخسَّ البضائع وأدني المطالب • وهو نعيم الدنيا الذي هو عند الله أحقر من جناح بعوضةٍ وأعرضوا عن العيش الباقى والنعيم المقيم •واعلم ان مطامع النفس فى الدنيا واحدة من ثلاثة خصال الأولي روحانيةٌ وهي طمع النفس في تكميل القوة النظرية بالعلم •وفي تميم القوة العملية بتحصيل الأخلاق المحمودة•والثانية بدنيةٌ • وهي طمع النفس فى الصحة والجمال• والثالثة خارجية • وهي طمع النفس فى الجاه والمال وكل من لا يؤمن بالبعث لا يطلب الفضيلة الروحانية ولا الجسمانية الا لأجل الدنيا فقط لأنه يطلب العلم لأجل الرفعة على الاقران ويكتسب الأخلاقَ المحمودة كتدبير

الأمور المنزلية والمدنية . ولا يتوجه مقصده الى الآخرة أبداً لأنه غير مؤمن بها فتكون عاقبته ماتقدم من قوله تعالى ﴿وما له في الآخرة من خلاق﴾ أي من نصيب . وذلك لأن كل من ليس له طلب ولا همة في اقتناء السعادات الباقيات في الاخرة فمطلوبه عبثٌ وسفهٌ ووبالٌ وضلالٌ . ثم انه تعالى لم يبين أن هذا الفريق دعوته مجابة أم لا . لكن قال طائفة من العلماء ان هذا الفريق ليس أهلاً للاجابة . لأن وصف الانسان بكونه مجاب الدعوة وصفٌ يستحق به المدح . ولا يوصف به الا الأولياء والصالحون والأصفياء من عباد الله . بل اذا وُجد أحدٌ من هذا الفريق مجابُ الدعوة فلا يعدّ ذلك اكراماً من الله له . وانما هو استدراجٌ حتى يزداد في عتوه وضلاله فيأخذه بغتةً ولا يشعر . نعوذ بالله من غضب الله انتهى ويؤيد ذلك قوله تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزدله في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب)

وعلى ماذكرناه يصح أن يكون في الآية حذف والتقدير هكذا (فمنَ الناسِ منْ يقولُ ربنا آتنا في الدنيا) فيؤتيه الله في الدنيا وما لهُ في الآخرة من خلاق . لأن همته مقصورةٌ على الدنيا ﴿ومنهم﴾ أي ومن الناس ﴿من يقول﴾ في ذكره ﴿ربنا آتنا﴾ أي أعطنا ﴿في الدنيا حسنة﴾ وهي الصحة والأمن والكفاية والولد الصالح والزوجة الصالحة والنصرة على الأعداء والعملُ النافع وهو الايمانُ والطاعة ﴿وفي الآخرة﴾ أي وآتنا في الآخرة ﴿حسنة﴾

وهي الفوز بالثواب والنجاة من العقاب والتنعمُ بذكر الله والأنسُ به وبرؤيته . وهذا الأمر لا تلذّذَ في الدنيا والآخرة الا به

ولما كان طلب دفع الضرر أهمَّ من طلب جلب النفع ذكره الله تعالى في قوله ﴿ وقنا عذاب النار ﴾ أي واحفظنا من الشهوات والذنوب الموجبة لعذاب النار . وهذه دعوة جامعة لخيري الدنيا والآخرة . فقد روى أن جماعةَ قالوا لأنس بن مالك رضى الله عنه أُدْعُ لنا . فقال اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنةً وقنا عذاب النار . قالوا زدنا فأعادها فقالوا زدنا قال فما تريدون . اني سألت لكم خيري الدنيا والآخرة .

وهذه الآية تدل على أن الداعي اذا دعا يلزمه في دعائه حسنُ الطلب . ورعاية الأدب وأن يعتقد أنه لا يكون الا ما يشاؤه الله تعالى من جلب النفع ودفع الضرر .

ثم اذا أجاب الله تعالى دعوته فيجب عليه أن يرضى بالقليل . ولا ينظرَ الاّ الى المنعم لا الى الانعام . على أن القليل من انعامه كثير ويدل لهذا قول الشاعر

قَليلٌ منكَ يَكْفيني وَلكنْ
قَليلُكَ لاَ يُقالُ لهُ قَليلُ

﴿ أولئك ﴾ الداعون بالحسنة الدنيوية والحسنة الأخروية معاً

﴿ لهم نصيب ﴾ أي حظ وافر ﴿ مما كسبوا ﴾ أي مما نالوه بأعمالهم الحسنة من الثواب والمنافع جزاء لما عملوا لأنهم لما طلبوا بأقوالهم وسؤالهم وأعمالهم صلاح دينهم ودنياهم كان حظهم من خالقهم حسن الوفاء في أخراهم ﴿ والله سريع الحساب ﴾ لأن قدرته تعالى متعلقة بجميع الممكنات من غير أن يفتقر في ايجاد شيء منها الى فكر وتأمل واعانة • فيحاسب الناس في مقدار لمحة مع كثرتهم وكثرة أعمالهم • فاحذروا أيها المؤمنون من التقصير في طاعة من هذا شأن قدرته • وبادروا الى تحصيل الخيرات واكتساب الحسنات • واذا سلكتم طريق الوصال وبلغتم مبلغ الرجال فلا تأمنوا عقاب الله فانه لا يؤمن عقابه الا العصاة •

قَالَ ٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّٰهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّٰهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللّٰهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾

لما بين الله تعالى أن الناس في الحج مختلفون بحسب أغراضهم في الدعاء ناسب أن يذكر بعد ذلك بيان مطامع الناس على الاطلاق ليعرف أرباب النفاق من أصحاب الوفاق • وسبب نزول هذه الآية أن الأخنس بن شريف أقبل على النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فأظهر له الاسلام وزعم أنه يحبه حباً شديداً • ثم قال والله يعلم أني لصادق • فلما خرج من عند النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بزرع لقوم من المسلمين وحمر • فأحرق الزرع وعقر الحمر • فأنزل الله هذه الآية وبين فيها لعباده المؤمنين أن يجتنبوا المنافقين ولا يثقوا بأقوالهم • فان قلوبهم مرّة وألسنتهم حلوة • فقال ﴿ومن الناس من يعجبك﴾ أي يروقك ويعظم في قلبك ﴿قوله﴾ أي حسن قوله وحلاوته ﴿في الحياة الدنيا﴾ فقط ولا يعجبك قوله في الآخرة لما يلحقه في الموقف من الهيبة والدهشة والحيرة • فلا يمكنه تحسين القول بل ولا يؤذن له في الكلام أصلاً ﴿ويشهد﴾ أي ويستشهد ﴿الله﴾ تعالى ﴿على ما في قلبه﴾ أنه موافق لما نطق به من المحبة والاسلام ﴿وهو﴾ أي والحال أنه ﴿ألد الخصام﴾ أي شديد العداوة والخصومة للمسلمين • فيجادلهم بالباطل ويتغلب عليهم بشدة الفسوق في معصية الله • ويظهر للناس التقوى لعلمه بحسن أقوال اللسان • ولكنه جاهل بطيب أعمال الأركان • ﴿واذا تولى﴾ أي واذا ذهب عنك من بعد لين القول وحسن المنطق ﴿سعى﴾ أي مشى ﴿في الأرض﴾ بسرعة ﴿ليفسد فيها﴾ بالقاء الشبه في عقائد

المسلمين ﴿ ويهلكَ الحرث والنسل ﴾ كافعل أخنسُ المذكور بأولئك المسلمين • وذلك لأن الانسان لا يكون كاملاً الاّ بالعلم والعمل • ولا يكون ناقصاً الاّ بضدهما • فيكون الافساد في الآية اشارةً الى نقص القوة النظرية من المنافق • ويكون الاهلاك فيها اشارةً الى نقص القوة العملية منه • فلا تميل طبيعته الاّ الى الفساد ﴿ والله ﴾ تعالى ﴿ لا يحب ﴾ أي لا يرتضي ﴿ الفساد ﴾ ويبغضه ويغضب على من يتعاطاه • واعلم أنه تعالى ذكر جملةً من أحوال المنافق الذميمة أولها حسن كلامه في طلب الدنيا • وثانيها استشهاده بالله أن ما في قلبه موافق لنطقه كذباً وبهتاناً • وثالثها اجتهاده في ابطال الحق واثبات الباطل • ورابعها سعيه في الأرض لافساد العقائد الصحيحة • وخامسها سعيه في اهلاك الحرث والنسل • ثم ذكر تعالى خصلةً سادسةً أشنعَ من الكل دالة على جهله المركب وعلى أنه لا يرجي منه خير أبداً • فقال تعالى ﴿ واذا قيل له ﴾ على طريق الموعظة والنصيحة ﴿ اتق الله ﴾ واترك ما تباشره من الافساد والنفاق • واحذر سوء عاقبته ﴿ أخذته ﴾ أي حملته ﴿ العزة ﴾ أي العظمة والكبر ﴿ بالاثم ﴾ أي بأن يعمل ما ينشأ عنه الاثم • وذلك هو عدم التفاته الى هذا الوعظ وعدم الاصغاء اليه عناداً وانكاراً • وذلك لأن نفسه الخبيثة الأمارة بالسوء تظهر الأشياء المزينةَ والأقوال المزخرفةَ التي يفهم منها أنه أصدق الأصدقاء ولكنه أخبث الخبثاء • ويسعى في تخريب أرض قلبه وابطال حرث الصدق منه والاخلاص في طلب السعادة

واهلاك نسل ما يتولد من الأخلاق الحميدة وتعاظم على قبول الحق ﴿ فحسبه ﴾ أي فكافيه ﴿ جهنم ﴾ وهي موضع النار التي يعذب الله بها عباده في الآخرة جزاءً له ﴿ ولبئس المهاد ﴾ أي الفراش هي *

﴿ تابع لما قبله من الآية الشريفة ﴾

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُفٌ بِالْعِبَادِ ﴾

ولما كان حال من تقدم في الآية الأولى أنه يكره التقوى ويتعاظم على قبول الموعظة ذكر الله تعالى من اتصف بضد ذلك في هذه الآية فقال ﴿ ومن الناس من يشري ﴾ أي يبيع ﴿ نفسه ﴾ بيذلها في الجهاد ومشاق الطاعات وتعريضها للمهالك في الحروب • ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وان ترتب على ذلك قتله • فمن كانت هذه معاملته صدق عليه أنه باع نفسه والله هو المشتري منه كما قال تعالى ﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ﴾ فعمل المكلف وهو بذل تعبه في طاعة الله من الصلاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الثمن والجنة هي المثمن •

واعلم أن من أقدم على الكفر والمعاصي فكأن نفسه خرجت عن ملكه واشتراها منه الشيطان وصارت حقاً للغير واذا أقدم على الطاعة صار كأنه اشترى نفسه من النار فصارت ملكا له انتهى

ثم ان هذا المشتري لم يقصد بشرائه الا ﴿ ابتغاء مرضاة الله ﴾
أي طلباً لرضاه وهذا شأن الأولياء والأصفياء • فانهم باعوا أنفسهم
لله طلباً لمرضاته لا لأجل الجنة • فهذه الاية دليل على أن كل مشقة
يتحملها الانسان يجب أن تكون على وفق الشرع • وأن لا يطلب
بها الاجانب الحق سبحانه وتعالى • والا كان عمله ضلالا وكدهو بالاً
﴿ والله ﴾ الهادى الى سبيل الرشاد ﴿ رؤف بالعباد ﴾ فمن رأفته تعالى
أنه جعل النعيم الدائم جزاءً على العمل القليل • وأنه لا يكلف نفساً
الا وسعها • وأن العبد اذا دام على الكفر مائة سنة ثم انتهى عنه
بأن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر غفر له ماتقدم من
ذنبه وأعطاه ثوابه • ومن رأفته أيضاً أن العبد ملك له • وما يعمله من
خير ملك له أيضاً • ثم انه تعالى يشتري ملكه بملكه فضلا منه وامتناناً
ورحمة واحساناً • وقد ورد في بعض الروايات أن هذه الآية نزلت في
حق عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه لما بات على فراش رسول الله
صلى الله عليه وسلم ليلةَ خروجه الى الغار فأراد أن يفديه بنفسه حين
عزمت قريش على قتله صلى الله عليه وسلم • ويروى أنه لما نام على
فراشه قام جبريل عند رأسه وميكائيل عند رجليه وجبريل ينادي بخ
بخ من مثلك يابن أبي طالب يباهي الله بك الملائكة انتهي

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ وَلاَ تَجعلوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيمانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيمانِكُمْ وَلٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

انه سبحانه وتعالى نهي عباده في هذه الآية عن الجراءة عليه بكثرة الحلف به • والحكمة في هذا النهي أن من حلف في كل كثير من أموره وقليل منها بالله انطلق لسانه بكثرة الحلف فلايؤمن اقدامه على الأيمان الكاذبة وأيضاً كلما كان الانسان أكثر تعظيما لله كان أكمل في العبودية ومن كمال تعظيمه تعالى تنزيهه عن الاستشهاد به في أي غرض من الاغراض الدنيوية بل لا يستشهد به الا في الأمور العظيمة الاخروية وقد ذم الله تعالى مَنْ أكثر الحلف بقوله (ولا تطعْ كلَّ حلاّف مهين) انتهى

وقد ذكرنا في سورة المائدة من قسم الأوامر تفسير قوله تعالى (واحفظوا أيمانكم) فانه يدل دلالة قاطعة على النهي عن كثرة الحلف

به تعالى • فلهذا أرشدنا جلت قدرته فى هذه الآية الى اجتناب ذلك بالنهي الصريح فقال ﴿ ولا تجعلوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ الله ﴾ تعالى ﴿ عرضةً ﴾ أي معرّضاً ﴿ لأيمانكم ﴾ واجتنبوا الحلف به في القليل والكثير ﴿ أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ﴾ أي لأجل ارادة البر والتقوى والاصلاح بين الناس • فان من أكثر الحلف به تعالى فهو مجترئٌ عليه غير معظم له • فلا يكون موصوفاً بالبر والتقوى • بل يعد كذوباً عند الناس لاينسبونه دائماً الا الى الأغراض الفاسدة وسوء النية • فلا يثقون به في شئ من الأشياء أبداً • وأما اذا ترك الشخص الحلف بالله تعالى معتقداً أنه أعظم وأجل من أن يستشهد باسمه العظيم فى مطالب الدنيا اعتقد الناسُ جميعاً صدق نيته وحسن معاملته مع الله و بعده عن الأغراض الفاسدة فيعدونه باراً متقياً متباعداً عن الاخلال بواجب حق الله • ويدخلونه في مهمات أمورهم واصلاح خصوماتهم و يثقون به في كل ما يصدر منه من قول أو فعل ﴿ والله سميع ﴾ أي بسمع أيمانكم ان حلفتم به ﴿ عليم ﴾ بنياتكم ان تركتم الحلف تعظيما لذكره فحافظوا على ما كنتم به من التباعد عن الحلف به والجراءة عليه

﴿ لا يؤاخذكمُ اللهُ باللغو في أيمانكم ﴾ أي لا يعاقبكم بسبب اللغو في أيمانكم وهو أن يحلف الانسان على ما يظن أنه صادق فيه ثم يظهر خلافه ﴿ ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم ﴾ أي وانما يعاقبكم بما تعمدته قلوبكم حيث حلفتم على حصول أمر مع العلم بخلافه وذلك لما

علم من مزيد رحمته تعالى بعباده حيث خصّ العقاب بالعمد دون ماسواه على أنه تعالى يغفر للمتعمد ان شاء كما قال جل ذكره ﴿ والله غفور ﴾ لما فرط منكم ان شاء ﴿ حليم ﴾ أي لا يعجل بعقوبتكم لعلكم تتداركون الأمر فتتوبون انتهى

﴿ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

كان الرجل في الجاهلية اذا كره زوجته وكره أن يتزوجها غيره حلف أن لا يقربها فتصير بذلك كالمعلقة لا هي متزوجة ولا هي من غير زوج قاصداً بذلك الحلف ضررها وكان المسلمون يفعلون ذلك فى بدء الاسلام فأزال الله تعالى هذا الضرر بقوله ﴿ للذين ﴾ أي للرجال الذين ﴿ يؤلون ﴾ أي يحلفون على ترك وطء زوجاتهم أبداً أومدة تزيد على أربعة أشهر على ما بينته السنة ﴿ من نسائهم ﴾ أي بقصد التباعد عنهن ﴿ تربص أربعة أشهر ﴾ أي انتظار أربعة أشهر ليتفكروا ويتأملوا ما هو مصلحة لهم من الرجوع لزوجاتهم أو المفارقة ﴿فان فاؤا ﴾ أى رجعوا عما حلفوا عليه بالعود لأزواجهم عند القدرة على قربانهن أو بالقول عند العجز ﴿ فان الله غفور ﴾ لما أصروا عليه سابقاً من المضارّة ﴿ رحيم ﴾ بهم فلا يؤاخذهم من أول الامر بل جعل لهم

الأجل السابق ﴿ وان عزموا الطلاق ﴾ أي عقدوا النية وصمموا عليه ﴿ فان الله سميع ﴾ لما يصدر من الطلاق ﴿ عليم ﴾ بنياتهم في ذلك فيعاقبهم عليه ان تعين عليهم بقاء العصمة لسبب شرعي انتهى

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحاً وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

لما خير الله سبحانه وتعالى المولي في الآية السابقة بين الفيئة والطلاق بين لنا في هذه الآية حكم الطلاق بقوله ﴿ والمطلقات ﴾ ذوات الحيض من الحرائر اللاتي دخل بهن الزوج وكن غير حوامل ﴿ يتربصن ﴾ أي ينتظرن براءة الرحم من الحمل ﴿ بأنفسهن ﴾ أي بسبب قمع أنفسهن ومنعها مما تشتهيه من الزواج سريعاً فيصبرن ﴿ ثلاثة قروء ﴾ أي مدة ثلاثة قروء جمع قرء بفتح القاف وضمها وقد فسر الشافعي القروء في الآية بالأطهار جمع طهر وهو المدة التي تكون بين دمي الحيض وأقلها خمسة عشر يوماً فمتى انقضى الطهر الثالث برؤية الدم عقبيه فقد حلت للأزواج لبراءتها من الحمل . وأما غير المدخول

بها فلا عدة عليها لعدم امكان الحمل . وأما الأمة فعدتها طهران فقط . ومن لا تحيض لصغر أو كبر عدتها ثلاثة أشهر ان كانت حرة واثنان ان كانت أمة واما الحامل مطلقاً فعدتها بوضع الحمل . ثم لما كان انتهاء العدة بانقضاء القروء في حق ذوات الاقراء وبوضع الحمل في حق الحامل وكان العلم بذلك لا يكون الامن المرأة جعلها الله أمينة على نفسها في العدة فتصدق في قولها اذا ادعت انقضاء عدتها في مدة يمكن ذلك فيها وأقل مدة يمكن ذلك فيها اثنان وثلاثون يوماً وساعة عند الشافعي وذلك لأن المرأة اذا طلقت في حالة الطهر ثم حاضت بعد ساعة وكانت عادتها أن تحيض أقل الحيض وهو يوم وليلة عنده ثم طهرت بعد ذلك خمسة عشر يوماً وهو أقل الطهر عنده ثم حاضت مرة أخرى يوماً وليلة ثم طهرت خمسة عشر يوماً ثم رأت الدم فقد انقضت عدتها لحصول ثلاثة أطهار . وكذلك اذا كانت حاملا فادعت سقوط الولد كان القول قولها لأنها هي الأمينة على ذلك كما ذكرنا ولهذا قال تعالى ﴿ ولا يحل ﴾ أى ولا يجوز ﴿ لهن ﴾ أي للنساء ﴿ أن يكتمن ﴾ أي يخفين ﴿ ماخلق الله في أرحامهن ﴾ من الولد أو الحيض وذلك لأن المرأة لها أغراض كثيرة في كتمانهما لأنها اذا طلقت في أول الحمل وأرادت التزوج بسرعة فربما أنها تكتم حملها وتدعي أن عدتها انقضت بالاقراء ثم اذا قبل قولها في ذلك وتزوجت لصقت ولدها بالزوج الآخر وربما أنها تكره مراجعة الزوج الأول فتكتم الحمل أيضاً وتدعي أن عدتها انقضت بالاطهار وأما غرضها من كتمان الحيض فهو أنها قد تحب

تطويل عدتها لكي يراجعها الزوج ثانياً .

فاما علم الله تعالى منهن هذه الأغراض نهاهن عن كتمان الحيض والحمل وأكد النهي بقوله ﴿ان كن يؤمن بالله واليوم الآخر﴾ وذلك لأن من آمنت منهن بالله واليوم الآخر وبعقابه لا تجتريء على مثل هذا الفعل من الأفعال العظيمة ثم ان في هذه الآية دليلاً على أن من جعل أميناً في شيء ثم خان فيه فأمره عند الله عظيم وعقابه شديد ثم بين تعالى حكم الرجعة بعد الطلاق بقوله ﴿وبعولتهن﴾ أي وأزواجهن الذين طلقوهن طلاقاً رجعياً ﴿أحق بردهن﴾ الى ملكهم بالرجعة اليهن ﴿في ذلك﴾ أي في زمان التربص الذي هو مدة ثلاثة قروء ومعني الأحقية هو أن الرجل اذا أراد الرجعة وكانت المرأة ممتنعة عنها وجب تقديم قوله على قولها وليس المراد أن لها أيضاً حقاً في الرجعة فاذا انقضت العدة بطل حق الرد والرجعة فلا تحل المرأة بعد ذلك الا بعقد جديد وانما تكون الأزواج أحق عند الله تعالى برجعة النساء ﴿ان أرادوا﴾ أي الأزواج بالرجعة ﴿اصلاحاً﴾ لما بينهم وبينهن واحساناً اليهن ولم يريدوا بها الضرر بهن فلو راجع الرجل المرأة لقصد الضرر بها فقد استحق العقاب من الله تعالى وان كانت مراجعته لها صحيحة في الشرع لأنا نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر ﴿ولهن﴾ أي للنساء على الرجال من الحقوق التي تجب مراعاتها وتتحتم المحافظة عليها ﴿مثل الذي﴾ لهم من الحقوق ﴿عليهن﴾ أي على النساء ﴿بالمعروف﴾ أي بالوجه الذي لا ينكره الشرع وعادات الناس وتوضيح العبارة أنه يجب على

الرجال للنساء حقوق تلزم مراعاتها وتتحتم المحافظة عليها مثل الحقوق
التي وجبت للرجال عليهن بوجه لا يكون منكراً في الشرع والعادة فليس
للنساء تكاليف الرجال بشئ لا يليق بهن كالأمور التي لا تليق الا
للرجال وليس للرجال تكليف النساء بشئ لا يليق بهن فاذا غسلت
المرأة ثياب زوجها أو فعلت ما تفعله النساء من طبخ ونحوه فلا يجب
على الزوج أن يفعل لها مثل ذلك ولكن يقابله بما يليق بالرجال وقد
روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال قيل لرسول الله صلى الله
عليه وسلم أي النساء خير قال التي تسره اذا نظر وتطيعه اذا أمر
ولا تخالفه في نفسها ومالها بما يكره • وقال صلى الله عليه وسلم حق
الزوج على زوجته أن لا تمنعه نفسها وان كانت على ظهر قتب وأن
لا تخرج من بيته الا باذنه • وفي حديث حجة الوداع ألا ان لكم
على نسائكم حقاً ولنسائكم عليكم حقاً فحقكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم
من تكرهون ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون ألا وحقهن عليكم أن
تحسنوا اليهن في كسوتهن وطعامهن • وقال ابن عباس رضى الله عنه انى
لأتزين لامرأتى كما تتزين لى لقوله تعالى ولهن مثل الذى عليهن
بالمعروف ﴿ وللرجال عليهن ﴾ أي على النساء ﴿ درجة ﴾ أي زيادة فى
الحق والفضيلة وهي أن الله تعالى فضلهم على النساء فى أمور أولها العقل
لان عقل النساء أقل من عقل الرجال بكثير وثانيها الدية لأن دية
المرأة نصف دية الرجل وثالثها الميراث لأن المرأة لا تساوى الرجل في
الميراث سواء استحقته بالفرض أو بالتعصيب وذلك اذا اجتمعت الذكور

معهن في التركة ورابعها أن الرجل يأخذ نصيبه من الغنيمة زائداً عن حق المرأة على فرض صلاحيتها للجهاد وخامسها أن المرأة لا تصلح لإمامة الرجال بخلاف الرجل فانه يصلح لامامتهم ولامامة النساء وسادسها أنها لا تصلح للقضاء فى حال من الأحوال بخلاف الرجل فانه يصلح له اذا كملت فيه شروط القضاء وسابعها أن المرأة لا تصلح للشهادة الا في بعض الأحوال بخلاف الرجل فانه يصلح لها فى جميع الأحوال متى كان عدلا وثامنها أن الرجل يجوز له أن يتزوج على المرأة وأن يتسرّى بجارية يستمتع بها معها وليس لها أن تتزوّج غيره وهي فى عصمته وتاسعها أنه يجوز له أن يطلقها ثم اذا طلقها واحدة أو ثنتين يجوز له مراجعتها سواء كانت مريدة للرجعة أو كارهة لها والمرأة لا قدرة لها على الطلاق ولا على الرجعة فهي كالأسير العاجز في يد الرجل ولهذا قال صلى الله عليه وسلم اتقوا الله في الضعيفين اليتيم والمرأة ﴿والله﴾ تعالى ﴿عزيز﴾ أي غالب لا يمنعه أحد عما يريده ويقدر على الانتقام ممن لا يخاف أحكامه ولم يعمل بشرعه ﴿حكيم﴾ أى مصيب في كل أفعاله وأحكامه فلا يلحق شيئاً منها احتمال العبث والسفه والغلط والباطل بل كلها منطوية على الحكم والمصالح الأزلية

قال الله تعالى

﴿ الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا

أَنْ لاَ يُقِيمَا حُدُودَ ٱللّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لاَ يُقِيما حُدُودَ ٱللّهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِما فِيما ٱفْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ ٱللّهِ فَلاَ تَعْتَدُوها وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللّهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

لما بين تعالى فى الآية السابقة أن حق الرجعة ثابت للزوج ولم يذكر جل شأنه أن ذلك الحق ثابت له دائما أو الي غاية معينة وكان الرجل من أهل الجاهلية يطلق زوجته مراراً كثيرةً بلا حصر ويراجعها عقب كل طلاق بقصد اضرارها حتى شكت ذلك امرأة الى السيدة عائشة رضى الله عنها فذكرت ذلك للمصطفى صلى الله عليه وسلم • أنزل الله هذه الآية لبيان الغاية فى الرجعة وأنها طلقتان فقط وللرد على ما كانوا عليه فقال ﴿ الطلاق ﴾ أى الرجعي ﴿ مرتان ﴾ أي ثنتان فقط فاذا زاد الطلاق عن هذا العدد بطل حق الزوج من الرجعة فلا رجعة بعد الثلاث • ثم انه تعالى خير الزوج بعد الرجعة من الطلاق الثانى بين أمرين الأمر الأول مذكور فى قوله تعالى ﴿ فامساك ﴾ أى فالحكم بعد الطلقتين امساك لهن بالرجعة ﴿ بمعروف ﴾ أي بحسن معاشرة ولطف معاملة وذلك أن يراجع الزوج زوجته بعد الطلاق الثاني لا على قصد المضارة بل على قصد الاصلاح والأمر الثاني مذكور فى قوله تعالى ﴿ أو تسريح باحسان ﴾ أي بالطلقة الثالثة كما روي أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ الطلاق مرتان ﴾ قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأين الثالثة فقال هو قوله ﴿ أو تسريح باحسان ﴾

والحكمة في اثبات حق الرجعة للزوج ولم يمنع منها بعد أول طلقة هي أن النعم يجهل فضلها عند حصولها فاذا فقدت عرف العبد فضلها فلو كانت الطلقة الواحدة مانعةً عن الرجعة فربما تظهر المحبة بين الزوجين بعد المفارقة فتعظم المشقة • وأيضاً فان كمال التجربة لايحصل بالمرة الواحدة • فلهذا اقتضت حكمته تعالى لطفاً بعباده ورحمة منه لهم أن يجعل حق الرجعة ثابتاً للزوج بعد المفارقة مرتين ليجرّب الانسان أحوال قلبه و يتأمل بعين العدل والمرحمة فيما سبق من الغضب الموجب للتفريق • فان الانسان لايخلو دائماً عن الفتن الداخلية التي هي فتن النفس الأمارة بالسوء التابعة للشيطان الرجيم الذى بوسوسته ينشأ كل الشر والغضب المؤدي الى الجيل عن مكارم الأخلاق وطرق العدل فان كان الأصلح له امساك زوجته راجعها وأمسكها بالمعروف وان كان الأصلح له تسريحها سرحها على أحسن الوجوه وهو أن يؤدي حقوقها المالية ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء ولاينفر الناس عنها وهذا التدريج والترتيب يدل على كمال رأفته تعالى ولطفه بعبده * ثم لما كان الخلع من الطلاق بينه سبحانه وتعالى وأخره عن حكم الرجعة لعدم الرجعة فيه فقال ﴿ ولا يحل لكم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أن تأخذوا مما آتيتموهن ﴾ أي أعطيتموهن ﴿ شيئاً ﴾ لا قليلاً ولا كثيراً من الصداق والثياب وسائر ما تفضلتم به عليهن لأنكم ملكتموهن بذلك وانتفعتم بهن في مقابلة ما أعطيتموهن الا اذا فارقتموهن على عوض • ويدخل في هذا النهي تضييق الزوج على المرأة بسوء العشرة حتى تلجأ الى الافتداء بنفسها منه بعوض كما

سيأتي ذلك في سورة النساء في قوله تعالى ﴿ ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن ﴾ ثم قال ﴿ الا أن يخافا ﴾ أي الا أن يظن الزوجان ﴿ أن لا يقيما حدود الله ﴾ أي ترك اقامة حدود الله فيما يلزمهما من واجبات الزوجية فيجوز حينئذ أخذ شيء من الزوجة في نظير العصمة * انتهى

وقد اختلف الأئمة في مقدار ما يجوز به الخلع فقال بعضهم لا يجوز أن يأخذ الزوج من المرأة أكثر مما أعطاها • وقال أكثرهم ان الخلع عقد معاوضة فينبغي أن لا يتقدرَ بمقدار معين فكما أن المرأة عند النكاح لا ترضى الا بالصداق الكثير فكذلك يجوز للزوج أن لا يرضى عند المخالعة الا بالبدل الكثير لا سيما اذا أظهرت المرأة الاستخفاف بالزوج بسبب اظهار بغضها وكراهيتها له • ويتأكد هذا القول بما روى أن امرأة نشزت على زوجها فرفع الزوج أمرها الى عمر رضي الله عنه فأباتها في بيت الزِّبل ثلاث ليالٍ • ثم دعاها فقال لها كيف وجدت مبيتك في هذه الليالي فقالت ما بتُّ منذ كنتُ عنده أقرَّ لعيني منهنَّ فقال عمر لزوجها اخلعها ولو بقرطها • أي ولو بمالها كلِّه حتى قرطها • ثم قال تعالى ﴿ فان خفتم ﴾ أي فان ظننتم أيها المؤمنون الحكام بين الزوجين ﴿ أن لا يقيما ﴾ أي أن يترك الزوجان ﴿ حدود الله ﴾ فيما يلزمهما من واجبات الزوجية بسبب مشاهدة بعض الأمارات والقرائن الدالة على ذلك ﴿ فلا جناح عليهما ﴾ أي فلا حرجَ على الزوج فيما أخذه منها ولا على الزوجة ﴿ فيما افتدت ﴾ نفسها ﴿ به ﴾ من المال لمخالعته

عليه وأعطته له . و يصح الخلع في حالتي الشقاق والوفاق عند أكثر المجتهدين لقوله تعالى في سورة النساء (فان طبن لكم عن شيء منه نفساً فكلوه هنيئاً مريئاً) فان الآية الشريفة تدل على أن المرأة يجوز لها أن تهب مهرها للزوج من غير أن يحصل لها أدنى شيء من الضرر بل طابت نفسها ووهبته له بدون مقابلة . واذا جاز لها ذلك فيكون جائزاً في الخلع الذي تصير بسببه مالكة لنفسها من باب أولى انتهى

ثم ان الفرقة التي تحصل في مقابلة العوض ان كانت بلفظ الطلاق فهي طلاق باتفاق الأئمة وان كانت بلفظ الخلع كخالعتك على كذا من المال ونحوه فالراجح أنه طلاق ينقص به عدد الطلقات الثلاث حتى أن الزوج لو خالع الزوجة ثلاث مرات لم تحل له الا بعد أن تنكح زوجاً غيره . ويروى هذا القول عن جماعة من أكابر الصحابة كعمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم و به قال أبو حنيفة ومالك وسبب نزول هذه الآية أن جميلة بنت عبد الله بن أُبيّ بن سلول كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس وكانت تبغضه أشد البغض وكان يحبها أشد الحب فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت يا رسول الله فرّق بيني و بين ثابت فاني لا يجمع رأسي ورأسه شيء والله ما أعيب عليه في دين ولا خلق ولكني أكره الكفر بعد الاسلام ما أطيقه بغضاً اني رفعت جانب الخباء فرأيته أقبل في عدة من الرجال فاذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً . فنزلت هذه الآية الشريفة فقال ثابت يا رسول الله مُرْها فلترد عليّ الحديقة التي

أعطيتها اياها في الصداق فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ماذا تقولين • فقالت نعم وأزيده • فقال صلى الله عليه وسلم (لا) حديقته فقط ثم قال صلى الله عليه وسلم لثابت خذ منها ما أعطيتها وخل سبيلها ففعل • وكان ذلك أول خلع في الاسلام ثم قال تعالى ﴿ تلك ﴾ أي الأحكام المذكورة في الطلاق ﴿ حدود الله ﴾ تعالى ﴿ فلا تعتدوها ﴾ أي فلا تتجاوزوها عنها بالمخالفة والرفض ﴿ ومن يتعد حدود الله فأولئك ﴾ المعتدون ﴿ هم الظالمون ﴾ لأنفسهم بتعريضها لسخط الله تعالى وعقابه وذمه وتحقيره وكيف لا والظالم ملعون عند الله تعالي كما قال جل شأنه في سورة أخري ﴿ ألا لعنةُ اللهِ على الظالمينَ ﴾ ثم ان من تعدّي حدود الله في النساء فقد ارتكب ظلمين أحدهما ظلم منه لنفسه • حيث أقدم على المعصية • وثانيهما ظلم منه للغير لأن المرأة ربما يسيء معها العشرة فتكره الاقامة عنده • فقد تكون حاملا وتكتم الحمل طمعاً في خلاصها منه بخلع أو نحوه • ثم تنسب الحمل الى غيره أو يترك امساكها بالمعروف أو التسريح باحسان أو يأخذ مما أعطاه لها شيأً بسبب نشوز من جهتها وهذا كله ظلم منه لغيره انتهى

﴿ تابع لما قبله من الآية الشريفة ﴾

﴿ فَإِنْ طَلَّقَها فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَها فَلا جُناحَ عَلَيْهِما أَنْ يَتَراجَعا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيما

حُدُودَ ٱللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

ثم انه تعالى أرشدنا فى هذه الآية الكريمة الى حكم آخر من أحكام الطلاق وهو أن الطلقة الثالثة قاطعة لحق الرجعة وأخره عن أحكام الخلع لأن الخلع أنسب بما قبله لكونه دون الغاية ، أي دون الثلاث فقال ﴿ فان طلقها ﴾ أي الزوج مرة ثالثة بعد المرتين السابقتين ﴿ فلا تحل ﴾ الزوجة ﴿ له من بعد ﴾ أي من بعد تلك المرة الثالثة ﴿ حتى تنكح ﴾ أي تتزوج ﴿ زوجاً غيره ﴾ وهذا التفسير عند من يفسر قوله تعالى ﴿ الطلاق مرتان ﴾ بالطلاق الرجعي ، وأما من يفسره بأن الطلاق الشرعي هو الذي يقع على التفريق ، فالمعنى عنده أنه ان طلقها الطلاق الموصوف بالتكرار فى قوله (الطلاق مرتان) ثم طلقها طلقة ثالثة فلا تحل له من بعد ذلك حتى تنكح زوجاً غيره ، ومذهب جمهور المجتهدين أن النكاح هنا بمعنى الوطء وليس بمعنى العقد ، وذهب سعيد بن المسيب الى أن النكاح فى هذه الآية بمعنى العقد ، وأن التحليل يحصل بمجرد العقد على الزوج الثاني ، ولا يشترط فيه الدخول والوطء ، واتفقت الأئمة على خلافه ، وأجمعوا على أنه لابد في التحليل من الدخول والوطء ، ولا يكفي مجرد العقد ، كما ذكرنا فى تفسير النكاح هنا ويؤيده ما روي عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة رفاعة جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله ان رفاعة طلقني فبت طلاقي ، وأن عبد

الرحمن بن الزبير تزوَّجني • وأن ما معه مثلُ هدبَةِ الثوب • فقال صلى الله عليه وسلم أتريدين أن ترجعي الي رفاعة قالت نعم • فقال صلى الله عليه وسلم (لاَ) حتى تذُوقي عسيلتهُ ويذوق عسيلتكِ • فكنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعسيلةِ عن لذةِ الجماع • فهذا يدل دلالةً قاطعةً على أن التحليل لا بدَّ فيه من الدخول والوَطء • ولا يصحُّ بالعقد فقط كما هو مذهبُ سعيد المذكور • وقد تمسك به بعض مَن لا معرفةَ له بعلمي الكتاب والسنة • فضلَّ عن سبيل الهدى • وأضل غيرَه معه انتهى

وروى أن امرأة رفاعةَ المذكورة لبثتْ مدةً مديدةً • ثم رجعت الي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانياً • فقالت لرسول الله ان عبد الرحمن كان مسني • فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم كذبتِ في قولك الأول • فلن أصدّقكِ في الآخرِ • فلبثت حتى قبضَ رسول الله صلى الله عليه وسلم • ثم أتت أبابكرٍ رضى الله عنه • فقالت أرجعُ الى زوجي الأول فقال لها قد عهدتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال لكِ ماقال • فلا ترجعي اليه • فلما قبضَ أبو بكر توجهت الي عمر رضي الله عنه فقالت له مثل مقالتها لأبي بكرٍ • فقال لها ان أتيتنى بعد مرَّتكِ هذهِ لأرجمنكِ • فمنعها عن الرجوع الى رفاعةَ * (والحكمة) في توقف حصول حلّ المطلقةِ ثلاثاً علي الدخول والوطء هي زَجرُ الزوج عن المسارَعةِ الي الطلاق • ونفرَةُ نفسهِ منه • فان الغالب أن الزوج اذا كان انساناً غيوراً رفيع النفس والهمةِ لا يرضى ولا يقبل

أبداً أن يستفرشَ زوجته رجلٌ آخر • فاذا علم أن التحليل ورجوعها عنده بعد الطلاق متوقفٌ علي الدخول والوطء• كف نفسه عن المسارعة الي الطلاق خوفاً من أن يقع في وَرْطةِ هذا التحليل الفظيع • وأما مجرد العقد فلا تحصل به زيادةُ نفرةٍ وبرودة في القلب فلا يصلح أن يكون مانعاً وزاجراً • ولهذا قال بعض أهل العلم انما حرم الله نساء النبي صلى الله عليه وسلم علي غيره من الرجال لأن ذلك فيه فظاعة لا تليق بجنابه صلى الله عليه وسلم انتهى •

ثم قال تعالى ﴿ فان طلقها ﴾ أي الزوج الثاني ﴿ فلاجناح ﴾ أي فلا حرج ﴿ عليهما ﴾ أي علي الزوج الأول والمرأة ﴿ أن يتراجعا ﴾ أي أن يرجع كل منهما الي الآخر بنكاح جديد ﴿ ان ظنا ﴾ أي كان في ظنهما وعزيمتهما ﴿ أن يقيما ﴾ أي أنهما يقيما ﴿ حدود ﴾ أي حقوق ﴿ الله ﴾ تعالي التي أوجبها علي الزوجين فان لم يحصل هذا الظن منهما وخاف الرجل نشوزها وخافت هي اضراره فالرجوع مذمومٌ ﴿ وتلك ﴾ الأحكام المذكورة الي هنا ﴿ حدود الله ﴾ أي أحكامه العالية المحميةُ من التعرض لها بالتغيير والمخالفة ﴿ يبينها ﴾ على لسان نبيه ﴿ لقوم يعلمون ﴾ أي يفهمون أحكام الله تعالي حق الفهم وانما خص الله تعالي البيانَ بالعلماء مع أن الدعوة عامة لأن العلماء هم الذين ينتفعون بالبيان • انتهى

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم * وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾

ثم لما بين لنا الله سبحانه وتعالى عدد الطلقات التي يملكها الزوج على امرأته أمرنا على سبيل التخيير بأحد أمرين الامساك أو التسريح فقال ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن ﴾ أي وصلن ﴿ أجلهن ﴾ أي آخر

عدتهن وقاربن منتهاها ﴿ فأمسكوهن ﴾ أي فراجعوهن ﴿ بمعروف ﴾ أي بغير أن تقصدوا ضرراً بمراجعتهن ﴿ أو سرحوهن بمعروف ﴾ أي أو خلوهن حتى تنقضي عدتهن . ثم انه تعالى صرح بالزجر عن الامساك بقصد الضرر فقال ﴿ ولا تمسكوهن ضراراً ﴾ أي ولا تراجعوهن ارادة الاضرار بهن فتحصل بذلك النفرة والعداوة بينكم ﴿ لتعتدوا ﴾ أي لتظلموهن بالالجاء الى الافتداء ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أي ومن يفعل المراجعة بقصد الضرر ﴿ فقد ظلم نفسه ﴾ في ضمن ظلمه لهن بسبب تعريضها لعقاب الله و بسبب ما فوّته عليها من منافع الدنيا والدين . أما منافع الدنيا فلأنه اذا اشتهر بسوء المعاملة مع نسائه لم يرغب أحد في التزويج له ولا في معاملته وأما منافع الدين . فانه يحرم من الثواب الذي أعده الله تعالى في مقابلة حسن العشرة مع الأهل ومن الثواب على الانقياد لأحكام الله تعالى وتكاليفه ﴿ ولا تتخذوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ آيات الله ﴾ المنطوية على جميع الأحكام التي تدخل فيها تلك الأحكام المذكورة ﴿ هزواً ﴾ أي مهزواً بها . فان من أقر بأنه يجب عليه طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم . ثم وصلت اليه هذه التكاليف المذكورة في تلك الآيات المنطوية على أحكام الرجعة والخلع وترك المضارة . ولم يجتهد في العمل بها فقد أعرض عنها واستهزأ بها وتهاون في المحافظة على ما فيها من الأحكام والحدود . فالآن بحكم عاقل ان من حق الايمان أن تمسك بآيات الله حق التمسك . وأن يعمل بما فيها من الأحكام الشريفة الشرعية .

وأن يرعاها حق رعايتها ، ومن لم يفعل ذلك فقد اتخذها هزؤاً ولعباً ، فيكون من الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ، فحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن ، ثم انه تعالى لما نهى المؤمنين عن اتخاذ آياته هزواً أراد أن يحثهم علي العمل بما فيها بأن ذكرهم نعمه عليهم فقال ﴿ واذكروا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ نعمةالله ﴾ تعالى ﴿ عليكم ﴾ حيث هدا كم الي سعادتكم الدينية والدنيوية ، فقابلوها بالشكر له والقيام بحقوقها ، وهذا يتناول كل نعمة لله على العبد في الدنيا والدين ، ثم خصص نعم الدين بالذكر فقال (و) اذكروا أيضاً ﴿ ماأنزل ﴾ الله تعالى ﴿ عليكم من الكتاب والحكمة ﴾ أي من القرآن والسنة ﴿ يعظكم به ﴾ أي بما أنزله عليكم ﴿ واتقوا الله ﴾ في شأن المحافظة عليه والقيام بحقوقها الواجبة ﴿ واعلموا أن الله ﴾ تعالى ﴿ بكل شيءٍ عليم ﴾ فلا يخفى عليه شيءٌ مما تفعلونه وما تتركونه فيؤاخذكم بأنواع العقاب ، انتهى

ثم أراد أن يبين لنا حكماً آخر غير ما تقدم فقال تعالى ﴿ واذا طلقتم النساء فبلغنَ أجلهن ﴾ أي فانقضت عدتهن بتمامها ﴿ فلا تعضلوهن ﴾ أي فلاتحبسوهن ولا تضيقوا عليهن ، وهذا الخطاب للأزواج الذين يمنعون نساءهم بعد انقضاء العدة ظلماً وقهراً من ﴿ أن ينكحنَ أزواجهن ﴾ الذين يرغبن فيهم ويُصلحون لهن ﴿ اذا تراضوا ﴾ أي الرجال والنساء تراضيا واقعا ﴿ بينهم بالمعروف ﴾ أي بالوجه الجميل الذي يحسن في الشرع عند أهل الدين والمروءة من الشروط كالعقد الحلال والمهر الجائز والشهود العدول ، وسبب نزول هذه الآية ماروي

أن مَعقلَ بن يسارٍ قال كانت لي أخت تخطبها الناس منى كثيراً وأمنعها منهم . فأتاني ابنُ عمّ لي فأنكحتها اياهُ فاصطحبا ما شاء الله ثم طلقها طلاقاً رجعياً ثم تركها حتى انقضت عدتهافلماخُطبت منى أتاني يخطبها مع الخطاب . فقلت له أنت خطبتها مني أولاً بعد أن خطبهامني جميع الناس . فمنعتهامنهم وزوّجتكَ بها . ثم طلقتها طلاقاً رجعياً فتركتها حتي انقضت عدتها . فلما خطبها الناس مني ثانياً أتيتني تخطبها مع الخطاب أيضاً . والله لا أزوجها لك أبداً . قال فنزلت في شأني هذه الآية فكفرت عن يميني وأنكحتها اياه . انتهى

ثم قال تعالى ﴿ ذلك ﴾ الذى فصلناه من الأحكام الإلهية ﴿ يوعظ به من كان منكم ﴾ أيها الناس ﴿ يؤمن ﴾ أي يصدق ﴿ بالله واليوم الآخر ﴾ فيسارع الى الامتثال لأوامره تعالى ونواهيه اجلالا له وخوفاً من عقابه ﴿ذلكم﴾ أي الاتعاظ به والعمل بمقتضاه ﴿ أزكي ﴾ أي أنمى وأنفع ﴿ لكم وأطهر ﴾ من أدناس الآثاموا كدار الذنوب ﴿والله يعلم ﴾ مافي هذا الوعظ من الزكاء والطهر ﴿ وأنتم لا تعلمون ﴾ ذلك . انتهى

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ

أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ ۚ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۚ وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

لما بين تعالى أحكام النساء من جهة الطلاق وما يتبعه من الرجعة والعدة شرع في بيان الأحكام المتعلقة بأولادهن . وهذه الأحكام منها ما يختص بالوالدة فقط ومنها ما يختص بالوالد فقط ومنها ما يشترك فيه الوالدان كما ذكره الله تعالى في هذه الآية الشريفة فقال ﴿ والوالدات ﴾ أي من النساء المطلقات ﴿ يرضعن أولادهن حولين ﴾ أي عامين ﴿ كاملين ﴾ وليس التحديد بالحولين تحديد ايجاب بل هو جائز ﴿ لمن أراد أن يتم الرضاعة ﴾ فيكون المعنى ان هذا الحكم الذي هو ارضاع الولد عامين كاملين ليس واجباً . بل هو لمن أراد اتمام الارضاع . ثم المقصود من ذكر التحديد بالعامين هو قطع التنازع بين الزوجين اذا تنازعا في مدة الرضاع . فاذا أراد أحدهما ان يفطم الولد قبل مضي الحولين ولم يرض الآخر لم يسلم له ذلك . أما اذا اتفقا على فطمه قبل

تمام الحولين فاما ذلك • وأيضاً فالرضاع يختص به حكم في الشرع •

قال النبي صلى الله عليه وسلم

(يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب) • فلما وردت الآية بتحديده بالحولين علمنا أنه اذا لم يكن واقعاً في هذه المدة لا يحصل به هذا الحكم الذي هو التحريم • انتهى

والحكمة في ندب المطلقات الى ارضاع أولادهن هي أن المرأة اذا طلقت وحصلت الفرقة بينها وبين زوجها أخذت في التباغض والتعاند الذي ينشأ منه ضرر الولد لعلمها بأن الزوج يتأذى بذلك • بل ربما رغبت في نكاح زوج آخر فيصير أمر الطفل مهملا • فلهذا كان من رأفة الله تعالى ولطفه بعباده أنه ندب النساء المطلقات الى رعاية جانب الأطفال والاهتمام بشأنهم • فتبين أن الأمر بارضاع الوالدات أولادهن في هذه الآية ليس على سبيل الوجوب بل على سبيل الندب كما بيناه في قسم الأوامر عند تفسير قوله تعالى في سورة الطلاق ﴿ فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن الى آخر الآية ﴾ • وانما كان هذا الأمر على سبيل الندب لأن تربية الطفل بلبن أمه اصلح له وأنفع من تربيته بلبن غيرها • ولأن شفقتها أكثر • وقد يكون هذا الأمر واجباً • وذلك فيما اذا لم يقبل الصبي الا ثدي أمه أو لم يوجد له مرضعة غيرها • او كان الأب عاجزاً عن استئجار

مرضعة غيرها . انتهى
﴿ وعلي المولود له ﴾ أي ويجب علي الذي يولد له الولدُ وهو والدُه ﴿ رزقهن ﴾ أي رزق الوالدات ﴿ وكسوتهن ﴾ اذا أرضعن ولدَه كما يجب عليه لغيرهن من المراضع ﴿ بالمعروف ﴾ أي بالوجه الذي يراه الحاكم ويكون لائقاً بوُسعهِ وطاقته كما قال تعالى ﴿ لا تكلف نفسٌ الاّ وُسعها ﴾ أي لا يكلف كل واحد من الوالدين صاحبه مالا يطيقه و ﴿ لا تضارَّ والدة ﴾ زوجها (بِ) سَبب ﴿ ولدِها ﴾ وذلك بأن تعنفه وتطلبَ منه ماليس بعدلٍ من الرزق والكسوة وأن تشغل قلبه بسبب التفريط فى شأن الولد وأن تقول بعد ما ألفها الصبيّ أُطلبْ لولدك مرضعة غيري ونحو ذلك ﴿ ولا مولود له ﴾ أي ولا يضارَّ والدُ امرأته (بِ) سبب ﴿ ولده ﴾ بأن يمنعها شيئاً مما وجب عليه لها من الرزق والكسوة . أو يأخذ الولدَ منها وهي تريد ارضاعه . أو يكرهها على ارضاعه وهي لا تريده . والحكمة فى قوله تعالى بولدها وبولده هي أن الله تعالى لما نهى المرأة عن المضارة للزوج أضاف اليها الولد استعطافاً لها عليه وتنبيهاً علي أن مضارتها للوالد هي فى الحقيقة مضاررة لولدها . فمن حقها واللائق بها أن تشفقَ عليه وهكذا يقال فى الوالد انتهى

وهذا الحكم المتقدم اذا كان المولود له حياً . وأما اذا لم يكن حيا فقال تعالى لبيان الحكم ﴿ وعلي الوارث ﴾ أي ويجب علي وارث المولود له ﴿ مثلُ ذلك ﴾ أي مثل ما وجب عليه للمرضعة من الرزق والكسوة . فلو مات المولود له صار من يرثه ملزوماً بالقيام مقامه فيما يجب

للمرضعة من الرزق والكسوة بالشرط المتقدم وهو العدل وتجنب الضرار ﴿ فان أرادا ﴾ أي الاب والام ﴿ فصالا ﴾ أي فطاماً عن الرضاع قبل تمام الحولين أو بعدهما صادراً ﴿ عن تراضٍ منهما ﴾ أي من الوالدين لا من أحدهما فقط ﴿ وتشاورٍ ﴾ فى شأن الولد وتفحص عن أحواله واجماع منهما علي استحقاقه للفطام ٠ والتشاور يكون مع أرباب التجارب وأصحاب الرأي السديد فلا جناح ﴿ أي فلا حرج عليهما ﴾ فى ذلك سواء تقاصا عن الحولين أو زادا عليها اذا وجدا ضعفاً فى بنية الصبيّ ٠ وهذه توسعة آخرى فى مدة الرضاع بعد تحديدها بالحولين وانما اعتبرت المشاورة لأن الأمّ قد تملّ من الارضاع فتحاول الفطام والأب قد يبخل باعطاء الأجرة علي الارضاع ٠ فيطلب الفطام دفعاً لذلك ٠ فيتفقان علي الاضرار بالولد لغرض النفس ٠ وأما عند المشاورة مع أصحاب الرأي فلم يمكنهما ذلك ٠ لأنه يبعدُ موافقة الكل علي ما يكون فيه اضرار الولد ٠ لأن تراضيَ الوالدين لا يكون الا بعد استقرار رأيهما ٠ وتقويته من أهل المشورة ٠ أو بعد اجتهاد الجميع واتفاقهم علي أن صلاح الولد في الفطام ٠ وهذه غاية العناية من الرب سبحانه وتعالى بحال الطفل الضعيف انتهى

ولما بين تعالى حكم الأم ٠ وأنها آحق بالرضاع ٠ بين أنه يجوز للآباء أن يعدلوا عنها اذا لم تكن مستوفية للشروط كأن تزوّجت أو مرضت وانقطع لبنها فحينئذ يجوز العدول الى غيرها من المراضع فقال ﴿ وان أردتم ﴾ أيها الآباء ﴿ آن تسترضعوا ﴾ أى أن ترضعوا

﴿ أولادكم ﴾ من نساء مرضعات غير الأمهات ﴿ فلا جناح ﴾ أي فلا حرج ﴿ عليكم ﴾ في ذلك ﴿ اذا سلمتم ﴾ الى المرضعات ﴿ ما آتيتم ﴾ أي ما أردتم أتيانه لهن من الأجرة ﴿ بالمعروف ﴾ أي بالوجه المستحسن شرعاً • وليس التسليم شرطاً للجواز والصحة • وانما هو ندب الى الأولى والألائق • وفيه حث على أن الذي يعطي المرضعة أجرتها يجب أن يكون اعطاؤه فورياً • حتى يكون ذلك أهنأ وأطيب لنفسها لتحتاط في شأن الصبي انتهى

ثم انه تعالى ختم هذه الآية بنوع من أنواع التحذير فقال ﴿ واتقوا الله ﴾ أيها الناس في شأن مراعاة تلك الأحكام المذكورة • وارأفوا بأمر الأطفال والمرضعات ﴿ واعلموا أن الله ﴾ الذي يحتاج اليه في كل الأحوال ﴿ بما تعملون بصير ﴾ فيجازيكم بذلك لأنه لا يخفى عليه شيء • انتهى

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾ وَلَا

تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ . وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

أرشد الله تعالى عباده في هاتين الآيتين الى حكم خطبة النساء في العدة فقال ﴿ولا جناح﴾ أي ولا حرج ﴿عليكم﴾ أيها الناس ﴿فيما عرضتم﴾ أي لوحتم ﴿به من خطبة النساء﴾ أي التماس نكاحهن في العدة ولم تصرحوا به فيها ﴿أو أكننتم﴾ أي أخفيتم وسترتم ﴿في أنفسكم﴾ أي في قلوبكم ذلك فلم تذكروه بألسنتكم لا معرضين ولا مصرحين . فبين لنا جل شأنه أنه لا يجوز للرجل أن يصرح للمرأة بالنكاح وهي في العدة لأن ذلك يحملها في الغالب علي الحرص علي النكاح فتسرع الى الاخبار بانقضاء العدة قبل أوانها وأنه يجوز له التعريض والتلويح بخطبتها من غير تصريح بذلك أو يضمر في قلبه أنه سيصرح لها بذلك بعد انقضاء عدتها . وإنما أباح الله تعالى ذلك التعريض لأنه لا يحملها علي الكذب في الاخبار عن العدة دون التصريح . ثم ان أنواع التعريض بالخطبة حال العدة كثيرة منها قول الرجل للمرأة وهي في عدتها اني بك لراغب أو من يجد مثلك أو اذا انقضت عدتك فاعلميني أو يقول لها انك لجميلة أو صالحة أو [illegible] أو اني [illegible] أن أتزوج وعسى الله أن ييسر لي امرأة صالحة

أو نحو ذلك من الكلام الذي يوهم أنه يريد نكاحها حتى ان المرأة تحبس نفسها ان رغبت فيه . وأما التصريح الذي نهى الله عنه في العدة فهو كأن يقول الرجل للمرأة اني أريد أن أنكحك أو أتزوجك أو أخطبك والدليل على جواز التعريض بالخطبة في العدة ما حكي عن جعفر بن محمد بن علي أنه دخلت عليه امرأة وهي في العدة فقال لها قد علمت قرابتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم وحق جدي علي وقدمي في الاسلام فقالت غفر الله لك أتخطبني في عدتي وأنت يؤخذ عنك فقال لها انما أخبرتك بقرابتي من نبي الله صلى الله عليه وسلم ولم أصرح لك بالخطبة انه قد دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم علي أم سلمة قبل أن يتزوجها وكانت تحت ابن عمها أبي سلمة فتوفي عنها فلم يزل صلى الله عليه وسلم يذكر لها منزلته من الله وهو متحامل على يده حتى أثر الحصير فيها . فما كانت تلك خطبة منه صلى الله عليه وسلم لأم سلمة وهي في عدة الوفاة بل هي تعريض منه بالخطبة . فانه يدل علي أن أبا جعفر المذكور كان يريد التعريض للمرأة بخطبتها فظنت المرأة أن ذلك حرام فأنكرته عليه فلما علم ذلك منها أورد الحديث المذكور عن رسول الله صلي الله عليه وسلم مع أم سلمة ليبين لها أن ما ذكره لها من التعريض جائز في العدة وليس بحرام انتهى

وفهم من الآية أن المرأة متى خلت من العدة جاز خطبتها صريحاً وتعريضاً لعدم المانع حينئذٍ ما لم تكن مخطوبة لغيره وتم الركون اليه

فيمتنع خطبتها حينئذ لدليل آخر غير الآية الشريفة وهو قوله صلى الله عليه وسلم (لا يخطبْ أحدُكم على خطبةِ أخيهِ ولا يسومْ على سومِهِ) ومعنى لا يسومْ على سومِهِ لا يتكلم في شراء أي سلعةٍ بعد الركون من بائعها لمشترٍ غيره . ثم ان هذا النهي لا يشمل خطبةَ الزوج لمطلقته طلاقاً دون الثلاث لأنه أجيز له نكاحها في العدةِ فالخطبة أولى بالجواز ثم انه تعالى ذكر الوجه الذي أباح التعريض فقال ﴿ علم الله ﴾ منكم ﴿ أنكم ستذكرونهن ﴾ بالخطبة ولا صبر لكم عن ذلك . لان شهوة النفس اذا حصلت في باب النكاح لم يكد المرء يصبرُ على النطق بما ينبئ عن ذلك فأسقط الله تعالى عنكم الحرج وأباح لكم التعريض فاذكروهن به ﴿ ولكن لا تواعدوهن ﴾ في مدة العدة ﴿ سراً ﴾ أي نكاحاً بل اكتفوا بما رُخص لكم من التعريض بالخطبة ﴿ الا أن تقولوا ﴾ لهن حين اجتماعكم بهن ﴿ قولاً معروفاً ﴾ أي لا ينكره الشرع وهو أن تواعدوهن في العدة مواعدةً بطريق التعريض والتلويح لا بطريق التصريح فانه حرامٌ كما علمتَ مما تقدم . ثم بينَ سبحانه وتعالى أن العقد نفسه مَنهيٌّ عنه في العدة وان فهم ذلك من منع الخطبة لتأكيد الأمر لشدة ما فيه من الضرر فقال ﴿ ولا تعزموا ﴾ أي ولا تصححوا ﴿ عقدةَ النكاح ﴾ في عدة النساء فتعقدوها بينكم وبينهن ﴿ حتى يبلغ الكتاب أجله ﴾ أي حتى تبلغَ العدةُ المكتوبةُ أي المفروضة أجلها أي آخرها والمعنى ولا تنكحوا أيها الرجالُ النساء وهن في العدة حتى تنقضيَ عدتهن بالأجل الذي أجله الله تعالى في كتابه لانقضائها

﴿ واعلموا ﴾ أيها الناس ﴿ أن الله يعلم ما في أنفسكم ﴾ أي ما في قلوبكم من الأمور التي من جملتها العزم على ما نهاكم عنه ﴿ فاحذروه ﴾ أي فخافوه واتقوه في أنفسكم ولا تباشروا شيئاً مما نهاكم عنه في شأن النساء ﴿ واعلموا أن الله غفور ﴾ فيغفر لمن يرجع عن عزمه خشية منه تعالى ﴿ حليم ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة . انتهى

قَالَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ * وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

اعلم أن عقد النكاح يوجب للمرأة بذل شيء على كل حال سواء حصل الدخول بها أم لا . وذلك البذل اما أن يكون مذكوراً في عقد النكاح أو غير مذكور فيه فان كان مذكوراً في عقد النكاح

وحصل الدخول ثم طلقت المرأة بعده ثبت كله لها في ذمة الزوج وقد ذكر الله تعالى ذلك فيما تقدم وهو أن المرأة اذا طلقت بعد الدخول لا يؤخذ منها شيء في مقابلة الفراق علي سبيل الظلم بل يجب لها كمال المهر * ثم اخبر تعالى ان عدتهن في هذه الحالة ثلاثة قروء . وان كان البذل مذكوراً في عقد النكاح ولم يحصل الدخول وطلقت المرأة سقط نصفه بالطلاق . وهذا هو حكم المطلقات اللاتى ذكرهن الله تعالى في الآية الثانية من هاتين الآيتين . وان لم يكن البذل مذكوراً في العقد وحصل الطلاق قبل الدخول بالمرأة فحكمها مذكور في الآية الأولى من هاتين الآيتين . وهو أنه لامهر لها بل يجب لها المتعة بقدر طاقة الزوج . وأما اذا لم يكن البذل مذكوراً في العقد وحصل الدخول بالمرأة ثم طلقت بعده فحكمها غير مذكور في هذه الآيات إلا أن الأئمة اتفقوا على أن الواجب لها مهر المثل . وذلك لأن الموطوءة بالشبهة يجب لها مهر المثل فوجوبه للمرأة الموطوءة بنكاح صحيح أولى . وهذا البيان تنبيه على أن المقصود من هاتين الآيتين بيان حكم المطلقة قبل الدخول وقبل تقدير المهر وهو المذكور في الآية الأولى منهما . وبيان حكم المطلقة قبل الدخول و بعد تقدير المهر وهو المذكور في الآية الثانية منهما كما بينهما الله تعالى بقوله ﴿ لا جناح ﴾ أي لا وزر ﴿ عليكم ﴾ أيها الرجال ﴿ ان طلقتم النساء مالم تمسوهن ﴾ أي مالم تجامعوهن ﴿ أو تفرضوا لهن فريضة ﴾ أي الا أن تقدروا لهن عند العقد مقداراً من المهر . والمعنى أنه اذا طلق الرجل

المرأة قبل الدخول ولم يسم لها مهراً عند العقد فلا يجب لها مهر أصلا
وأما اذا سمى لها مهراً عند العقد وطلقها قبل الدخول فيجب عليه حينئذ
نصف المهر المسمى . ولكن اذا لم يسم لها مهراً يجب عليه المتعة لا
نصف مهر المثل . كما بينه الله تعالى بقوله ﴿ومتعوهن﴾ أي ان
طلقتم النساء قبل الدخول ولم تذكروا لهن مهراً فطلقوهن ومتعوهن
أى اعطوهن ما يتمتعن به . وقدر المتعة واجب ﴿على الموسع﴾ أي
الغنى ﴿قدره﴾ أي طاقته ﴿وعلى المقتر﴾ أي الفقير قدره أي
طاقته وذلك بحسب ما يليق بحال كل منهما *والحكمة في ايجاب المتعة
جبر ما حصل للمرأة من ايحاش الطلاق . وأقلها درع وملحفة وخمار
على حسب الحال . وهذا اذا لم يكن مهر مثلها أقل من ذلك فان كان
أقل منه فلا تجب لها المتعة بل يجب لها الأقل من نصف مهر المثل
ومن المتعة ولا ينقص ذلك الأقل عن خمسة دراهم ﴿متاعاً﴾ أي
تمتيعاً ﴿بالمعروف﴾ أي بالوجه الذى تستحسنه الشريعة وأهل المروءة
﴿حقاً﴾ جعله الله تعالى ﴿على المحسنين﴾ أي الذين يحسنون الى
أنفسهم بالمسارعة الى الامتثال فيسارعون بتمتيع المطلقات بالمعروف *
ثم ان ما ذكرناه من وجوب المتعة هو الذي ذهب اليه الشافعي وأبو
حنيفة وذهب مالك الى أنها غير واجبة . ثم انه لا يخفى حسن موقع
الكناية بقوله تعالى مالم تمسوهن عن لفظة الجماع وفي هذا اللفظ تأديب
للعباد في أنهم يختارون أحسن الألفاظ للتخاطب والتفاهم ويبعدون
أنفسهم عن الألفاظ القبيحة فان الانسان اذا عود نفسه على حسن

اللفظ أمن عليها من الوقوع في غلط اللسان الذي هو سبب في كثير من المحن . قال الشاعر

إحفظ لسانك أيها الإنسان * لا يلدغنك إنه ثعبان

ومن الحكم المأثورة من كثر لغطه كثر غلطه . ومن تصفح أخبار الماضين وجد فيها أقواماً يضيق حصرهم ولا يحصى عددهم قد استرسلوا مع اللسان فرماهم في لجة الهلاك وتعذرت عليهم سعة الخلاص وعلم أن عثرة غير اللسان يرجي برؤها وأما عثرته فقليل درؤها

(شعر)

يموت الفتي من عثرة من لسانه
وليس يموت المرء من عثرة الرجل
فعثرته من فيه ترمي برأسه
وعثرته بالرجل تبرأ علي مهل

ثم انه تعالى لما بين حكم المطلقة التى طلقت قبل الدخول ولم يفرض لها مهر بين حكم المطلقة قبل الدخول التى فرض لها مهر فقال ﴿ وان طلقتموهن ﴾ أي وان طلقتم أيها الرجال النساء ﴿ من قبل أن تمسوهن ﴾ اي من قبل ان تجامعوهن ﴿ وقد فرضتم لهن فريضة ﴾ أي والحال أنكم قد سميتم لهن عند عقد النكاح مهراً ﴿ فنصف

مافرضتم ﴾ أي فيجب عليكم أيها الرجال نصف ماسميتم لهن من المهر عند عقد النكاح ﴿ الا أن يعفون ﴾ أي الا أن يسقط النساء المطلقات عن أزواجهن المنصف على سبيل الرحمة بهم فتقول المرأة ان هذا الرجل ماراآني ولا خدمته ولا استمتع بي فكيف آخذ منه شيئاً ﴿ أو يعفو ﴾ أي أو يترك الولي ﴿ الذي بيده عقدة النكاح ﴾ أي نكاح الصغيرة • وفسر أبو حنيفة الذي بيده عقدة النكاح بالزوج * ﴿ وأن تعفوا ﴾ أيها الرجال والنساء ﴿ أقرب للتقوى ﴾ وانما كان عفو البعض عن البعض أقرب الى حصول الاتقاء لأن من سمحت نفسه بترك حقه فقد تقرب الى ربه وكان بعيداً من ظلم غيره بأخذ ما ليس حقاً له ولأنه اذا استحق الثواب بهذا الصنع الجميل فقد اتقى العقاب واحترز عنه ﴿ ولا تنسوا ﴾ أي ولا تتركوا ﴿ الفضل ﴾ والتسامح فيما بينكم وذلك أن الرجل اذا تزوج المرأة فقد تعلق قلبها به فاذا طلقها قبل الدخول صار ذلك سبباً لتأذيها منه وانفعال خاطرها وأيضاً اذا طلقها الرجل وكلفه الشرع بأن يبذل لها مهراً من غير أن يكون قد انتفع بها صار ذلك سبباً لتأذيه منها • فلهذا حث الله تعالى كلاً منهما بلطف على تطييب قلب الآخر ببذل كل المهر من الزوج • أو بتركه من جهة الزوجة • وان لم تسمح أنفسهما بذلك فلا يجب على الزوج الا اعطاء نصف المهر كما صرحت به الآية الكريمة * وقد روي عن جبير ابن مطعم أنه دخل على سعد بن أبي وقاص فعرض عليه بنتاً له لتزوجها فقبلها وعقد عليها النكاح فلما خرج جبير طلقها سعد وبعث اليها

بجميع الصداق فقال له الحاضرون لم تزوجتها فقال لهم انه عرضها عليّ فكرهتُ رده حيث انه أكرمني ولا يأبى الكرامة الا لئيم . ثم قالوا له فلم بعثتَ بجميع الصداق والله تعالى لم يوجب عليك الا نصفه فقط فقال لهم فأين الفضل الذي أوصى الله تعالى به في قوله (ولا تنسوا الفضل بينكم) * ثم انه تعالى ختم هذه الآية الكريمةَ بما يجري مجري الوعد والوعيد على العادة المعلومة فقال ﴿ ان الله بما تعملون بصير ﴾ فلا يضيعُ ماعملتموه من التفضل والاحسان

﴿ قوله تعالى ﴾

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ . كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

ثم انه تعالى لما أوجب المتعةَ لواحدةٍ من المطلقات وهي التي طلقت قبل الدخول ولم يفرض لها مهر كما تقدم أوجبها جل شأنه لعموم المطلقات فقال ﴿ وللمطلقات ﴾ سواءٌ كنّ مدخولاً بهنّ أم لا ﴿ متاعٌ ﴾ أي متعةٌ تشمل الواجبة والمستحبة ﴿ بالمعروف ﴾ أي بالوجه الذي يرضاه الشرع وجرت به العادة ﴿ حقاً ﴾ حقه الله تعالى ﴿ على المتقين ﴾ أي على من كان متقياً للكفر والمعاصي * وسبب نزول هذه الآية أنه لما نزل قوله تعالى (ومتعوهن على الموسع قدرهُ وعلى المقتر قدرهُ متاعاً بالمعروف حقاً على المحسنين . قال رجل من المسلمين ان أحسنت

فعلتُ فان لم أردْ ذلكَ لم أفعلْ فنزلت هذه الآية * واعلم أن المطلقات على قسمين أحدهما المطلقة قبل الدخول فان لم يفرض لها مهر فلها المتعة وان فرض لها مهر فلا متعةَ لها ويكفيها نصف المهر • وثانيهما المطلقة بعد الدخول وقد اختلفوا في استحقاقها المتعةَ سواء فرض لها مهراً أم لا • فقال أبو حنيفة لا تستحق المتعة لأنها تستحق المهر كالمطلقة بعد فرض المهر لها وقبل الدخول ووافقه الشافعي في أحد قوليه وقال بعض الأئمة ان المتعةَ واجبةٌ لكل مطلقةٍ * واستدلوا على ذلك بظاهر عموم هذه الآية * ثم قال تعالى ﴿ كذلك ﴾ أي مثلَ ذلك البيان الواضح ﴿ يبين الله لكم آياته ﴾ الدالةَ على أحكامه التي شرعها لعباده ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أي لكي تفهموا ما فيها وتعملوا بموجبها * انتهى

واعلم انه قد استخرج بعض العارفين من آيات الطلاق اشارات الهيــة توصّلُ ان شاء الله تعالى من يتلقاها بقلب سليم الى المقامات العليةْ • وقد أحببنا أن نوردها في هذا الموضع تتميماً للفائدة لأن فيها تذكرةً نافعةً • وتبصرةً جامعةً • فنقول انه سبحانه وتعالى من كمال الكرم والاحسان • اذا صدر من العبد أماراتُ النشوز والانقطاع اذا أمهله الى انقضاء عدة الجفاء • فلعله يعودُ الى اقامة شرائط الوفاء • وتتحركُ داعيةُ الشوق في صميم قلبه • فتدعوه الى نتائج محبة ربه • فاذا وصل الى هذه الكمالات • ولاحت عليه أنوار تلك العلامات • لم يكتم شيئاً مما خلقه الله في رحم قلبه من المحبة • وان ابتلاه الله بمحنة الفرقة قرعَ بأصبعِ الندامة باب التوبة • فاذا تقرب العبد اليه بالتوبة

تقرب اليه بعفوه ورحمته ﴿ والله عزيز ﴾ أعز من أن يراعيَ العبادَ في كل أحوالهم بلطف رأفته مع عجزهم عن كمال حقوقه ﴿ حكيم ﴾ لا تقتضي حكمته أن يطالبهم بما ليس في وسعهم بل يقبلُ منهم القليل ويوفيهم الثوابَ الجزيلَ * واعلم هداك الله الى طريق المعرفة أننا ذكرنا تفسير كل الآيات المتعلقة بالطلاق والعدة في موضع واحد لعدم الاحتياج الى ذكرها في مواضع متفرقه تسهيلاً للواقفين على كتابنا هذا * ونسأله سبحانه وتعالى أن يجعلنا واياك من أهل اليقين • وأن يسلك بنا الصراط المستقيمَ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين • انه أكرمُ مسؤل وأعظم مأمولْ آمين • انتهى

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين أصول المبدء والمعاد أتبع ذلك ببيان المصارف المعتبرة شرعاً في انفاق الأموال• وانما بين في مواضع كثيرة الأدلة المثبتة لوجوب قدرته تعالى على الإحياء والاماتة ليعلم

العاقل أنه لولا وجود هذا الاله المثيب والمعاقب بعد الحشر لكان التكليف بالانفاق وسائر الطاعات عبثاً فكأنه تعالى قال لمن رغبه في الانفاق ياعبدي قدعرفتَ أني خلقتكَ وأتممتُ نعمتي عليك بالاحياء والاقدار وعلمت قدرتي على المجازاة والاثابة فليكن علمك بهذه الأحوال داعياً الى انفاق الأموال فاني أُجازي على الشيء القليل بالشيء الكثير * ثم انه تعالى ضرب لذلك الكثير مثلا وهو أن حال المتصدق مثلُ من بذَرَ حبةً أخرجتْ سبع سنابلَ في كل سنبلة مائةُ حبةٍ فصارت الواحدة سبعمائة • وانما ضرب الله تعالى هذا المثل لعباده بعد أن احتج عليهم جميعاً بما يوجب تصديق النبي صلى الله عليه وسلم ليرغبوا في المجاهدة بالنفس والمال في نصرته واعلاء شريعته • وأيضاً لما بين تعالى الأدلةَ القاطعةَ بصحة المعاد وأنه لا بد له من زاد ولا يمكن التزود من الأموال التي يملكها العبادُ الا بالانفاق بين في هذه الآية الكريمة أحكامهُ فقال ﴿ مثلُ ﴾ صدقات العباد ﴿ الذين ينفقون ﴾ أي يصرفون ﴿ أموالهم ﴾ الحلال الطيبة ﴿ في سبيل الله ﴾ أي في دينه من جميع أبواب الخير ﴿ كمثلِ حبة أنبتتْ سبع سنابل ﴾ أي أخرجت ساقاً من الأرض تشعب منه سبع شعب لكل شعبة منها سنبلة ﴿ في كل سنبلةٍ مائةُ حبةٍ ﴾ وهذا مشاهدٌ في نوع في الذرة والدخن في الأراضي المغلة بل يشاهدُ أكثر منه • ثم ان المنبت في الحقيقة هو الله تعالى لكن لما كانت الحبة سبباً في الانبات أسند اليها كما يسند الى الأرض والمطر وهذا التمثيل تصويرٌ للاضعاف التي

يضاعفها الله تعالى من الحسنات حتى كأنها حاضرة بين يدي الناظر ﴿ والله يضاعف ﴾ تلك المضاعفة أو فوقها على حسب ما يشاء ﴿ لمن يشاء ﴾ أن يضاعف له بفضله على حسب حال المنفق من اخلاصه ولذلك تفاوتت مراتب الأعمال في مقادير الثواب ﴿ والله ﴾ تعالى ﴿ واسع ﴾ لا يضيق عليه ماتفضل به من الزيادة ﴿ عليم ﴾ بنية المنفق و بمقدار ما انفقه و بكيفية تحصيله فيجازيه على قدر حسن نيته وكما صرح الكتاب الكريم بتلك المضاعفة صرحت به السنة أيضاً فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (من أنفق نفقة في سبيل الله كتبت له سبعمائة ضعف • وكما تكون هذه المضاعفة في النفقة تكون في غيرها من الأعمال كما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الصلاة والصيام والذكر تضاعف على النفقة في سبيل الله تعالى بسبعمائة ضعف •

تابع لما قبله من الآية الشريفه

﴿ أَلَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

ثم انه تعالى لما عظم أمر الانفاق أتبعه ببيان الأمور التى تجب مراعاتها عند الانفاق حتى يبقى الثواب الذي وعد الله به المنفقين فقال

﴿ الذين ينفقون أموالهم ﴾ الحلال ﴿ في سبيل الله ﴾ أي في وجوه الخير ﴿ ثم لا يتبعونَ ما أنفقوا ﴾ أي الشيء الذي أنفقوه ﴿ مناً ﴾ أي اعتداداً على من أحسنوا اليه باحسانهم ويظهرون له أنهم أوجبوا عليه بهذا الاحسان حقاً كقول المنفق لمن أخذ منه النفقة أنا أحسنت اليك ونحو ذلك ثم قال تعالى ﴿ ولا أذًى ﴾ أي ولا تطاولاً من المنفق على الآخذ بالاساءة بسبب انعامه عليه كقوله له ما انت الا ثقيل • و باعد الله بيني و بينك • وقد روى فى الحكم المأثورة • صفوانٌ من منح سائلهُ ومنّ • ومنع نائله وضنّ • وانما قدم الله المن على الأذى في هذه الآية الكريمة لكثرة وقوعه من الناس ولأنه اشد ذماً من الأذى • و بيان ذلك أن فيه انكساراً لقلب الفقير وتنفيراً لذي الحاجة عن صدقة من يكون انفاقه متبوعاً بالمنّ و يدل أيضاً على عدم اعتراف ذلك المنفق بأن النعمةَ نعمة الله والعباد عبادُه وعلى عدم يقينه بأن المعطي هو الله • واذا كان العبد متصفاً بهذه الأوصاف كان محروماً من مطالعة الأسباب الربانية الحقيقية وكان فى درجة البهائم التى لا يرتقى نظرها من المحسوس الى المعقول ومن الآثار الى المؤثرات • وفي هذه الآية اشارة الى أن المنّ والأذى من قبيل الكبائر لأنهما يخرجان هذه الطاعة العظيمةَ عن درجة القبول عند الله تعالى ثم ان النفقة التى تكون مقبولةً عند الله تعالى هي التى تصدر من المؤمنين المخلصين بدليل قوله تعالى ﴿ لهم أجرهم ﴾ على انفاقهم ﴿ عند ربهم ﴾ فيمنحهم من خزائنه الواسعة ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ في الدنيا والآخرة من لحوق

مكروه من المكاره ﴿ ولاهم يحزنون ﴾ على فوات أى مطلوب من المطالب القليلةُ أوالكثيرة والمراد أنهم لايقع بهم ما يوجب الخوفَ والحزَن • وأماحصول نفس الخوف والحزن عندهم فلايضر فى درجتهم بل هو ممدوح عند الله تعالى لأن حصول الخوف والخشية فى قلب العبد دليل على استعظامه لجلال الله تعالى وهيبته وعلى اجتهاده وسعيه في اقامة حقوق العبودية •ولا يخفى أن المتصف بذلك إنمــا هو من الخواص والمقربين • انتهى

وروي أن هذه الآية الكريمة نزلت فى حق عثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوفٍ رضي الله عنهما أما عثمانُ فانه جهز جيش العسرة بماله في غزوة تبوك فجهز ألف بعيرٍ بأقتابها ودفع آلف دينارٍ فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه الى السماء (وقال يارب) عثمانُ رضيت عنه فارض عنه • وأماعبدالرحمن بنُ عوفٍ فانه تصدق بنصف ماله وهو أربعة آلاف دينار •ومع هذا التصدق الجميل لم يخطرْ ببالهما شيٌ من المنّ والأذى • بل تصدقا به ونفسهما طيبةٌ مستبشرةٌ فعنــد ظهور هذا الاخلاص منهما أنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآية فى حقهــما ليزداد قلبهما ايماناً على ايمانٍ • وليقتدي بهما غــيرهما من المؤمنين الحاضرين وغيرهم ممن يؤمنْ بالله ورسوله حتى لاتصدر منهم صدقةٌ الا ويتبعها الاخلاصُ وحسنُ النية ولا يتبعها المنّ والأذى أبداً • لأن الله تعالى نبه بهذه الآية الكريمة على أن الانفاق يبطله المنّ

والأذى *ثم ان الانفاق لا يكون محموداً الا اذا كملت فيه ثلاثة أوجه الأول أن يكون صادراً بحسن النية وطيب النفس حتى يكون مقبولاً عند الله تعالى • والوجه الثاني أن يكون مزيلا لرذيلة البخل عن المنفق • والوجه الثالث أن يكون نافعاً مريحاً للمستحق المحتاج للنفقة • والمنفق اذا صدر منه المن والأذى فقد خالف أمر الله تعالى لانه منهي عنهما • وظهرت نفسه بالاستطالة والاعتداء والعجب ورؤية النعمة منه لا من الله تعالى • وهذه كلها رذائل أسوء حالاً من البخل متولدة عنه • ولولم يكن لهذا المنفق الا رؤية نفسه بالفضيلة لكان كافياً له في بطلان هذا العمل • لأن ذلك يقتضي الترفع على العباد • وينفي ما أراده الله تعالى من الأمر بالصدقة • وهو أنه جل شأنه جعل الانفاق والتصدق سبباً لطهارة الأبدان ووسيلة الى الترقي في درجات الاحسان انتهى

﴿ تابع ما قبله مما يتعلق بالانفاق ﴾

﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴾

بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أن السائل يرد بطريق حسنة وعدة كريمة • وأنه اذا أكثر في الالحاح وثقل على المسؤل يطلب الصفح والعفو عنه فقال ﴿قولٌ معروفٌ﴾ أى كلام جميل تقبله

القلوب ولا تنكره النفوس يُردُّ به السائلُ اذا لم يُعطَ شيئاً ﴿ ومغفرةٌ ﴾ أي وصفحٌ عن السائل وسترٌ لما وقع منه من الالحاح فى السؤال وغيره مما يثقلُ على المسؤل ۰ لأنّ السائل اذا رُدّ من غير مقصوده فربما حمله ذلك على التطاول بلسانه ۰ فلهذا حث اللهُ تعالى المسؤل على القول الجميل له والعفو عنه وأخبر أنهما ﴿ خيرٌ ﴾ للسائل ﴿ من صدقةٍ يتبعها أذى ﴾ وذلك لأن الكلام الجميل والعفوَ عنه خالصان من الضرر ۰ وفيهما سرورٌ لقلب السائل ۰ وأما الصدقة المتبوعة بالمن والأذى ففيها ضررٌ للسائل وكسرٌ لخاطره ﴿ والله غني ﴾ لا يحوج الفقراء الى تحمل مشقة المن والأذى ويرزقهم من جهةٍ أخرى ﴿ حليم ﴾ لا يعاجل أصحاب المن والأذى بما يليق بهم من العقوبة مع أنهم يستحقونها ۰ واعلم أن الله تعالى ذكر ثلاثَ إنفاقاتٍ وفاضلَ بينها فى الجزاء ۰ أولها الانفاق فى سبيل الله ۰ وهو انفاقٌ يعطيه صاحبُه ليثيبه الله تعالى ۰ وقد وعده أن يعطيه عليه من الثواب سبعمائة ضعف ما أنفق ۰ ثم زاد فى الأضعاف زيادةً غيرَ متناهية للمنفق على حسب مشيئته تعالى ۰ لأن عطائه جلتْ قدرته أوسعُ من عطاء المنفق وُسعاً لا نهاية له ۰ وثانيها الانفاق عن مشاهدة الصفات ۰ وهو لطلب رضا الله تعالى كما أن الانفاق الأول لطلب عطائه ۰ وثالثها الانفاق بالله ۰ وهو انفاق المحبين أرواحَهم وقلوبَهم فى طلب القرب منه والوصول اليه ۰ فالذين ينفقون أموالهم في سبيل الله لهم الجنة ۰ والذين ينفقون أرواحهم وقلوبَهم في سبيل المحبة لهم جمالُ الله ۰ والصدقة الصغيرة عظيمةٌ عند

الله . فان مَن أعطى تمرةً الى فقير يأخذها الله بيمين قدرته (١) ويربيها كما يربي أحدُ كم الطفلَ الصغيرَ حتى تكون أعظم من الجبل . والمؤمن اذا أشغلَ قلبَه بحب الله وطلب رضائه وأعرض عن غيره ملأ الله قلبه بنور المعرفة وزاده اتساعاً . فقد ورد أن من أعطى قلبه الى الله (٢) فهو يربيه بين يدي جلاله حتى يصيرَ أعظم من العرش بما فيه . فالعاملون علي قسمين . قومٌ بذلوا المال لله . وقومٌ بذلوا أنفسهم للعبادة في الخلوات وصفاء الأوقات . وكلهم يرغبون فى طلب الحق ليكونوا فى درجة أرباب الصدق والقيام بأمورهم فتُشفى صدورهم ويؤثرون علي أنفسهم ولو كان بهم خصاصةٌ (٣) فبذلوا ليحصلوا . وحصلوا لينفصلوا . وانفصلوا ليتصلوا . واتصلوا ليصلوا . فطلبوا ذات الله فى انفاق أموالهم وأنفسهم . ولم يطلبوا بانفاقهم ثناءَ ولا جزاء . وكانوا داخلين في زمرة المقربين الذين نزل فى حقهم قوله تعالى (انما نُطعمكم لوجه الله لا نريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً) . وهؤلاء أقوامٌ عاملوا الله وعرفوا أن المعاملات اذا كانت مشوبةً بالأغراض يكون فيها نوعٌ

(١) قوله ياخذها الله تعالي بيمين قدرته . المراد من هذه العبارة ان الله تعالى يقبل التصدق بهذه التمرة . ثم يضاعف ثوابها عنده حتى انه لو فُرض تجسيمه لكان أعظم من الجبل جسماً

(٢) قوله من أعطى قلبه الي الله الخ المراد به الاشتغال بطاعة الله تعالى وحبه قلباً وروحاً خالصاً لوجهه الكريم

(٣) خصاصةٌ أى شدةُ احتياج الي الشئ الذي يقدمون غيرهم به على أنفسهم

من الاعراض عن الحق • ومن أعرض عن الحق فقد أقبل على الباطل ومن أقبل على الباطل فقد أبطل حقوقه في الأعمال • قال تعالى (فذلكم اللهُ ربكمُ الحقُّ فما ذا بعد الحقِّ الاّ الضلالُ) • فيا أيها المتصدقُ لا تقصدْ بصدقتك غير الحق تعالى ولا تمنن بها على الفقير • لأنك لو اطّلعتَ على الواقع لعلمتَ أنه صاحب المنةِ عليك فصرت رهينَ منتهِ واحسانه • فيكون ذلك سبباً في وصولك الى الحق • ولهذا المعنى أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله (لولا الفقراء لهلكَ الأغنياء) أي لولا وجود الفقراء لما وجدَ الأغنياء سبيلاً الى الحق أي مَصرفاً للحق الواجب عليهم • وقال بعضهم في معنى قوله صلى الله عليه وسلم (أليدُ العليا خيرٌ من اليدِ السفلى) ان اليدَ العليا هي يدُ الفقير • واليد السفلى هي يدُ الغني • وذلك لأن الفقير يأخذ من الغني الدنيا وهي المال • ويعطيه الآخرة وهي الثواب الذي يفيضه الله عليه بسبب الانفاق •

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ

فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين * ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴾

ثم انه تعالى ضرب في هاتين الآيتين مثلين . المثل الأول للمنفق المؤذي . وهو الذي في الآية الأولى والمثل الثاني للمنفق غير المؤذي وهو الآية الثانية فقال ﴿ ياأيها الذين آمنوا ﴾ أي صدقوا بالله ورسوله وأنفقوا في سبيله تعالى طالبين أجر الصدقات ﴿ لا تبطلوا ﴾ أجر ﴿ صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ أي بواحد من المن والأذى للفقير فلا تجدونه أي أجر الصدقة غداً عندي . فان مثل من يبطل صدقاته بالمن والأذى ﴿ كا ﴾ لمنفق ﴿ الذي ينفق ماله رئاء الناس ﴾ وهو أن يرائي بعمله العباد ولا يريد رضاء الله وثواب الآخرة ﴿ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ لأنه لو كان مؤمناً بالله لكان ينفق لله . ولو كان يؤمن باليوم الآخر لأنفق للآخرة لا للناس . ثم انه تعالى لما شبه صاحب المن والأذى بالمرائي في الانفاق . شبه المرائي في الانفاق بالحجر الأملس ومنه يعلم الفطن العاقل تمثيل حال من أبطل صدقته بالمن والأذى بمثل آخر فقال ﴿ فمثله ﴾ أي فمثل المرائي في الانفاق وحالته

العجيبة ﴿ كمثل صفوان ﴾ أي كمثل حجر أملس ﴿ عليه تراب ﴾ أي عليه شيءٌ يسيرٌ من التراب ﴿ فأصابه وابلٌ ﴾ أي أصابه مطرٌ عظيمُ القطر ﴿ فتركه صلداً ﴾ أي فتركه أملسَ ليس عليه شيءٌ من الغبار أصلاً • وانما مثلَ الله تعالى المنفقَ المرائي وصاحب المنّ والأذى بمثل الصفوان المتصف بالصفات المذكورة في الآية الكريمة لأن الناس يرَوْن في الظاهر أن لهؤلاء أعمالاً صحيحة يُعتد بها كما يرون التراب علي هذا الصفوان • فاذا كان يوم القيامة اُضمحلّ هذا العمل كله و بطل • لأنه ظهر أن أعمال هؤلاء الناس لم تكن لله تعالى ولم يأتوا بها علي وجهٍ يستحقون به الثواب • لأن المن والأذي والنفاق بالرياء أذهب هذه الأعمال كما يذهب الوابلُ ما يكون على الصفوان من التراب • فلا ينتفعون بهذه الأعمال كما قال تعالى ﴿ لا يقدرون علي شيءٍ مما كسبوا ﴾ أي لا يجدون ثوابَه يوم العرض على الله كما أنه لا يوجد علي الحجر الأملس بعد المطر الشديد شيءٌ من التراب ﴿ والله لا يهدي القومَ الكافرين ﴾ الى الخير والرشاد • بل يَسلبُ الايمان عنهم لسوءِ اختيارهم • وفى هذه الآية اشارةٌ الي أن الرياء والمنّ والأذي من خصائص الكفار فلا بد للمؤمنين أن يجتنبوها ولا يتصفوا بشيءٍ منها • لأن من اتصف به يكون كافراً ﴿ ومثلُ الذين ينفقون ﴾ على الفقراء ﴿ أموالهم ﴾ التى اكتسبوها من الحلال ﴿ ابتغاء مرضات الله ﴾ أي طلباً لرضاه ﴿ وتثبيتاً من أنفسهم ﴾ أي وتوطيناً لها على حفظ هذه الطاعة وترك مايفسدها من المن والأذي • وقال بعضهم

لا تثبتُ النفسُ في موقفِ العبودية الا اذا صارت مقهورةً بالرياضة
وهي بذلُ الروح في الطاعة وانفاقُ المال في وجوه الخير . لأنها
لا تحب الا أمرين الحياةَ العاجلة والمالَ النفيس فاذا بذل العبد ماله
وروحه معاً (١) ثبتت نفسه كلها كما قال تعالى في سورةٍ أخرى
(يا أيها الذينَ آمنوا هل أدُلكمْ علي تجارةٍ تُنجيكمْ من عذاب
أليم تؤمنون بالله ورَسولهِ وتجاهدون في سبيل الله بأموالكمْ
وأنفسكم ذلكم خيرٌ لكم ان كنتمْ تعلمون يَغفرلكم ذنوبكم ويدخلكم
جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكنَ طيبةً في جنات عدن ذلك
الفوزُ العظيمُ) واذا بذلَ ماله فقط لوجه الله فقد بذلَ بعض نفسه
فيكون المعنى ومثل نفقة هؤلاءِ المخلصين في زيادة ثوابها عند الله
﴿ كمثل جنةٍ ﴾ أي كمثل بُستان كائنٍ ﴿ بربوةٍ ﴾ أي بمكانٍ مرتفع
من الأرض مأمون من أن يتلفه البردُ . وذلك لأن المكانَ المرتفع
يكون هواؤه لطيفاً بسبب هبوب الرياحِ الملطفةِ له فتكون أشجار
الأماكن المرتفعة أحسن منظراً وأزكي ثمراً بخلاف الأماكن المنخفضة
فانها لما كانت الرياح قليلة الهبوب فيها فقلما تَسلم ثمارها من التلف
لغلظ هوائها بسبب قلة هبوب الرياح . ثم وصف الله تعالى هذه الجنة

---

(١) قوله اذا بذل العبد ماله وروحه معاً بيان حقيقة العبودية
لمن أراد السلوك الى الله تعالى واستغنى عما سواه من المال والحياة
وغيرهما عشقاً لنور جماله فقط

المذكورة بقوله ﴿ أصابها ﴾ أي نزل بها ﴿ وابلٌ ﴾ أي مطر عظيمُ القطر ﴿فآتت أُكلها﴾ أي فأعطتْ ثمرها وما يؤكل منها ﴿ضعفين﴾ أي مِثليْ ما كانت تثمرُ في سائر الأوقات بسبب ما أصابها من الوابل ﴿ فان لم يصبها ﴾ أي فان لم ينزلْ ﴿ بها وابلٌ فـ ﴾ يكفيها ﴿ طلٌّ ﴾ أي مطر صغيرُ القدر في اتيان هذا الثمر بعينه ولا ينقص منه شيءٌ وذلك لجودتها وكرم مَنبتها ولطافة هوائها والمعني أن تلك الجنة تكونُ مثمرةً مع المطر القليل والكثير فكذلك نفقات من ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله يزكو انفاقهُ عند الله ولا يضيع كسبُهُ قلَّ أو كثر * ثم انه تعالى رغب عباده المنفقين فى الاخلاص وحذَّرهم من المنّ والأذي والرياء حال الانفاق فقال ﴿ والله بما تعملون ﴾ من وجوه الانفاق وكيفيتها والأمور الباعثة عليها ﴿ بصيرٌ ﴾ لا يخفى عليه شيءٌ منها فيجازيكم بحسب النيات وخلوص الطويات

﴿ تابع لما قبله من الآية الشريفه ﴾

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

ثم انه سبحانه وتعالى ضرب مثلاً آخر ورغب به المنفقين في الانفاق الخالص المستكمل لجميع الشروط وحذرهم عن ضده فقال ﴿ أيودُّ ﴾ أي أيحب ﴿ أحدكم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أن تكون له جنةٌ ﴾ أي حديقةٌ كائنة ﴿ من نخيلٍ وأعنابٍ تجري من تحتها ﴾ أي من تحت أشجارها ﴿ الأنهار ﴾ بمائها العذب ﴿ له ﴾ أي لهذا المالك ﴿ فيها ﴾ أي في هذه الجنة ﴿ من كل الثمرات ﴾ المحتوية على المنافع الكثيرة • ثم ان المالك لتلك الجنة ضعف عن الكسب ﴿ وأصابه الكبرُ ﴾ أي كبرُ السن الذي هو محل الاحتياج والفقر ﴿ وله ذُرّية ﴾ أطفالٌ صغار ﴿ ضعفاء ﴾ أي لا يقدرون على الكسب ﴿ فأصابها ﴾ أي فأصاب تلك الجنة ﴿ اعصارٌ ﴾ أي ريح عاصفة تستدير في الأرض ثم تسطعُ الى السماء على هيئة العمود ﴿ فيه نارٌ ﴾ شديدةٌ فاحترقت تلك الجنة وفقدها هذا المالك المحتاج وصار هو وأولاده في غاية الحاجة متحيرين • والمعنى أن الذي ينفق أمواله بالمن والأذى أو يرائي في انفاقها أطفأ الله نوره وأذهب بهاء عمله وأحبط أجره • حتى يلقى ربه يوم القيامة في أشد الحاجة الى عمله • ثم يجد هذه النفقات هباء منثوراً مع أنه في شدة الحاجة الي ثوابها فينفطر قلبه من التحير والتأسف عليها • فمثله في هذه الحالة كمثل صاحب تلك الجنة الذي ضعف من الكبر وله ذريةٌ أطفالٌ لا يقدرون على الكسب فأصاب جنته ريح شديدٌ فيها نارٌ فاحترقت و بطلت منافعها عنه و بقي لا يملك شيئاً مع أنه في هذه الحالة عاجز عن عمارتها واحيائها ومحتاج اليها ومضطر الى ثمرها •

ولا يخفى أن هذا المثل أبلغُ الأمثال في المقصود الذي هو ترغيب المنفقين فى الاخلاص بالنفقة وتحذيرهم من المن والأذي والرياء فيها وذلك لأن الانسان اذا ملك جنة فى غاية الكمال • وكان في غاية الاحتياج الى المال بسبب بلوغه أوانَ الكبر مع وجود أطفالٍ له عاجزين عن الكسب فاذا أصبح وشاهد تلك الجنة محترقة بالصاعقة امتلأ قلبه من الحسرة وبصره من الحيرة فكذلك المنفق يكون انفاقه مثل الجنة المذكورة فاذا أتبعَهُ الرياء أو المنّ والأذى كان ذلك كالاعصار الذي يحرق تلك الجنةَ ويورثه الخيبة والندامة حين شدة احتياجه يوم القيامة الى عمله الذي يكون سبباً فى خلاصه من العذاب الأليم ووصوله الي النعيم المقيم ﴿ كذلك ﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح الذي صار ظاهراً مثل الأمور المحسوسة ﴿ يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون ﴾ في احسانه اليكم فلاتبطلوه بقبيح فعالكم ولا تضيعوا أعماركم في طلب آمالكم • واستعدوا للموت قبل حلول آجالكم • فنبه الله تعالى على أن الانسان حيث خُلق فى أحسن تقويم مستعداً لجميع الكمالات منوّراً بأنوار العقل والحواس السليمة منفرداً بحمل الامانة ومتأهلاً لرتبته في الكمال ينبغي له أن ينظر بروحه وقلبه الى الطريق الموصلة الى الهداية حتى لايقع منه أي عمل من الأعمال فى غير موقعه • فانه ان سلك هذا المسلك السعيد لوحظ بنظر العناية ولاحت عليه أنوار الهداية • وقويتْ فيها قواهُ البشريةُ • وتغذّت بأغذية ثمراتها • وتبدلت أخلاقه الشريّة الحيوانية بالأخلاق الروحانية

الملكية * وأما من عمل صالحاً من انفاق أو غيره متقرباً به الى الله مبتغياً رضاه . ولم ينظر بقلبه وروحه الى طريق الهداية بل ظهرت نفسه في هذا العمل . وتحركت بحركة مخالفة لحركة الروح ودواعيها النورانية . فلا بد أن الشيطان يأخذ هذه الحركة المذمومة مجالاً له بالوسوسة ثم ينفخ فيها بدواعي الشر المبطلة لهذا العمل . ويكون ذلك النفخ ناراً تحرق هذا العمل مع أنه أحوج ما يكون اليه . ولهذا المعنى أشار الامام علي كرّم الله وجهه بقوله (اللهمّ اغفرْ لي ماتقرَّبتُ اليك ثم خالفه قلبي) * انتهى

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ٱلشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَاءِ * وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ * وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو ٱلْأَلْبَابِ﴾

ثم انه تعالى لما رغب عباده فى الانفاق من أجود وأحسن مايملكونه حذَّرهم عن وسوسة الشيطان فقال ﴿ ألشيطانُ ﴾ الذي هو عدوكم ﴿ يعدُكم ﴾ على الانفاق ﴿ الفقرَ ﴾ ويقول لأحدكم انأنفقت كذا

صرت فقيراً محتاجاً الى الناس ﴿ ويأمركم بالفحشاء ﴾ أي ويغريكم ويحرضكم على الخصلة المذمومة التي هي الفحشاء ومنها البخل ومنعُ الصدقات . اغراءَ الآمرِ للمأمور على فعل المأمور به . ثم ان لفظ الشيطان يشمل ابليسَ وجنوده وشياطين الانس والنفسَ الأمارةَ بالسوء . فهو اسمٌ جامع لكل ذي سوء . فلايأمر الا بالشر ظاهراً وباطناً . فيرغب الانسان في البخل والحرص واليأس من الحق سبحانه وتعالى حتى يصيرَ العبدُ بسبب وسوسته شاكا في مواعيده تعالى فيجوّز عليه الخلف فيها . وتضعفُ نيته فيسيءُ الظنَّ بالله ويترك التوكل عليه وينسَى فضله العميمَ . ويصيرُ قلبه متعلقاً بغيره تعالى معرضاً عن الطاعات مقبلاً على اتباع الشهوات وتركِ العفة والقناعة والتمسك بحب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة وأصلُ كل بليةٍ . فمن فتح على نفسه بابَ الوساوس الشيطانية فسوف يبتلى بهذه الآفات وأضعافها . فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (انَّ للشيطان لمةً بابن آدم وللملك لمةً فأما لمة الشيطان فإيعادٌ بالشرّ وتكذيب بالحق . وأما لمة الملكِ فوعدٌ بالخير وتصديق بالحق . فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله . ومن وجد الأخري فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ صلى الله عليه وسلم (ألشيطان يعدكم الفقر الى آخر هذه الآية الكريمة) . انتهى

وأما من فتح علي نفسه باب مواعد الحق . فانه تعالى يفيض عليه برَّ غفرانه وبحارَ فضله واحسانه . واعلم أن المحققين جعلوا الخُلُقِ

المنفق ثلاثة أطراف . طرف كامل . وطرف خسيس . وطرف متوسط . فأما الطرف الكامل لخلق المنفق . فهو أن يبذل كل ماله في سبيل الله تعالى . وأما الطرف الخسيس فهو أن لا ينفق لا من الجيد ولا من الرديء شيئاً . وأما الطرف المتوسط فهو أن يبخل بانفاق الجيد وينفق الرديء . فاذا أراد الشيطان أن ينقل العبد من الخلق الكامل الى الخلق الخسيس جره بخفي حيلته الى الخلق المتوسط أولاً . فيقول له ان أنفقت جيد مالك صرت فقيراً . فلا تنفق الا من الرديء . ثم جره ثانياً الى الطرف الخسيس فيغريه على البخل وعدم الصدقة . وانما لم يجره الشيطان الى الطرف الخسيس من أول الأمر . لأن منشأه البخل ومنع الصدقة . وهذه صفة مذمومة عند كل أحد . فلا يمكنه أن يجره ابتداء اليها الا بتقديم مقدمة هي تخويف المنفق بالفقر اذا أنفق الجيد من ماله . فاذا أطاعه المنفق زاد في اغرائه على الشر حتى يمنعه عن الانفاق بالكلية . وربما انجر معه الى منع الحقوق الواجبة . فلا يؤدي الزكاة ولا يصل الرحم ولا يرد الوديعة . فاذا صارت حالة العبد هكذا . ذهب خوفه من الله تعالى فيتسع الخرق عليه فلا يبالي بفعل المعاصي كلها . ثم انه تعالى لما ذكر درجات وسوسة الشيطان . أردفها بذكر إلهامات الرحمن فقال ﴿ والله يعدكم ﴾ على الانفاق لوجهه الكريم ﴿ مغفرة ﴾ لما ترتكبونه من الذنوب كائنة ﴿ منه ﴾ تعالى ﴿ وفضلا ﴾ أي وخيراً في الدنيا والآخرة كائناً منه جل شأنه . فالمغفرة في الآية اشارة الى الوعد منه تعالى على

الانفاق بالمنافع الأُخروية . والفضلُ فيها اشارةٌ الى الوعد منه تعالى مع ذلك بالخَلَفِ الذي يحصل في الدنيا للعبد بسبب انفاقه . فقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (ان الملك ينادي كل ليلة اللهمَّ أعط منفقاً خلفاً . وممسكا تلفاً) . فيا أيها المؤمنون ان الشيطان يعدكم الفقر في الدنيا والرحمن يعدكم المغفرة في الآخرة . ولا شك أن وعد الرحمن أولى بالقبول من وعد الشيطان . وذلك لأن الوصول الى خير الدنيا غيرُ متحقق . وأما الوصول الى خير الآخرة فمقطوع به من غير شكّ . ومن قُدّر له حصول الخير في الدنيا . وهو لا يكون الا المال فقط . فربما أنه يزول بآفة أخرى . وأما الآخرة فلا بدّ فيها من حصول المغفرة . فان الله تعالى لا يخلف الميعاد . ولو فرضنا حفظ المال من الآفات فربما أن صاحبه لا يتمكن من الانتفاع به بسبب مرض أو نحوه . بخلاف الانتفاع الذي يحصل في الآخرة . فانه لا مانع منه ولو تمكن صاحب المال من الانتفاع به في الدنيا فان ذلك الانتفاع لا بدّ وأن ينقطعَ ويزولَ . بخلاف الانتفاع الذي وعد الله به في الآخرة . فانه باقٍ لا يزول . وكفى على ذلك دليلاً ما جرت عادة الله به في الدنيا من جعله اللذات فيها مكدرة بالآلام والمضارّ قطعاً فلا توجدُ في الدنيا لذةٌ الا ويعقبها ألمٌ من وجوه كثيرة . بخلاف لذات الآخرة . فانها لا نغص فيها ولا نقص . على ان الله سبحانه وتعالى قد وعد على الانفاق الخيرَ الدنيوي أيضاً كما سبق في تفسير قوله

تعالى وفضلا . فظهر أن المغفرة هي تكفير الذنوب والآثام . وأن الفضل لكثرته لا تدركه الأوهام . قال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) وفيما ذكرناه كفاية في الاشارة الى معرفة كرمه تعالى ونهاية جوده . وأما تفصيل ذلك فهو شيء تقصرُ عن ادراكه عقول الخلائق . واعلم أنه متى صار الانفاقُ طبيعةً للانسان . زالت عن نفسه هيئة الاشتغال بنعيم الدنيا . وتباعدت عن التهالك فى طلبها . فتشرقُ عليها شموس الأنوار القدسية . ومتى كان الانسان معروفاً بين الناس بكثرة الانفاق واخلاص النية . تيقن كلُّ عاقلٍ أنه لا بدَّ أن يفتح الله عليه أبواب الرزق ﴿ والله واسع ﴾ أي كامل فى العطاء قادر على انجاز ما وعد ﴿ عليم ﴾ بحال من أنفق من العباد واثقاً بوعده . وبحال من لم ينفق مطاوعاً للشيطان . ثم انه تعالى نبه على أن الأمر الذي يحصل بسببه تقديمُ وعدِ الرحمن على وعد الشيطان هو الحكمة والعقل . وأما وعدُ الشيطان فانما هو بتقوية الشهوة والنفس فقال . ﴿ يؤتي ﴾ أي يعطي الله ﴿ الحكمةَ ﴾ أي القرآنَ والعلمَ والفقه والاصابةَ في القول والعمل ومعرفةَ معانى الأشياء وفهم حقيقتها ﴿ من يشاء ﴾ من عباده أن يؤتيها اياه بموجب سَعة فضله تعالي واحاطةِ علمه . كما آتاكم أيها المؤمنون ما بينه في كتابه من الحكم البالغة التى يدور عليها فلكُ منافعكم . فاغتنموها وسارعوا الي العمل بها . فقد روي عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال (الحكمةُ تزيدُ الشريفَ شرفاً . وترفع العبدَ المملوك حتى تجلسه مجالسَ الملوك) . واعلم أن الحكمة تُفسر فى القرآن

بأربعة أوجه • الوجه الأول أن معناها مواعظ القرآن • قال تعالى (وما أُنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به • الوجه الثاني أن الحكمة بمعنى الفهم السليم • قال تعالى ولقد آتينا لقمانَ الحكمةَ • الوجه الثالث أن الحكمة معناها النبوة • قال تعالي وآتاه الله الملكَ والحكمةَ وعلمه مما يشاء • الوجه الرابع أن الحكمة بمعنى القرآن وما فيه من الأسرار • وهي المرادة في هذه الآية وجميع هذه الوجوه ترجع الي العلم عند التحقيق • فتأمل أيها العاقل فى شرف العلم • فان الله تعالي سماهُ الخيرَ الكثير فى قوله تعالي ﴿ ومن يؤتَ ﴾ أي ومن يعط ﴿ الحكمةَ ﴾ الشريفة من الله تعالي ﴿ فقد أُوتي ﴾ أي فقد أعطي ﴿ خيراً كثيراً ﴾ في الدارين • وانما وصف الله تعالي العلم بالكثرة • ووصف الدنيا جميعها بالقلة فى قوله تعالي قل متاعُ الدنيا قليلٌ • لأن الدنيا متناهية • وأما العلوم فلا نهاية لمراتبها ولا لعددها ولا لمدة بقائها ولا للسعادات الحاصلة منها • ثم ان كمال الانسان يكون في شيئين • أحدهما أن يعرف الحق لذاته • وهذا يرجع الى العلم والادراك المطلق وثانيهما أن يعرف العلم لأجل العمل به • وهذا يرجع الى فعل العدل والصواب • ولما كان الكمال منحصراً في هذين الأمرين سأل ابراهيم صلي الله عليه وسلم ربه فقال ربِّ هبْ لي حكماً • والمراد بالحكم هنا الحكمة النظرية التى هي معرفة الحق لذاته • ثم سأله ثانياً فقال (وألحقنى بالصالحين) • وهو معنى الحكمة العملية التى هي معرفة العلم للعمل به • ونوديَ موسى عليه الصلاة والسلام ياموسى إننى أنا الله

لا إله الا أنا • وهو الحكمة النظرية • ثم قال له فاعبدني • وهو الحكمة العملية • وقال عيسى عليه السلام (إني عبدُ اللهِ آتانيَ الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينَ ما كنتُ) • وكل هذه معنى الحكمة النظرية • ثم قال أيضاً وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً • وجميعها معنى الحكمة العملية وقال تعالى في حق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (فاعلمْ أنه لا إله الا الله) • وهو معنى الحكمة النظرية • ثم قال له أيضاً (واستغفرْ لذنبك وللمؤمنينَ والمؤمنات) • وهو معنى الحكمة العملية • وقال تعالى في حق جميع الأنبياء (ينزلُ الملائكةَ بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا اله الا أنا) • وهو معنى الحكمة النظريه ثم قال تعالى (فاتقونِ) وهو معنى الحكمة العملية • فعلم من هذه الآيات وأمثالها أن كمال حال الانسان في هاتين القوّتين • وهما معرفة الحق لذاته • ومعرفة العمل للعلم به • وفي هذه الآية دليلٌ على أن جميع العلوم النظرية والاخلاق المرضية • انما هي بإيتاء الله تعالى • والذين فسروا الإيتاء في هذه الآية بالتوفيق والاعانة كالمعتزلة مازادوا شيئاً الا أنهم وسّعوا الدائرةَ بغير فائدة • لأنه لابد أن ينتهي الأمر اليه تعالى ان سلكوا طريق الصواب وتأملوا ﴿ وما يذكّرُ ﴾ أي وما يتعظُ بذلك ﴿ الا أولو الألباب ﴾ أي أهلُ العقول السليمة الذين نور الله قلوبهم بنور الهداية فصفاها من مكدّرات الوهم والنظر الى العادات وهوى النفس • وملأها بالحكم والمعارف الالهية • فلم يقفوا عند المسببات

ولم ينسبوا هذه الأحوال الى أنفسهم • بل ينظرون فى أسبابها حتى يصلوا الى السبب الأول الذي هومسببُ الأسباب ومفيض الأسرار الالهية • وأما المعتزلةُ فانهم لما نسبوا المسببات الي المخلوقات . ووقفوا عندالظاهرلم يفرقوا بين المعقولات وبين الأسرار والحكم الإلهيات فضلوا عن الصراط السويّ • ولكن مواهب الحق لا تردُ الا علي قلوب الأنبياء والأولياء كما قال تعالي (نورٌ علي نورٍ يهدي الله لنوره من يشاء)

﴿ تابع لما قبله من الآية الشريفة ﴾

﴿ وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾

ثم انه تعالى نبه في هذه الآية الكريمة على أنه عالم بما في قلب العبد من نية الاخلاص أو الرياء • وأنه يعلم القدر المستحقّ من الثواب والعقاب على تلك الدواعي والنيات • فلا يهمل شيئاً منهافقال ﴿ وما أنفقتم ﴾ أيها المؤمنون في سبيل الله ﴿ من نفقة ﴾ واجبة أوغير واجبة قليلة أو كثيرة ﴿ أو نذرتم من نذرٍ ﴾ في طاعة الله أو معصيته ﴿ فان الله يعلمه ﴾ فيجازيكم عليه من غير شك انْ خيراً فخيراً وان شراً فشراً • فبين تعالى أنهعالم بما فيقلب المتصدق من نية الاخلاص

والعبودية . أومن نية الرياء والسمعة . وهذا البيان الكريم يفيد الوعد العظيمَ للمطيعين . والوعيدَ الشديدَ للمتمرّدين . لأن علمه تعالى بحال نية المتصدق يوجب قبول تلك الطاعات ان كان مخلصا فيها . كما قال تعالى (انما يتقبلُ اللهُ منَ المتقين) وقال تعالى أيضاً (فمن يعملْ مثقالَ ذرةٍ خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) واعلم أن النذر ما يلتزمه الانسان بايجابه على نفسه . وهو عند أهل الشرع قسمان . أحدهما يسمى نذر اللجاج والغضب . وثانيهما يسمى نذر التبرُّر . فأما نذرُ اللجاج فهو أن يمنع الشخص نفسه عن الفعل أو يحثها عليه بتعليق التزام قربةٍ بالفعل أو الترك . كقوله ان كلمتُ فلاناً أو فعلتُ كذا أو دخلتُ الدار أولم أخرج من البلد فلله علي صومُ شهر أوصلاة كذا من الركعات أو حج أو اعتاق رقبةٍ . ثم انه اذا كلمه أو دخل الدار أولم يخرج من البلد فالأصح أنه لايلزمه الوفاء بل عليه كفارة يمين . لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم (قال كفارة النذر كفارة يمين) * وأما نذر التبرر . فهونوعان أحدهما نذر المجازاة وهو أن يلتزم الشخص قربةً في مقابلة حدوث نعمةٍ أو دفع نقمةٍ . كقوله ان شفي اللهُ مرضي أو رزقني ولداً فلله عليَّ أن أعتق رقبةً أو أصوم كذا من الأيام أوالشهور أو أصلي كذا من الركعات . فاذا حصل له ما علّق عليه من حدوث النعمة أو دفع النقمة فيجب عليه الوفاء بما التزمه من العتق أو الصيام أو الصلاة . لقوله صلي الله عليه وسلم (من نذَر أن يطيع اللهَ فليطعه) . وثانيها نذرُ التنجيز وهو أن

يلتزم الشخص قربةً من غير تعليق على شيء • كقوله لله عليَّ أن أصلي أو أصوم أو أعتق • فاذا التزم ذلك فالأصح أنه يلزم الوفاء به ويكون نذراً صحيحاً لإطلاق الحديث المذكور • ثم ان ما يلتزمه الانسان بالنذر • اما أن يكون معصيةً • واما أن يكون واجباً وجوباً عينياً • واما أن يكون مباحاً • فاذا كان معصيةً كقوله لله عليَّ أن أشرب الخمر أو أزني أو أقرأ القرآن جُنُباً فلا يصح التزام ذلك بالنذر لأنه لا نذر في معصية الله تعالى واذا لم ينعقد نذر فعل المعصية فيجب عليه أن يمتنع منه ولا يلزمه كفارة يمين خلافاً لمن زعم ذلك • واذا كان ما التزمه الشخص بالنذر واجباً وجوباً عينياً كالصلوات الخمس وصوم رمضان فلا معنى لالتزامها بالنذر أصلا • وكذا لو نذر الشخص أن لا يشرب الخمر ولا يزني فلا ينعقد نذره • لأن الله تعالى أمره بالصلوات الخمس وبصوم رمضان ونهاه عن شرب الخمر والزنا وألزمه بذلك من أول الأمر • فلا داعي لالتزامه ثانياً • حتى لو خالف ما نذره من هذه الأمور فلا يلزمه شيء على الأصح • واذا كان ما التزمه الشخص بالنذر مباحاً كالأكل والنوم أو القعود والقيام • فلا ينعقد نذره أيضاً • لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً قائماً في الشمس فسأل عنه فقيل له انه نذر أن لا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم وأن يصوم • فقال صلى الله عليه وسلم مُرُوهُ فليتكلم وليستظلَّ وليتم صومه • وأما الأمور التي تلزم بالنذر فهي العبادات التي وضعت للتقرب بها الى الله تعالى وليست واجبةً من أول الأمر وجوباً عينياً • وذلك

كصوم التطوع وصلاة النفل والصدقة الغير الواجبة وحج التطوع والاعتكاف والاعتاق • وكذا فروض الكفايات التي يحتاج فيها الى مشقة و بذل مال كالجهاد وتجهيز الموتى • وأما الصلاة على الجنازة والأمر بالمعروف ونحو ذلك من الأمور التي ليس فيها بذل مال ولا كثير مشقة ففيها قولان • أصحهما أنها تلزم بالنذر • وكما تكون نفس العبادة لازمة بالنذر تكون صفتها المشروعة فيها لازمة أيضاً اذا نذر تلك الصفة كمن نذر أن يصلي الفرائض بشرط طول القراءة فيها أو السجود أو يحج بشرط المشي • لأن هذه الصفات عبادات مندوب اليها • وأما الأعمال والأخلاق المستحسنة كعيادة المريض وزيارة القادم من السفر وافشاء السلام على المسلمين وتجديد الوضوء فالأصح أنها لازمة بالنذر أيضاً • لأنها من الأمور التي يتقرب بها الى الله سبحانه وتعالى وقد رغب الشارع فيها كثيراً • ولو قال الشخص لله علي نذر من غير تسمية شيء لزمه كفارة يمين • لقوله صلى الله عليه وسلم (من نذر نذراً وسمى فعليه ماسمى) • ومن نذر نذراً ولم يسم فعليه كفارة يمين • ثم قال تعالى ﴿ وماللظالمين ﴾ الذين يمنعون الصدقات أو ينفقون أموالهم بالمن والأذى أو للرياء أو في المعاصي أولم يوفوا بنذورهم أو ينذرون فعل المعاصي ﴿ من أنصار ﴾ أي من أعوان ينصرونهم من بأس الله وعقابه • فليس لهم شفيع ولا مدافع في يوم السؤال والحساب وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ﴿ الصدقة على وجهها واصطناع المعروف وبر الوالدين وصلة الرحم تحول الشقاء سعادة

وتزيد في العمر وتقي مصارع السوء) وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً (الصدقةُ تمنع رَمية السوء) وفي خبر آخر (الصدقةُ تمنع سبعين باباً من البلاء ، انتهى

﴿ تابع لما قبله أيضاً ﴾

﴿ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

روي أن الصحابة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصدقة هل الأفضل اظهارها أم الأفضل اخفاؤها . فأنزل الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم هذه الآية الكريمة ، و بين فيها لعباده المؤمنين أن الانفاق ينقسم الى ظاهر وخفي ، ثم ذكر تعالى حكم كل واحد من القسمين فقال ﴿ان تبدوا﴾ أي ان تظهروا أيها المؤمنون ﴿ الصدقات ﴾ التي تنفقونها في مرضاة الله تعالى ﴿ فنعما هيَ ﴾ أي فنعم شيئاً اظهار الصدقات ان لم يكن رياءً ولا سُمعةً ، وهذا ظاهر في الصدقات المفروضة كما سنبينه ، وأما صدقة التطوع فالأفضل اخفاؤها ، وهي المرادة من قوله تعالى ﴿وان تخفوها﴾ أي وان تعطوا الصدقات خفية ﴿ وتؤتوها الفقراء ﴾ المحتاجين ﴿ فهو خيرٌ لكم ﴾ أي فالاخفاء خير لكم من

ابدائها . فتبين مما ذكرناه أن الاخفاء في صدقة التطوع أفضل . كما أن الاظهار في الصدقة المفروضة أفضل . أما الحكمة في كون الاخفاء في صدقة التطوع أفضل . فهي من وجوه الوجه الأول أن الاخفاء فيه مشقة على النفس فيكون أكثر ثواباً من الاظهار . الوجه الثاني أن الاخفاء فيه بعد عن الرياء والسمعة . فيكون المتصدق خفية ليس داخلا في قوله صلى الله عليه وسلم لا يقبل الله من مسمع ولا مراء ولا منان . انتهى

وذلك لأن من أظهر صدقة متحدثاً بها لا شك أنه قد يطلب الرياء والشهرة بين الناس . وقد اجتهد قوم في اخفاء الصدقة حذراً من أن يعرفهم الآخذ . حتى ان بعضهم كان لا يعطي صدقته الا للأعمى . وبعضهم كان يلقيها في طريق الفقير أو في موضع جلوسه بحيث يراها ولا يرى المعطي وبعضهم كان يربطها في ثوب الفقير وهو نائم . وانما اجتهدوا في ذلك ليدخلوا في قوله صلى الله عليه وسلم ان العبد ليعمل عملاً في السر فيكتبه الله سراً . فان أظهره نقل من السر وكتب في العلانية فان تحدث به نقل من السر والعلانية وكتب في الرياء . وقال صلى الله عليه وسلم صدقة السر تطفئ غضب الرب *

الوجه الثالث أن في الاظهار هتك ستر الفقير واخراجه من فضيلة التعفف . وربما أنكر الناس على الفقير أخذ تلك الصدقة ظناً منهم أنه غني عنها فيقع الفقير في المذمة . والناس في الغيبة . الوجه الرابع أن في الاظهار اذلالاً للفقير واهانة له . واذلال المؤمن غير جائز .

وقد يكون اظهار صدقة التطوع أفضل في حالة واحدة • وهي ما لو علم المعطي أنه اذا أظهرها اقتدى غيره به في التصدق • لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (السرُّ أفضلُ من العلانيةِ والعلانيةُ أفضل لمن أراد الاقتداء

وأما الحكمةُ في كون اظهار الصدقة الواجبة أفضل من الاخفاء فهي من وجهين الوجه الأول أن الله تعالى أمر الأئمة بتوجيه السعاة لطلب الزكاة من الناس • ولا يخفى أن دفعها الى السعاة يكون فيه اظهارٌ لها واقتداءٌ للغير في المسارعة الى دفعها • الوجه الثاني أن اظهارها ينفي التهمةَ عن الشخص حتى لا يظن أحد فيه أنه مانع للزكاة • ولهذا روي أنه صلى الله عليه وسلم كان أكثرُ صلاته في البيت الا المكتوبة فانه كان يصليها في المسجد • وانما كان يفعل ذلك تشريعاً لأمته في اخفاء ما يُتطوَّع به من الأعمال • واظهار ما يكون مفروضاً منها • وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن صدقة السرِّ في التطوُّع تفضلُ علانيتها سبعين ضعفاً • وصدقةَ الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفاً وهذا الحكم ظاهر فيما اذا كان المزكي لا يخفى يسارهُ على الناس • فاذا كان غير معروف باليسار كان الاخفاء له أفضل • ولا سيما اذا كان خائفاً من طمع الظلمة في ماله • وانما قيل في حالة الاخفاء وتؤتوها الفقراء مع أنه معلوم أن الصدقة لا تعطى الا اليهم • ليكون ذلك باعثاً للمتصدق على تحرّي موضع الصدقات فيصير عالماً بالفقراء مميزاً لهم عن غيرهم • فاذا صدر منه هذا التحرّي • ثم

أخفى الصدقةَ حصلت له فضيلةُ الاظهار • وأما في حالة الاظهار فلا لزوم الى التحرّي وذلك لأن الفقير قلما يخفى حاله • فحينئذ لاداعي للتصريح به • واعلم أن الانسان اذا أتى بعمل وهو يخفيه عن الخلق وكان في نفسه شهوة أن يرى الخلق منه ذلك لكنه يحاولُ دفع تلك الشهوة • ففي هذه الحالة يرددُ عليه الشيطانُ ذكر رُؤْية الخلق له والقلبُ ينكرُ هذا الأمر • فهذا الانسان مشتغل بمحاربة الشيطان فلا شك أن اخفاءه يفضل علانيتهُ بسبعين ضعفاً • ثم ان لله عباداً حبسوا أنفسهم عن الشهوات • وريّضوها عن شوائب اللذات • حتى منّ الله عليهم بأنوار هدايته • وذهبت عنهم وساوسُ النفس • وذلك لأن الشهوة النفسانيةَ قد ماتت منهم ووقعت قلوبهم في بحار عظمة الله فلم يحتاجوا الى المجاهدة • فاذا أعلنوا بالعمل مريدين أن يقتديَ بهم غيرهم فى البر والطاعة فهم كاملون فى أنفسهم • ويسعون فى تكميل غيرهم • كما قال تعالى (وممن خلقنا أُمةٌ يهدونَ بالحقّ وبهِ يعدلون) وقال تعالى أيضاً (وجعلنا للمتقين إماماً) فهؤلاء لما سلكوا هذا الطريقَ السعيدَ • صاروا أئمةَ الهدي وأعلام الدين • وسادات الخلق الذين بهم يُقتدي في الذهاب الى الله تعالى • وفي كل عمل يكون سبباً لتوفية الأجور في المفروض والمنذور • وفي تخلية النفوس عن شوب الحظوظ الدنيوية • واذا أنفقوا نفقةً في سبيل الله • ولم يقصدوا الاقتداء بهم ستروها عن الناس بقدر امكانهم • حتى صدق عليهم قوله صلى الله عليه وسلم (سبعةٌ يظلهمُ اللهُ في ظلهِ يوم القيامة) ثم

قال ورجلٌ تصدّق بيمينه فأخفاها عن شماله) أي عن حظوظ نفسه لتكون خالصةً لوجه الله تعالى فيكون صاحبها في ظل الله ٠ وقال صلى الله عليه وسلم (ان المرء يكون في ظل صدقته يوم القيامة) أي ان كانت صدقتهُ لله كان في ظل الله ٠ وان كانت صدقته للجنة كان في ظل الجنة وان كانت صدقته لهوى النفس كانت صدقته للهاوية ٠ وهي طبقة من طبقات جهنم ٠ فمن أعطى صدقته لوجه الله لا لحظّ النفس كان جزاؤه لقاء الله ﴿ ويكفر عنكم ﴾ أي ويسترُ عنكم أيها المؤمنون شيئاً ﴿ من ﴾ بعض ﴿ سيئاتكم ﴾ أي ذنوبكم ﴿ والله بما تعملون من الأسرار والاعلان ﴿خبير﴾ وفي هذا اشارة الى الترغيب في الاخفاء الذي هو أبعد من الرياء *

قَالَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ٠ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَاءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾

روي أن ناساً من المسلمين كانت لهم قرابةٌ ومصاهرةٌ ورضاعة في اليهود وكانوا ينفعونهم قبل الاسلام ٠ فلما وفقهم الله وهداهم اليه كرهوا أن ينفعوهم وراودوهم في أن يسلموا فلم يطاوعوهم ٠ فقالوا لهم

لا تنفعكم بشيء حتى نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمركم ·
ثم سألوه عن ذلك فقال صلى الله عليه وسلم (لا تصدّقوا الا على أهل
دينكم · وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم كان شديدَ الحرْص على
إيمانهم · فأنزل الله هذه الآية الكريمةَ · وبين فيها العباده أن الهداية
لا تكون الا منه تعالى · فليس لأحد من خلقه قدرةٌ عليها · فكأنه
يقولُ يا محمدُ لكَ المقامُ المحمودُ · ولك الوسيلةُ · وعلى الأنبياء
الفضيلةُ · وأنت سيد الأولين والآخرين · وأنت أكرمُ الخلائق
على رب العالمين · وقد بعثتك الى كافة الناس بشيراً ونذيراً وداعياً
اليّ ومبيناً للدلائل الموصلة الى هدايتهم · وأما حصول الهداية لهم
فليس منك ولا بك · بل الهداية من خصائص شأننا · ولوائح برهاننا
فأنت تدعوهم الى الهدى ونحن نهديهم · فـ ﴿ ليس عليك هداهم ﴾
أي ليس عليك يامحمد هدى من خالفوك حتى تمنعهمُ الصدقةَ لأجل
أن يدخلوا في الاسلام · فتصدقْ عليهم لوجه الله ولاتجعل التصدق
عليهم موقوفاً على اسلامهم · فسواء اهتدوْا أولم يهتـدُوا فلا تقطعْ
معونتكَ وبرّكَ وصدقتك عنهم حتى يلتجئوا الى الاهتداء بواسطة
توقيف الصدقة على ايمانهم · فان الايمانَ القهريّ لاينتفعون به · بل
الايمانُ المطلوب منهم هو الايمانُ طوعاً واختياراً · وهذا ليس واجباً
عليك · وانما الذي يجب عليك هو الارشاد الى الخير والحث عليه
والنهيُ عن الشرّ والرّدعُ عنه بما أوحى اليك من الآيات والذكرِ
الحكيم ﴿ ولكنّ الله ﴾ تعالى بحسب ما سبق عليـه علمهُ الأزليّ

﴿ يهدي ﴾ هدايةً خالصةً موصلةً الى المطلوب حتماً ﴿ من يشاء ﴾ أي من يريد هدايتهُ بالاتباع للخير والانتهاء عن الشرّ ممن يتعظ بما ذُكر به ويتبعُ الحقَّ ويختارُ الخير . وفي هذه الآية دليلٌ قاطعٌ وبرهانٌ ساطعٌ على أن الاهتداء الاختياريّ لا يقع الا بتقدير الله تعالى وتكوينهِ • ثم ان ظاهر قوله تعالى ليس عليك هداهم أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وحده وليس كذلك . بل المراد به هو وأمته لأن ما قبله من الخطاب عام • وهو قوله تعالى ﴿ ان تبدوا الصدقات ﴾ • وما بعده عام أيضاً • وهو قوله تعالى ﴿ وما تنفقوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ من خير ﴾ أي من مال ﴿ فلأنفسكم ﴾ ثوابهُ لا ينتفعُ به غيركم • فلا يضركم كفرهم ﴿ وما تنفقون الا ابتغاء وجهِ اللهِ ﴾ أي ولستم تقصدون في صدقاتكم على أقاربكم المشركين الا وجه الله تعالى من صلةِ رحمٍ أو دفعِ حاجةِ مضطرّ • وقد علم الله هذا من قلوبكم ﴿ وما تنفقوا من خير يوفَّ اليكم ﴾ ثوابهُ أضعافاً مضاعفةً ﴿ وأنتم لا تظلمون ﴾ أي لا ينقصُ منكم شيءٌ مما وعدتكم به من ثوابكم المضاعف • واعلم أن هذه الآية الكريمة مخصوصة بصدقة التطوع • فدلت على أنه يجوز اعطاؤها للكفار الذين ليسوا أهل حرب لنا • وأما الصدقة المفروضة فقد اتفقت الأئمة على أنه لا يجوز صرفها الى غير المسلم انتهى

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا. وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ • الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

ثم لما بين الله تعالى أنه يجوز صرف صدقة التطوع الى أي فقير سواء كان مسلماً أو كافراً بين في هذه الآية الكريمة أن أشد الناس استحقاقاً هم الفقراء الموصوفون بالاوصاف الخمسة المذكورة فيها فقال ﴿ للفقراء ﴾ أي اجعلوا ما تنفقونه للفقراء ﴿ الذين أُحصروا ﴾ أي حصروا أنفسهم ﴿ في سبيل الله ﴾ بالغزو والجهاد ﴿ لا يستطيعون ﴾ لاشتغالهم به ﴿ ضرباً ﴾ أى سيراً ﴿ في الأرض ﴾ للكسب والتجارة ﴿ يحسبهم ﴾ أي يظنهم ﴿ الجاهلُ ﴾ بأحوالهم ومن لم يَعلم أمرهم ﴿ أغنياءَ ﴾ لا يحتاجون لِشيء ﴿ من التعفف ﴾ أي من أجل تركهم

المسئلةَ (١) واظهارهم التجمل بالقناعة تكلفاً منهم ﴿ تعرفهمْ ﴾ أنت يامحمدُ وكل راءٍ ﴿ بسيماهم ﴾ أي بعلاماتهم من الضعف واصفرار اللون ونور الجبهةِ وآثار الفكر في المصنوعات الدالة على وجود الصانع الحكيم وكمال قدرته . وذلك لأن التفكر فيها واجبٌ على كل مسلم فقد روي أنه صلى الله عليه وسلم كان كثيرَ الفكر وهؤلاء الذين أثنى الله عليهم قد اقتفوْا أثره في هذه المزية حتى كانوا لا يغيبونَ عن مراقبة الله طرفة عين و ﴿ لاَ يسألون الناس إلحافاً ﴾ أي الحاحاً والمعنى أنهم لاَ يسألونهم شيئاً . وان سألوهم لحاجةٍ أحوجتهمْ اليه لم يُلحوا . وفي هذه الآية الكريمةِ نهي عن الالحاح في المسئلة . وتنبيهٌ على سوء طريقة المُلحِّ .

قال النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ إِنَّ اللّٰهَ يُحِبُّ الْحَيِيَّ الحَلِيمَ الْمُتَعَفِّفَ وَيُبْغِضُ البَذِيَّ السَّآلَ المُلْحِفَ ﴾

فالمطلوب من العاقل المحتاج الذي يخلصُ لربه في العبودية أن يعتقد أنه هو الرَّزَّاق ذُو القوةِ المتينُ . وأن لا يظهر للعباد أمارات الاحتياج طمعاً في رقة قلوبهم له . بل يتجمل لهم بالقناعة بحيث لا يطلع على سرّه غير خالقه تعالى . لما روي عن النبي صلى الله عليه

(١) أي سؤال الناس بأن يطلبوا منهم صدقة

وسلم أنهُ قال (لا يفتحُ أحدٌ باب مسئلةٍ الا فتح اللهُ عليه باب فقر ٠ ومن يستغنِ يغنهِ الله ومن استعف يعفه الله ٠ لأن يأخذ أحدكم حبلا يحتطبُ به فيبيعه بمدٍّ من تمر خير له من أن يسأل الناس) فأرشدنا هذا الحديثُ الشريفُ الى أن السؤال مذمومٌ في كل حال ٠ وأن القناعة بما يكسبهُ الانسان قليلاً أو كثيراً خير له من ذُل السؤال ٠ فقد قيل في الحكم السؤال ذُلٌّ ولو من أينَ الطريقُ

(شعرٌ)

لاَ تَسأَلَنَّ بُنَيَّ آدَمَ حَاجَةً
وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لاَ تُحْجَبُ
أَللهُ يَغْضَبُ إنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ
وَبُنَيَّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

واعلم أن الفقير عند أهل المعرفة هو الذي أحصرتهُ المحبة في الله عن طلب المعاش ٠ وضيق عليه سلطانُ الحقيقة كل طريق فلا له في الشرق مذهبٌ ولا له في المغرب مضرب ولا له من الله الى غيره مَهرب

(شعرٌ)

كأَنَّ فِجَاجَ الأَرْضِ ضَاقَتْ بِرَحْبِهَا
عَلَيْهِ فَمَا يَزْدَادُ طُولاً وَلاَ عَرْضاً

ومن انتهت حالته الى ذلك صار من الأولياء المستورين تحت قباب الغيرة الالهية المحجوبين عن معرفة الغيرية حتى لا يطلع عليهم الا من وفقهم الله تعالى الى التذلل لجلال كبريائه • وقد روي في الحديث القدسي (أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري) • وذلك لأنهم لا يعرفون برؤية البصر الانساني • بل يعرفون بالنور الرباني فمن علاماتهم في الظاهر أنهم لا يسألون الناس الحافاً لا بقليل ولا بكثير لان آثار أنوار غنى قلوبهم انعكست على ظواهرهم فتنورت بالتعفف نفوسهم واضمحلت ظلمة فقرهم وفاقتهم انتهى

ثم ان هذه الآية الكريمة نزلت في فقراء أهل المدينة • وهم المهاجرون الذين سكنوا في صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا نحو أربعمائة رجل • وهم الذين اشتهروا بأصحاب الصفة فلم يكن لهم سكن ولا عشائر بالمدينة • بل كانوا ملازمين للمسجد يتعلمون القرآن ويصومون النهار ويقومون الليل ويخرجون في كل غزوة • فمن كان عنده فضل طعام أتاهم به من غير سؤال منهم اذا أمسى • وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف ذات يوم على أصحاب الصفة فرئي فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم • فقال أبشروا ياأصحاب الصفة• فمن بقي من أمتي على النعت الذي أنتم عليه راضياً بما فيه فانه من رفقائي انتهى

ثم قال تعالى ﴿ وما تنفقوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ من خير ﴾ أي من مال أو جاهٍ أو خدمةٍ بالنفس تبتغون به وجه الله ﴿ فان الله به عليم ﴾

فيجازيكم بذلك أحسن جزاء • وهذا ترغيب منه تعالى فى التصدق وفيه اشارة الى أن ثواب هذا الانفاق الذي هو أعظم المصارف ليس له حدٌّ • فلذلك جعل تعالى أمره موكولاً الى علمه عزّ وجل انتهى

ثم انه تعالى أرشدنا في خاتمة آيات الانفاق الى أن أكمل النفقات وأعظمها عند الله تعالى هو انفاقُ الذين يعمون الاوقات والأحوال بالصدقة • وكلما نزلت بهم حاجة محتاج عجلوا قضاءها ولم يؤخروها الى أي وقت من الأوقات ولا الى أي حال من الأحوال • وذلك لشدة حرصهم على حسن الطاعة وتمام اهتمامهم بها • وقد وعدهم الله على هذا العمل وعداً حسناً فقال ﴿ الذين ينفقون أموالهم ﴾ الحلالَ الطيبةَ ﴿ بالليل ﴾ أي فى الليل ﴿ والنهار سراً وعلانيةً ﴾ فيعمون جميع أوقاتهم وأحوالهم بالصدقة ﴿ فلهم أجرهم عند ربهم ﴾ فى مقاماته العلية من تجلياته السنية ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ في الدنيا ﴿ ولا هم يحزنون ﴾ فيها أيضاً على ما يفوتهم منها لأنهم تركوها لاشتغالهم بمراقبة جلال الله وهو لهم خَلَفٌ عن كل تلف • ولا خوف عليهم أيضاً في الآخرة قال تعالى (لايحزُنُهمُ الفزَعُ الأكبرُ وتتلقاهمُ الملائكةُ هذا يومكمُ الذي كنتم توعدون) • وهذه الآية الكريمة نزلت في عدة جماعة من أكابر الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين • قال ابن عباس رضي الله عنهما • ما كانَ عليٌّ بنُ أبي طالب كرم الله وجهه يملك الا أربعة دراهم فتصدق بدرهم نهاراً • وبدرهم ليلاً • وبدرهم سراً • وبدرهم علانيةً • فقال له النبي صلى الله عليه وسلم • ما حملك على هذا

• فقال ان أستوجب ما وعد لى ربي فقال ذلك لك فنزلت هذه الآية انتهى

واعلم أننا ذكرنا هنا تفسير جميع الآيات التى تتعلق بالإنفاق لما رأينا أن في ذكر تفسير جميعها تتمياً للفائدة والله الموفق الى طريق الصواب *

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَانُ مِنَ ٱلْمَسِّ • ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَا • وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَا • فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَٱنْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى ٱللَّهِ • وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

اعلم أن الربا عند أهل الشرع هو الزيادة فى القدر أو الأجل حسبما بُين في كتب الفقه • وهو ينقسم الى قسمين • أحدهما يسمى ربا النسيئة • والثاني يسمى ربا الفضل • أما ربا النسيئة • فهو الأمر الذي كان مشهوراً متعارفاً في الجاهلية • وذلك أنهم كانوا يدفعون المالَ مدةً معلومةً على أن يأخذوا في نظير هذا التأجيل قدراً معيناً في كل

شهر • ويكون رأس المال باقياً بعينه • ثم اذا حل أجل الدين طالبوا المديون برأس المال فان تعذر عليه دفعه زادوا في الحق والأجل • وأما ربا الفضل فهو أن يُباع أردب من الحنطة بأردب وكيلة مثلا • وقد اتفق أكثر الأئمة المجتهدين على تحريم الربا في هذين القسمين أما تحريمُ ربا النسيئةِ فقد ثبتَ النهي عنه في القرآن الكريم بهذه الآية الشريفة • وأما تحريم ربا الفضل فقد ثبتَ النهي عنه في الخبر

قال النبي صلى الله عليه وسلم

(ألذهبُ بالذهب • والفضةُ بالفضةِ • والبرُّ بالبرِّ • والشعير بالشعير والتمر بالتمرِ • والملح بالملح • مثلاً بمثلٍ • يداً بيد • فمن زاد أو استزاد فقد أربى • الآخذُ والمعطي فيه سواء *

ثم ان هذا الخبرَ دلَّ على حرمة ربا الفضل والزيادة في هذه الأشياء الستةِ فقط وهي النقدان والمطعومات الأربعة ولا شك أن الربا انما ثبت فيها لعلةٍ كالطعم مع الكيل (١) أو الوزن في المطعومات

(١) كالطعم مع الكيل أي الشيء الذى يكون مطعوماً للناس ويقبل الادخار وتكون المعاملة فيه بين الناس بالكيل وكذا الشيء الذى يكون مطعوماً للناس ويقبل الادّخار أيضاً وتكون المعاملة فيه بين الناس بالوزن ومعنى صلاحية الثمنية في الذهب والفضة كونهما صالحين ثمناً في شراء كل شيء وإنما قيد بالغالب لادخال نحو تبر الذهب والحلى

الأربعة المذكورة أو صلاحية الثمنية في الغالب • وذلك في النقدين أي الذهب والفضة • فكل شيء وجدت فيه تلك العلة يلحق بها في حكم الربا *

والحكمة في تحريم الربا هي أنه يقتضي أخذ مال الغير وهو القدر الزائد بدون عوض وهذا حرام كما يدل عليه الحديث الآتي

قال النبي صلى الله عليه وسلم

(حرمة مال المسلم [١] كحرمة دمه) وأيضاً لو تمكن الشخص من تحصيل درهم زائد بواسطة عقد الربا لأعرض عن وجوه الكسب كالحرف والصنائع لما فيهما من المشقة العظيمة ولا شك أن هذا يفضي الى انقطاع منافع الخلق لأن مصالح العالم لا تنتظم الا بالتجارات والصنائع والحرف فاذا حصل الاعراض عن هذه الاشياء استغناءً بالربا فلابدَّ أن يختل نظام العالم • وأيضاً الربا يؤدي الى انقطاع المعروف والاحسان بين الناس بسبب منع القرض والسلف فاذا حرم الربا

المصاغ من الذهب والفضة ولاخراج المضروب من غيرهما كالنحاس فلا يثبت له حكم الربا

(١) هذا الحديث وان كان خاصاً بالنهي عن أكل مال المسلم ولكن أجمعت الائمة على حرمة أكل مال غير المسلم لما ثبت النهي عنه بحديث آخر يعم المسلم وغير المسلم من اليهود والنصارى الذين دخلوا بلادنا بالأمان والعهد بخلاف الحربيين مدة حربهم مع المسلمين

طابت النفوس بقرض الدراهم ورد مثلها فقط • وأما لو كان الربا حلالاً لكانت حاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين فيؤدى ذلك الى انقطاع المعروف والاحسان بين الناس بل والى ذهاب أملاكهم ووقوعهم فى ذل الفقر والمسكنة كما عليه الغالب من أهل زماننا هذا انتهى *

ثم اعلم أنه لما كانت الصدقة تؤدي الى تنقيص المال في الظاهر فقط وكان الربا يؤدي الى الزيادة بحسب الظاهر على المال مع نهي الله عنه فكان الربا والصدقة متضادين أي من حيث ما أديا اليه فحصلت بينهما مناسبة من جهة التضاد أي بعد تنزيل التضاد منزلة التناسب • فلما حصلت تلك المناسبة بين هذين الحكمين بين الله تعالى عقب بيان حكم الصدقة حكم الربا فقال ﴿ الذين يأكلون ﴾ أي يأخذون ﴿ الربا ﴾ ويتعاملون به ﴿ لا يقومون ﴾ من قبورهم اذا بعثوا ﴿ الا كما يقوم ﴾ أي الا قياماً كقيام المصروع ﴿ الذي يتخبطه ﴾ أي يضربه ﴿ الشيطان ﴾ ضرباً بغير استواء ﴿ من المس ﴾ أى من الجنون واتفق أكثر المسلمين على ان الشيطان لا يبعد أن يكون قوياً على القتل والصرع والايذاء • ولكن لا يفعل ذلك الا بارادة الله تعالى وتقديره • فالمراد من الاية الكريمة أن آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً ويكون وصف الجنون علامة يعرف بها آكلوا الربا عند أهل الموقف • فتقدير الآية حينئذ لا يقومون يوم البعث من الجنون الذي بهم الا كما يقوم المصروع • وقال بعض علماء التفسير ان هذا المعنى

مأخوذٌ من قوله تعالى في سورة الأعراف (ان الذين اتقوا اذا مسهم طائفٌ من الشيطان تذكروا فاذاهم مبصرون) • انتهى

ثم قال تعالى ﴿ذلك﴾ أي أكلهم الربا وتجارتهم عليه ومعاملتهم به ﴿ ب ﴾ أي بسبب ﴿ انهم قالوا انما البيع مثل الربا ﴾ في الحل • وانما لم يقل الله سبحانه وتعالى انما الربا مثل البيع بل قال جل شأنه انما البيع مثلُ الربا مع أن حل البيع متفقٌ عليه • والقوم أرادوا أن يقيسوا عليه الربا في الحل فكان اللائق بالقياس أن يُشبه الأمرُ الذي اختلفوا فيه وهو الربا بالأمر الذي اتفقوا عليه وهو البيع • فيكون نظم الآية هكذا انما الربا مثل البيع • لأن القوم لم يكن مقصودهم أن يتمسكوا بنظم القياس بل كان غرضهم أن الربا والبيعَ متماثلان من جميع الوجوه لأجل دفع الحاجة بكلٍ منهما • ولما قالوا لا فرق في الحل بين ما اذا اشترى الشخص ثوباً بعشرة مثلاً ثم باعه بأحدَ عشرَ وبين ما اذا أعطي غيره عشرة دراهمَ ويأخذ منه بدلها أحد عشر فوراً أو الى أجل أجاب الله تعالى عن هذه الشبهة رداً عليهم بقوله (وأحلَّ الله البيع وحرَّمَ الربا) فأنكر الله عليهم تسوية الربا بالبيع ومعارضتهم النصَّ بالقياس فان ذلك من عمل ابليس لما أمره الله بالسجود لآدم فامتنعَ فقال أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين • ومن المعلوم أن أول من عارض النص بالقياس هو ابليسُ فيكون الذين قاسوا الربا على البيع في الحل من أصحابه مطرودين مثله وذلك لأنهم جعلوا البيعَ الذي زالت ظلمته بنور الأمر الالهي به مماثلاً للربا الذي تزداد

ظلمته بارتكابه • فالحاصل أن مرتكبَ الربا واقع في ظلمات ثلاث أولها ظلمة الحرص الذي ينشأ عنها كل ذم • وثانيها ظلمة حب الدنيا التى من اشتغل بلذاتها صار محجوباً عن ربه • وثالثها ظلمة المعصية التي توجب مقتَ الله تعالى لمرتكبها ﴿ فمن جاءه موعظة ﴾ أي فمن بلغــه وعظٌ وزجرٌ ﴿ من ربه ﴾ كالنهي عن الربا ﴿ فانتهى ﴾ أي فاتعظ حالاً وامتنع من استحلال الربا وتبع النهي الالهي ﴿ فله ﴾ ما أكل من الربا وليس عليه ردٌ ﴿ ماسلف ﴾ أي ما تقدم أخذه قبل التحريم ﴿ وأمره الى الله ﴾ يحكم فيه كما يشاء فان شاء عذّبه وان شاء غفر له • لأنه تعالى يقول فى سورة أخرى (ان الله لا يغفرُ أنْ يشركَ به ويغفرُ ما دونَ ذلك لمن يشاء) ﴿ ومن عاد ﴾ أي ومن رجع الى استحلال الربا وقال انه مثلُ البيع ﴿ فأولئك ﴾ العائدون ﴿ أصحاب النار ﴾ أي ملازموها ﴿ هم فيها خالدون ﴾ أي ماكثون فيها أبداً لأنهم لما كفروا باستحلال ما أجمع الكتاب والسنة على تحريمه أوعدهم الله تعالى بالخلود فى النار * انتهى

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾

ثم انه تعالى لما رغب في الصدقات وبالغ في الزجر عن الربا ذكر في هذه الآية ما يكون داعياً الى الصدقات وترك الربا وهو أن الصدقة تزيد في المال وان كانت نقصاً في الظاهر والربا ينقصه وان كان زيادةً في الظاهر فقال ﴿ يمحقُ اللهُ الربا ﴾ أي يذهبُ بركته ويهلك المال الذي يدخل فيه ﴿ ويربي الصدقاتِ ﴾ أي ويضاعف ثواب الصدقات ويبارك فيها ويزيد المالَ الذي أخرجت منه • وذلك لأن زيادة المال ونقصانه لا يكونان الا باعتبار العاقبة والنفع في الدارين لا باعتبار الظاهر الذي يشاهد في الحسّ فيكون محقُ الربا ومضاعفة الصدقات إما في الدنيا وإما في الآخرة وذلك لأن الغالب في المُرابي وان كثرَ ماله في الحسّ انه لا بد أن تصير عاقبته الى الفقر وتزول البركة عن ماله • فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (الربا وان كثرَ فان عاقبته تصيرُ الى قلٍّ) • والسبب في ذلك أنه لما لم يرحم الناس في معاملته إياهم نشأ عن ذلك دعاؤهم عليه وبُغضهم له وصار مشهوراً بينهم بسقوط العدالة وبالفسق والعدوان وربما تطمع الظلمة في ماله ظناً منهم أنه ليس ملكاً له في الحقيقة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير محقِ الربا ان الله تعالى لا يقبل منه صدقة ولا جهاداً ولا حجاً ولا صلةً • وأيضاً فان مال الربا اما أن يذهب في حياة صاحبه فتبقى أعقابه عالةً وعليه الاثم والعقاب في الآخرة فيكون ممن خسرَ الدنيا والآخرةَ • واما أن يبقى بعد وفاته فينتفع به غيرُه وعليه الحساب • فتبين أن المال الذي يحصل من الربا لا بركة فيه لأنه

نشأ عن مخالفة الحق سبحانه وتعالى فتكون عاقبته وخيمة ويؤدي صاحبه الى ارتكاب سائر المعاصي . لأن كل طعام يتولد من أكله دواعٍ وأفعالٌ من جنسه . فان كان حراماً يدعو صاحبه الى الأفعال المحرمة . وان كان مكروهاً فيدعوه الى أفعال مكروهة . وان كان مباحاً فيدعوه الى أفعال مباحة . وان كان من الطعام الذي يُندب الأكل منه فيدعوه الى الأفعال المندوبة وكان في افعاله متبرعاً متفضلا . وان كان أكله منه بقدر الواجب من الحقوق فتكون أفعاله واجبة ضرورية . وان كان طعامه مكتسباً من الحظوظ الشيطانية المنهيّ عنها كالربا فتكون أفعاله شيطانية مذمومة . فحينئذ يكون عليه اثم الربا واثم أفعاله المحرمة المتولدة من أكله . فقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال (الذنب بعد الذنب عقوبة للذنب الأول) . فتكثر عقوباته دائماً أبداً فيقضي حياته في الأوزار وعمل السيئات . فاذا كان يوم العرض على ربه لم يجد في صحيفته حسنة يحتجّ بها في دفع العذاب عنه هذا وقد ثبت في الحديث أن الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بخمسمائة عام . فاذا كان هذا حال الغنيّ من الحلال فكيف يكون حال الغني من الحرام المقطوع بحرمته . ويكفي في نقصان الربا وبُعد صاحبه من النار أنه مال حصله صاحبه من مخالفة الله تعالى وارتكاب نهيه ولا شك أن هذا نقصانٌ عظيم وأي نقصان أفحش من الشيء الذي يكون سبباً لحجب

صاحبه عن الله المؤدي الى عذابه ونقصان حظه عنده تعالى هذا حال آكل الرباء وأما المتصدق فلما زكي ماله وطهره بالانفاق فلابد أن الله تعالى من فضله يبارك فيه ويحفظه له ولا يكون آكله الا مطيعاً لله تعالى في كل أفعاله ويصير هذا المال باقياً منتفعاً به في أعقابه وأولاده وتلك هي الزيادة الحقيقية ولو لم تكن زيادته الا ما صرف منه في طاعة الله لكفى به زيادة وأي زيادة أفضل مما كان مدخراً عند الله تعالى فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (ان الله يقبل الصدقات ولا يقبل منها الا الطيب) وعنه عليه الصلاة والسلام أنه قال (ما نقصت زكاة من مال قط) وتصديق ذلك بينه الله تعالى في كتابه العزيز بقوله (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات) أي يقبلها وبيان ذلك أن من كانت همته لله كان الله معيناً له فاذا كان الانسان مع فقره وحاجته يحسن الى عبيد الله فلا يتركه الله تعالى ضائعاً جائعاً في الدنيا ثم يزداد كل يوم جاهه وذكره الجميل عند الناس وتميل قلوبهم اليه وتعينه الفقراء بالدعوات الصالحة وتنقطع الأطماع عنه لأنه متى اشتهر بين الناس أنه متشمر لاصلاح مهمات الضعفاء وسد خلة الفقراء صار كل أحد محترزاً عن منازعته ويكف كل ظالم وطامع يده عن أخذ شيء من ماله قليلاً كان أو كثيراً فتبين مما قلناه أن الرباوان كان زيادة في المال ظاهراً لكنه نقصان في المآل وأن الصدقة وان كانت نقصاناً في الحال لكنها زيادة في المستقبل *

ولما كان الأمر كذلك كان اللائق بكل عاقل أن لا يلتفت الى ما يحكم به الطبعُ والحسُّ من الدواعي والصوارف التي تخيّلُ له أن الربا تنشأ عنه الزيادة في المال وأن الصدقة ينشأ عنها النقصانُ فيه بل يعوّل على ماندبه العقل والشرع اليه ﴿ والله لا يحب ﴾ أي لا يرضي ﴿ كل كفارٍ ﴾ مُصرٍ على تحليل المحرمات ﴿ أثيمٍ ﴾ منهمكٍ في ارتكابها وذلك لأن حبه تعالى مختص بالتوّابين كما قال جل شأنه (ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) وأما بغضه تعالى فلا يليق الا بمن ينكرُ تحريمَ الربا وغيره من المحرمات. وفي هذه الآية اشارةٌ منه تعالى الى التغليظ في أمر الربا وأنه من فعل الكفرة لا من فعل المسلمين وفيها أيضاً دلالةٌ على أن الله تعالى قدسبقت رحمتُهُ غضبه. وبيان ذلك أنه تعالي لم ينف محبته الاعن الذي يجمع بين الإصرار على الكفر وبين المواظبة على ارتكاب جميع الآثام كالربا لأن استحلاله كفرٌ وهو في نفسه اثم مذموم في جميع الأديان لأنه سلبٌ لمال المحتاج بنوع من الاكراه والالجاء . وأما من جمع بين الكفر وارتكاب جميع الآثام من غير اصرار على الأول ولا مواظبةٍ على الثاني أولم يجمع بينهما فأنه وان لم يستحق محبة الله تعالى الا أن أمره مفوّض الى عفوه وسعة حلمه . انتهى

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

اعلم أن الله تعالى جرتْ عادته فى القرآن الكريم أنه اذا ذكر وعيداً ذكر بعده وعداً فلما بالغ تعالى في وعيد المُرابي أتبعَه بهذا الوعدِ السعيدِ فأخبرَ في هذه الآية عن العاملين بالشرع الخارجين عن طبع النفس وهواها وهم الذين آمنوا ايمان التصديق بالتحقيق فمنَّ عليهم ربهم بالتوفيق فخرجوا عن ظلمة اتباع الهوى بإقامة الصلاة • وعالجوا ظلمةَ الركون الى الدنيا بأنوار إيتاء الزكاة فجذبتهم العناية الربانيةُ من رتبة العُبدية الى رفعة العندية • فمنحهم بوعد كريم وعزٍّ مقيم • بحسن قربه الجليل وذلك قوله تعالى ﴿ ان الذين آمنوا ﴾ بالله ورسوله وبما جاءهم به ﴿ وعملوا الصالحات وأقاموا ﴾ أي وأدُّوا ﴿ الصلاة ﴾ بأركانها وسننها ﴿ وآتوُا ﴾ أي وأعطوا ﴿ الزكاةَ ﴾ لمستحقها ﴿ لهم أجرهم عند ربهم ﴾ تقدم بيانه • وانما قال تعالى عند ربهم ولم يقل على ربهم لأن الأول يقتضي زيادة التحقق لأن لفظة عند تشعر بالحضور فكأنه تعالى يقول ان أجرهم حاضر عندي لا يمنعهم

من استيفائه الاعدم وجود يوم الجزاء بخلاف الثاني فليس بهذه المثابة لأن لفظة على تشعر بالتأجيل ٠ وأيضاً عبر سبحانه وتعالى بذلك ليعلمنا الأدب معه سبحانه وتعالى بأن نقول أجرنا عند الله لا عليه لما في الثاني من إيهام الوجوب عليه تعالى ثم قال تعالى ﴿ ولا خوف عليهم ﴾ فيما يستقبلهم من أحوال القيامة ﴿ ولاهم يحزنون ﴾ بسبب ما تركوه في الدنيا فان المتنقل من حال الى حال أخرى فوق الأولى ربما يتحسر على بعض ما فاته من الأحوال المتقدمة وان كان فائزاً بالحالة الثانية لأجل ما ألفهُ من العادة ٠ فبين تعالى أن أهل الثواب والكرامة لا يلحقهم هذا القدرُ من الندامة ٠ وأيضاً أنهم لا يحزنون بسبب أنه لم تصدر منهم طاعة زائدة على ما صدر منهم في الدنيا حتى يصيروا بها مستحقين لثواب أزيدَ مما وجدوه لأن هذه الخواطرَ الدنيوية لا توجد في الجنة

قَالَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ٠ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ٠ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ٠ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ

تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن من انتهى عن الربا فله ما أخذه من الزيادة عن رأس ماله قبل التحريم ولا يُسترد منه شيء فبقي الأمر محتملاً الى أنه لا فرق بين ما قبضه من تلك الزيادة وبين ما بقي في ذمة المديون . فبين الله تعالى في هذه الآية أن الزيادة التي حل لهم أخذها هي الزيادة التي قبضوها وأما اذا بقيت تلك الزيادة في ذمة المديون ولم يقبضها المرابي فانه يحرم أخذها بعد التحريم وليس للدائن الا رأس ماله فقط فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي صدقوا باللسان ﴿ اتقوا الله ﴾ أي احفظوا أنفسكم من عقابه ﴿ وذروا ﴾ أي واتركوا ﴿ ما بقي ﴾ أي طلب ما بقي لكم في ذمة المديون ﴿ من الربا ﴾ الذي هو الزيادة على رؤس أموالكم تركاً كلياً فلا تأخذوا منها شيئاً ﴿ ان كنتم مؤمنين ﴾ أي مصدقين بالقلب . وانما شدد الله تعالى في النهي عن أخذ تلك الزيادة لأن الشخص اذا كان منتظراً لحلول الأجل ثم حضر الوقت وظن أن تلك الزيادة قد حصلت له فيكون منعه عن أخذها شديداً عليه فلذلك نهى الله عنها بقوله اتقوا الله وهو نهي في غاية التشديد . لأن تقوى الله تعالى لا تكون خالصة للعبد الا اذا اجتنب جميع المنهيات وواظب على فعل المأمورات . ثم ان هذه الآية الكريمة أصل عظيم في أحكام الكفار اذا أسلموا . فان ما فعلوه في كفرهم من أحكام المناكحة وغيرها مخالفاً لديننا فانه يبقى ولا ينقض ولا يفسخ

والذي لم يفعلوه في حال الكفر فحكمه يجري على الشرع • فاذا تناكحوا على ما يجوز عندهم وليس جائزاً في الاسلام فمعفوٌّ عنه • واذا كان النكاح الذي صنعوه في الكفر واقعاً على مهرٍ حرام وقبضته المرأة فيبقى على ما كان لأنه مضى • وان كانت لم تقبضه فلها مهر مثلها دون ما سمي من المهر الحرام • وسبب نزول هذه الآية أن العباس ابن عبد المطلب وعثمانَ بنَ عفانَ كانا قد أسلفا في التمر فلما حضر وقتُ تسليمه قال لهما صاحب التمر انْ أخذْتما حقكما كله فلا يبقى لي ما يكفي عيالي فهل لكما أن تأخذَا النصفَ وتؤخرَا النصف وأزيدُ فعلاَ فلما جاء الأجل طلبا الزيادةَ فبلغَ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاهما عن أخذ تلك الزيادة فنزلت هذه الآية الكريمة فسمعا وأطاعا وأخذا رؤس أموالهما • وقال السديُّ انها نزلت في العباس ابن عبد المطلب وخالد بن الوليد وكانا شريكين في الجاهلية يسلفان في الربا فجاء الاسلام ولهما أموال كثيرة في الربا فأنزل الله تعالى هذه الآية فلما نزلت قال النبي صلى الله عليه وسلم ألا ان كلَّ رباً من ربا الجاهلية موضوع(١) وأولُ رباً أضعه ربا العباس بن عبد المطلب • ثم انه تعالى بعد ما شدد في هذا النهي أعقبه بهذا الانذار فقال ﴿ فان لم تفعلوا ﴾ أيها المؤمنون المصرون على معاملة الربا ما أُمرتم به من التقوي وترك ما بقي من الربا سواء كنتم تنكرون حرمته أو تعترفون بها ﴿ فأذنوا ﴾

(١) قوله موضوع أي ساقط

اي فكونوا على علم ﴿ بحربٍ ﴾ أي ببعد وبغض وهلاكٍ ﴿ من الله ورسوله ﴾ وانما رتب الله تعالى المحاربة [١] مع المسلمين على عدم فعلهم لان المحاربة من الله تعالى ورسوله كما يجوز للكفار يجوز لمن عصى الله ورسوله غير مستحيلٍ كما ورد في الحديث القدسي (من أهان لي ولياً فقد بارزني [٢] بالمحاربة) وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (من لم يدع المخابرة فليأذن بحرب من الله ورسوله) وقال بعضهم المراد بالحرب هنا هو الحرب الحقيقيّ وقد ذكره الله تعالى تهديداً وزجراً للمتعاملين بالربا من المسلمين • واعلم أن في محاربتهم تفصيلا • فان كان المصرُّ على عمل الربا ضعيفاً يقدر الامام عليه بدون كلفة فلا يجوز قتله بل يقبض عليه الامام ويجري عليه حكم الله تعالى من التعزير والحبس حتى تظهر منه التوبة • وان كان المصرُّ على عمل الربا له عسكرٌ وشوكةٌ حاربه الامام كما يحارب الفئة الباغية وكما حارب أبو بكر مانعي الزكاة • وكذلك لو اتفقت طائفة من المسلمين على ترك الأذان وترك دفن الموتى فان الامام يفعل بهم ما ذكرناه ﴿ وان تبتم ﴾ أي وان رجعتم عن معاملة الربا بعد ما سمعتم من الوعيد ﴿ فلكم رؤس أموالكم ﴾ تأخذونها على التمام ﴿ لا تظلمون ﴾ غرماءكم بأخذ الزيادة عن رأس المال ﴿ ولا تظلمون ﴾ أنتم من جهتهم بالمطلِ ونقصان رأس المال ﴿ وان كان ﴾

---

(١) والمراد بمحاربة الله تعالى هنا عقابه وهلاكه *

(٢) قوله بارزني بالمحاربة أى فقد عاداني كعداوة المحارب واستحق العقوبة مني *

أي وان وجد غريمٌ من غرمائكم ﴿ ذُو ﴾ أي صاحب ﴿ عُسرةٍ ﴾ بأن لم يجد شيئاً ﴿ ف ﴾ يجب عليكم ﴿ نظِرَةٌ ﴾ أي إمهال وصبرٌ عليه ﴿ الي ميسرةٍ ﴾ أي الي يسار • واتفق أكثرُ الأئمة على أن هذه الآية ليست مختصةً بدين الربا فقط بل هي عامة في كل دَين • لأن العاجز عن أداء المال لا يجوز تكليفه به لأنه تكليف فوق الطاقة وقد وردت الأحاديثُ الكثيرةُ الدالةُ علي فضلِ امهال المعسرِ والصبر عليه حتى يجدَ شيئاً يَقضي بهِ دينه • فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (من أنظر معسراً فله بكل يوم مثلهُ صدقة قبلَ أن يحلَّ الدينُ فاذا حلَّ الدينُ فأنظرَهُ فله بكل يوم مثلاهُ صدقةً • وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً (من أنظر معسراً أو وضع عنه أظله اللهُ في ظله يوم لا ظل الا ظله) • وقال صلى الله عليه وسلم من أنظر معسراً الى ميسرته أنظرَه الله بذنبه الى توبته) •

واعلم أن الاعسار في الشرع هو أن لا يجد المديون في ملكه القدرَ الذي هو عليه من المال بعينه ولا يكون له أمتعةٌ أو عقاراتٌ لو باعها لكان يمكنه أداء الدين من ثمنها ومن مَلَكَ داراً أو ثوباً وكان يمكنه بيعها وأداء ثمنها في الدين الذي عليه فلا يكون معسراً شرعاً لأنه لا يجوز له أن يحبس الاّ قوت يومه لنفسه وعياله ولا بدَّ لهم من كسوةٍ لصلاتهم ولدفع الحر والبرد عنهم والأصح أنه لا يلزمه أن يؤجر نفسه لصاحب الدين أو غيره • ولو تبرَّع غير المديون له بما بقي دينه من المال فلا يلزمه القبول أيضاً على الأصح وأما اذا كان يملك بضاعة

ثم كسدت عليه فيجب عليه أن يبيعها بالنقصان ان كان لا يمكنه الا ذلك . واذا علم صاحب الدين أن المديون معسر فانه يحرم عليه حبسه ومطالبته بما له عليه من المال ويجب عليه أن يمهله الى وقت اليسار . وأما اذا كان عنده شك في اعساره فيجوز له أن يحبسه الى تحققه واذا ادعي المديون أنه معسر فكذبه صاحب الدين . فان كان الدين الذي لزمه حصل في مقابلة عوض كالبيع والقرض فلابد له من اقامة شاهدين عدلين يشهدان علي أن ذلك العوض قد هلك . فان لم يكن حاصلاً له في مقابلة عوض كاتلاف وضمان وصداق فان أقام صاحب الدين بينة عمل بها والا فالقول قول المديون . لأن الأصل هو الفقر ﴿ وأن تصدقوا ﴾ أيها المؤمنون بإبراء ذمة المعسر مما لكم عليه من الدين ﴿ خير لكم ﴾ من الانظار والامهال لأنكم تنالون بالتصدق حصول الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في الآخرة ﴿ ان كنتم تعلمون ﴾ فضل التصدق على الانظار والقبض بعده وأن ما يأمركم ربكم به أصلح لكم

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّي كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾

ثم ان المتعاملين بالربا لما كانوا أصحاب شرف وجلالة وأعوان وتغلب على غيرهم من العرب احتاجوا الى مزيد زجر ووعيد وتهديد حتى يمتنعوا عن الربا وعن أخذ أموال الناس بالباطل . فلذلك ختم الله تعالى أحكام الربا بقوله ﴿ واتقوا ﴾ أي واخشوا ﴿ يوماً ﴾ أي أهوال يوم ﴿ ترجعونَ ﴾ أي تردونَ ﴿فيه الى الله ﴾ للمحاسبة على أعمالكم فتبين أنه ليس المراد من اليوم هنا الزمان المخصوص لأن ذلك لا يُتقى بل المراد ما يحدث في ذلك اليوم من الشدائد والأهوال . واتقاء تلك الأهوال لا يمكن الا باجتناب المعاصي وفعل الأوامر في الدنيا فيكون قوله تعالى (واتقوا يوماً) متضمناً لجميع أقسام التكاليف . ثم ان الرجوع إلى الله تعالى ليس المراد منه ما يتعلق بالمكان والجهة لأن ذلك محال على الله تعالى وانما المراد منه الرجوع الى علمه تعالى وحفظه أو الى ما أعده لكم من ثواب أو عقاب . وبيان ذلك أن الانسان له أحوال ثلاثة على الترتيب . الحالة الأولى كونه جنيناً لا يملك تصرفاً لنفسه وليس لأحد من الخلق تصرف فيه بل المتصرف فيه هو الله سبحانه وتعالى . الحالة الثانية خروجه من بطن أمه الى الفضاء وفي هذه الحالة يتصرف فيه الأبوان فقط بإصلاح أحواله . ثم بعد ذلك يرى للأبوين ولغيرهما تصرف فيه ظاهر . الحالة الثالثة ما بعد الموت وهنالك لا يكون المتصرف فيه ظاهراً وباطناً الا الله تعالى فكأنه بعد الخروج من الدنيا عاد الى الحالة التي كان عليها فى بطن أمه وهذا هو معنى الرجوع الى الله تعالى . ثم انه بعد رجوع كل مكلف الى الله

تعالي لا بد أن يصل اليه جزاء عمله بالتمام كما قال تعالي (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره • ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) وقال تعالي أيضاً (ونضعُ الموازينَ القسطَ ليوم القيامة فلا تظلم نفسٌ شيئاً وان كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) • وهذا هو معنى قوله تعالى في هذه الآية ﴿ثم توفي﴾ هنالك ﴿كل نفس﴾ من العباد جزاء ﴿ما كسبت﴾ أي ما عملت من حسنة أو سيئة ﴿وهم لا يظلمون﴾ بنقص في حسناتهم ولا بزيادة في سيئاتهم • وفي هذه الآية اشارةٌ الي أنه تعالي مالكُ الملوك وخالق الخلائق. والمالك اذا تصرف في ملكه كيف شاء وأراد لم يكن ظلماً • قال ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية آخر آية نزلت علي رسول الله صلي الله عليه وسلم • و بيان ذلك أنه صلي الله عليه وسلم لما حجَّ حجة الوداع نزل عليه قبل الوقوف بعرفة آية الكلالة التي هي آخر آية في سورة النساء وهي (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلالة) • ثم نزل عليه وهو واقف بعرفة • قوله تعالي (اليومَ أكملتُ لكمْ دينكمْ وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكمُ الاسلام ديناً) • ثم نزل قوله تعالي (واتقوا يوماً ترجعون فيه الي الله) • ثم قال جبريل عليه السلام يا محمد ضعها على رأس المائتين والثمانين آية من البقرة • وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزولها أياماً قليلة • واعلم أنه تعالي كما جمع في القرآن خلاصة الكتب السماوية جمع في هذه الآية الكريمة التي هي خاتمة الوحي خلاصة آيات القرآن الكريم • و بيان ذلك أن فائدة

الكتب الالهية راجعةٌ الي مَعنيين • أحدهما النجاة من الدّركات السفلي وهي سبعةٌ الكفر والشركُ والجهلُ والمعاصي والأخلاقُ المذمومةُ وحجبُ الأَوصاف الدنيوية وحجب النفس الأمّارة • وثانيهما الفوز بالدرجات العليا وهي ثمانيةٌ المعرفةُ والتوحيد والعلم والطاعات والأخلاقُ المحمودةُ وجذبات الحق والفناء عن غيره والبقاء بذاته فقوله تعالي في هذه الآية ﴿ واتقوا يوماً ﴾ يشمل مايتعلق بالسعي الانساني من هذه المعاني لأن حقيقة التقوي مجانبةُ مايبعدك عن الله تعالي ومباشرةُ ما يقرّبك اليه فتقوَي العوامّ والخواصّ هي القيام بما أشار اليه قوله تعالى (والذينَ جاهدوا فينا لنهدينهم سبُلنا) فمن تمسك بشرائط (جاهدوا فينا) كان خارجاً عن الكفر بالمعرفة وعن الشرك بالتوحيد وعن الجهل بالعلم وعن المعاصي بالطاعات وعن الأخلاق المذمومة بالأخلاق المحمودة . فمن وصل الى هذه الدرجة ووقف عندها كان من العوامّ . وأما من أفيضتْ عليهم أنوارُ (لنهدينهم سبلنا) فان افاضتها تخرجهم من حجب أوصافهم الى درجة تجلى صفات الحق فيستظلون بظل (سِدرَةِ المنتهى عندها جنةُ المأوَى) فينتفعون بمواهب (اذ يغشى السدرة ما يغشى) . ومن وصل الى هذه الدرجة ووقف عندها كان من الخواص . ثم من ههنا تكون تقوي خواصّ الخواص فتخرجهم العناية بجذَبات (ما زاغَ البصر وما طغي) من سدرة المنتهى لأوصافٍ الى قاب قوسينِ الذي هو مقامُ المشاهدة ونهاية حجاب النفس الذى هو بدايةُ أنوار القدس • وهناك يظهر سر

قوله صلى الله عليه وسلم (مَن عرف نفسه فقدعرف ربه) وهو مقام (أو أدنى) وقوله تعالى ﴿ ترجعون فيه الى الله ﴾ اشارةٌ الى أن مبدأَ وجود الانسان هو النفخة ، وآخر حاله الجذبةُ التي اصطفى اللهُ بها آدم عليه السلام وكرم نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال تعالى (ولقد كرمنا بنى آدم) ولم يقل ولقد كرَّمنا أولاد آدم . وذلك لأن أهل الكرامة منهم من هو متصف بوصف الرجال دون النساء وهذا الوصف هو الذي ذكره الله تعالى بقوله (رجال لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر الله وإقام الصلاةِ وإيتاء الزكاةِ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوبُ والأبصارُ) ، فمن كان من النساء متصفاً بهذا الوصف فهو من الرجال في المعنى ومن لم يكن من الرجال متصفاً بهذا الوصف فهو من النساء في الحقيقة ، وفي هذا الرجوع وعدٌ وبشارةٌ للأولياء ووعيد وانذارٌ للاعداء ، وقوله تعالي ﴿ ثم توفى كل نفس ما كسبت ﴾ اشارةٌ الي أن الانسان يهتدي الي مقامات القرب من المولي بقدر مراتبه في العبودية والتقوى ويبقى ببقاء ذاته تعالى بحسب فنائه عن حجاب نفسه وهذا سرُّ قوله تعالي ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ ، فتبين لك مما قلناه أن الفيوضات القدسية تشرقُ أنوارها على القلب بقدر الاجتهاد في الطاعات . وهذا ظاهر فيما يشاهد بالبصر لأن دخول النور في البيت وخروج الظلمة منه انما يكون على مقدار سعةِ فتح الشباك وضيقهِ ، وفقنا الله وإياكم الي طرق السعادة ، وأرشدنا الي هدايتهِ ورزقنا الحسنى وزياده . آمين

واعلم أننا لما انتهينا من تفسير الآيات التي انطوت على ما في هذه

السورة من الأحكام الشرعية والآداب الالهيـة سَنَحَ في الخاطر أن نذكر في خاتمة هذا الباب تفسير خواتيم سورة البقرة لما فيها من جزيل البركة وعظيم الأسرار ولما انطوت عليه من كيفية الايمان الذي لا يمكن العمل بالطاعات الا بعده فنقول وعلى الله حسن القبول

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمٰوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنْ تُبْـدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ ٱللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَـاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَٱللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ . وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِٱللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

اعلم أنه تعالي لما جمع في هذه السورة أشياء كثيرة من علم أصول الدين وهي دلائل التوحيد والنبوة والمعاد وذكر فيها أشياء كثيرة من بيان الشرائع والتكاليف كالصلاة والزكاة والقصاص والصوم والحج والجهاد والحيض والطلاق والعدة والصداق والخلع والإيلاء والارضاع والبيع والربا والمداينة ختم هذه السورة بكلام دلَّ على كمال ملكه

وعلى كمال علمه وعلى كمال قدرته ليكون في ذلك غاية الوعد للمطيعين ونهاية الوعيد للمذنبين فقال ﴿ لله ما في السموات وما في الأرض ﴾ من الأمور الداخلة في حقيقتهما والخارجة عنهما من أولى العلم وغيرهم فكلها له تعالى خلقاً وملكاً وتصرفاً لا شركة لغيره في شيء منها بوجه من الوجوه ﴿ وان تبدوا ﴾ أي وان تظهروا ﴿ مافي أنفسكم ﴾ من السوء والعزم عليه لأحد بالقول أو بالفعل ﴿ أو تخفوه ﴾ أي أو تكتموه ولا تظهروه لأحد ﴿ يحاسبكم به الله ﴾ فيجازيكم عليه يوم القيامة • وهذه الآية الكريمة حجة ساطعة وبرهان قاطع على من أنكر الحساب من المعتزلة والروافض • واعلم أن العلماء اتفقوا على أن الأمور التي تخطر بالبال مما يكرهها الانسان ولا يمكنه ازالتها عن النفس لايؤاخذه الله بها لأنه لو آخذه الله بها لكان فيه تكليف بما لا يطاق وهو مستحيل لأنه لايليق بعدالته سبحانه وتعالى . وأما الخواطر التي يوطن الانسان نفسه عليها ويعزم على ادخالها في الوجود فقد قال بعض العلماء ان الله تعالى يؤاخذه بها لقوله عز وجل (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) ولأنها من أفعال القلوب التي يدخل فيها اعتقاد الكفر والبدع ولا شك أن اعتقاد ذلك يؤاخذ الله به فتكون هذه الأمور مثلها في المؤاخذة • وقال بعضهم انما يؤاخذ الله تعالى بها في الدنيا فقط . لما روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت ما حدث العبد به نفسه من شر كانت محاسبة الله عليه بغم يبتليه في الدنيا أو حزن أو أذى فاذا جاءت الآخرة لم يسئل عنه ولم يعاقب •

وروت أنها لما سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فأجابها بما هذا معناه . وقال بعضهم ان كل ما كان في القلب مما لا يدخل في العمل فانه في محل العفو . لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال بعد نزول قوله تعالى (لا يكلفُ اللهُ نفساً الا وسعها) ان الله تجاوزَ لأمتي ما حدَّثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلموا . ﴿ فيغفرُ ﴾ أي فهو يغفر بفضله ﴿ لمن يشاء ﴾ أن يغفر له ولو كان من أصحاب الكبائر ﴿ ويعذب ﴾ بعدله ﴿ من يشاء ﴾ أن يعذبه حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكمِ والمصالح الأزلية ﴿ والله على كل شيء قديرٌ ﴾ أي مستولٍ على كل ماسواه من الممكنات بالقهر والغلبة والايجاد والاعدام فيجب على كل عاقل أن يكون له عبداً مُنقاداً خاضعاً لأوامره ونواهيه متباعداً عن كل محارمهِ ومناهيه ليستحقَّ المدح والثناء بقوله ﴿ آمن ﴾ أي صدَّق ﴿ الرسولُ ﴾ وهو سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم ﴿ بما ﴾ أي بكل ﴿ ما أنزل اليه من ربه ﴾ ايماناً تفصيلياً متعلقاً بجميع مافيه من الشرائع والأحكام والقصص والمواعظ وأحوال مَن قبله من الرسل والكتب وغير ذلك من حيث أنهُ منزَلٌ منه تعالى ﴿ والمؤمنون كلٌّ ﴾ أى كل واحد منهم ﴿ آمن بالله تعالى ﴾ وحده من غير شريك له في الألوهية والمعبودية ﴿ وملائكته وكتبه ورسله ﴾ فالله سبحانه وتعالي لما ذكر في هذه السورة الكريمة أنواعاً من الشرائع والأحكام بين في خاتمة هذه السورة أن رسوله صلى الله عليه وسلم اعترف لمعجزة عظيمة دالة على صدق الملك اعترافاً خالصاً بأن هذا الكتاب وحيٌ

من الله تعالى وصلَ اليه وأن الذي أخبره به مَلَكٌ أمينٌ مبعوث من قبل الله تعالى معصومٌ من التحريف والتبديل وليس بشيطانٍ مضلٍ • ثم ذكر بعد ذلك أن المؤمنين آمنوا بذلك أيضاً بسبب معجزاتٍ أظهرها الله تعالى على يدِ الرسول حتى استدلت الأمة بها على أنه صادق في دعواه • ومن تأمل في نظم هذه السورة علم أن القرآن الكريم كما أنه معجزٌ بسبب فصاحة ألفاظه و بلاغة معانيه• فهو أيضاً معجز بحسن ترتيبه ونظم مبانيه•واعلم أنه صلى الله عليه وسلم كان قبل البعثة مؤمناً بالله وملائكته وكتبه ورسله على الاجمال بل كان هذا الايمانُ حاصلاً له من حين خلقتْ رُوحه الشريفة بل كان نبياً وآدمُ بين الماء والطين كما أن عيسى عليه السلام خلقه الله كامل العقل حتى أنهُ قال وهو في مهدِه (إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً) الى آخر ما أخبر الله به عنه في سورة مريم • وأما الايمان الذي أخبر الله به عنه في هذه الآية الكريمة على وجه الشهادة الإلهية فهو ايمانه بالشرائع التي نزلت عليه•واعلم أن الآية دلتْ على أن معرفة هذه المراتب الأربع من ضروريات الايمان• المرتبةُ الأولى هي الايمان بالله سبحانه وتعالى فان صدقَ الرسول يتوقفُ علي وجود مَن أرسله• المرتبةُ الثانية هي الايمان بالملائكة لأنهم واسطةٌ بين الله تعالى و بين البشر قال تعالى (ينزّلُ الملائكة بالروح من أمرهِ على من يشاء من عباده) • المرتبةُ الثالثة هي الايمان بالكتب السماوية

لأنها هي الوحي (١) الذي يتلقفهُ الملك ويوصلهُ الى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين • فمثالُ الملكِ في عالم الصورة جرمُ القمر • ومثال الوحي نورُ القمر • فكما أن القمر يستفيدُ النور من الشمس ويوصله الينا فكذلك الملكُ يأخذ الوحي من الله تعالي ويلقيه على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام • المرتبةُ الرابعة هي الايمان بجميع الرسل من غير تفرقة بين أحدٍ منهم كما أشار تعالي الي ذلك بقوله ﴿لا نفرّقُ﴾ أي يقول كلٌّ المؤمنين لا يقعُ منا تفريق ﴿ بين أحدٍ من رسله ﴾ تعالى بأن نؤمن ببعضٍ منهم ونكفر بآخرين بل نؤمنْ بصحة رسالة كلِ واحدٍ منهم • وانما قيدوا ايمانهم بذلك تحقيقاً للحق وتخطئة لأهل الكتابين وهم اليهود والنصارى حيثُ أجمعوا على الكفر بالرسول صلى الله عليه وسلم • وهذا الترتيب مما تقتضيه حكمةُ عالم التكليف والوسائط • وأما قوله صلى الله عليه وسلم (لي مع الله وقتٌ لا يسعني فيه ملكٌ مقرّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ) فهو مقام معلوم لنبينا صلى الله عليه وسلم فقط • وهذا سرٌّ عجيبٌ نطلعْ منه على أسرارٍ أخري ان كنت من أهل الأسرارِ • ثم الايمان بالله تعالى عبارةٌ عن الايمان بوجودهِ و بصفاتهِ و بأفعاله و بأحكامه و بأسمائه • أما الايمان بوجودهِ فهو أن تعلم ونعتقد أن هذا العالم الحادث له إلهٌ موجود خالق له وأن ذلك الاله الموجود ليس جرماً ولا حالاً في جرمٍ متصفٍ

(١) المراد بالوحي هنا هو الموحى به

بكل كمال منزهٌ عن كل نقص (ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير) • وأما الايمانُ بصفاته تعالى فهو أن تعلم وتعتقد أنه جل وعز يجب له صفات ثبوتيةوصفات سلبية . فأما الصفات الثبوتيةفهي (القدرةُ والارادةُ) وهما صفتان وجوديتان قائمتان بذاته تعالى متعلقتان بجميع الممكنات (والعلم) المتعلقُ بجميع الواجبات والجائزات والمستحيلات (والحياةُ) وهي صفة لا تتعلق بشيءمن ذلك (والسمعُ والبصرُ) وهما صفتان متعلقتان بجميع الموجودات والكلام وهو صفة ليست بحرف ولاصوت ويتعلقُ بمايتعلق به العلم •وأما الصفات السلبيةُ فهي (القدمُ) الذي هوعدمُ الأولية لوجوده تعالى (والبقاء) الذي هوعدمُ الآخرية لوجوده (والمخالفة للحوادث) وهي عدم مماثلته تعالى للحوادثفليس له يدٌ ولا عينٌ ولا أذنٌ ولا غير ذلك من صفات الحوادث •ولا يمرُّ عليه زمانٌ ولا يحل في مكانٍ ولا جهةٍ من الجهات • بل كل ماخطر ببالك فالله بخلافه • (والقيامُ بالنفس) وهوعدم احتياجه تعالى الى المحل أو المخصص فهو تعالى لا يحتاج الى محل يحلُّ فيه ولا مخصص أي موجد يوجدُه • بل هو جل وعز الغني المطلقُ عن كل ماسواه • (والوحدانية في الذات والصفات والأفعال) فمعنى الوحدانية في الذات هو أن ذاته تعالى ليست مركبةً من أجزاء وليست متعددة . ومعنى الوحدانية في الصفات هو أنه تعالى ليس له صفتان فأكثرَ من جنس واحدٍ كقدرتين وارادتين وهكذا وليس لغيره صفة تشبه صفتهُ تعالى ومعنى الوحدانيةفى الأفعال أنه تعالى ليس لغيره من الخلق فعلٌ يشبه

فعله تعالى . وأدلة هذه الصفات مذكورة في كتب التوحيد فلاحاجة للتطويل بها هنا . وقد ذكرنا فى تفسير البسملة ما يصح وصفه تعالى به من الصفات وما لا يصح . وأما الايمان بأفعال الله تعالى فهو أن نعلم ونعتقد أن كل ماسواه من الحوادث انما حصل بإيجاده وتكوينه حتى الافعال التي تسمى اختيارية للحيوانات . وبيان ذلك أن مشيئة الانسان وارادته أي فعل من الأفعال محدثة منتهية الي الله سبحانه وتعالي . فلا يريد الانسان فعلا الا بارادته جل وعلا . فالله سبحانه وتعالى هو الموجد والمؤثر في الأفعال مطلقاً سواء كانت اختيارية أو اضطرارية وانما تنسب للعبد من جهة الكسب فقط والكسب هو مقارنة القدرة الحادثة للمقدور على جهة المصاحبة فقط لا على جهة التأثير لأن التأثير لله تعالي وحده . وأما الايمان بأحكامه تعالي فهو أن نعلم ونعتقد أن المقصود من شرعها منافع عائدة الى العباد لا الى الله تعالى وأنها غير معللة بغرض وان كان يترتب عليها الفوائد الكثيرة وذلك لأنه تعالى منزه عن الأغراض وعن جلب المنافع لنفسه ودفع المضار عنه . وأن نعلم ونعتقد أن له الالزام والحكم كيف شاء وأراد وأن نعلم ونعتقد أنه لا يجب علي الله بسبب أعمال العباد شيء . وأنه في الآخرة يغفر لمن يشاء بفضله . ويعذب من يشاء بعدله . وأنه لا يقبح منه شيء ولا يجب عليه شيء لأن الكل مملوك له والمملوك المجازي لاحق له على المالك المجازي فكيف حال المملوك الحقيقي مع المالك الحقيقي سبحانه وتعالى . وأما الايمان بأسمائه تعالى فهو أن

تعلم وتعتقد أنه جل شأنه يجب أن يسمى بأسمائهِ الواردة في كتب الله المنزلة على أنبيائهِ المعصومين أو الواردة على ألسنتهم بطريق الإلهام وهذه اشارة كافية الى عقائد الايمان بالله. وأما الايمان بالملائكة فهو أن تعلم وتعتقد أنهم موجودون وأنهم معصومون مطهرون (يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون) • وأن لذتهم بذكر الله وحياتهم بمعرفته وطاعته وأنهم هم الواسطةُ بين الله وبين البشر •وبهم وصلت الكتب الى الأنبياء وأن كل قسمٍ منهم موكل على قسم من أقسام هذا العالم •وأما البحث عن كون الملائكة روحانية محضةً أوجسمانيةً محضةً أو مركبة من القسمين فليس من الامور المتعلقة بالدين •وأما الايمانُ بالكتب السماوية فهو أن تعلم وتعتقد أنها وحي أي موحيٌّ بها من عند الله تعالى الى رسله وأنها ليست من باب الكهانة ولا من باب السحر ولا من باب إلقاء الشياطين والأرواح الخبيثة •وأن الله تعالى لم يمكّن أحداً من المخلوقات في إلقاء شيء فيها من الضلالات •وأن هذا القرآن لم يقع فيه تغييرٌ ولا تحريف أصلاً . وأن من قال ان ترتيب القرآن على هذا الوجه شيءٌ فعله عثمانُ رضي الله عنه ولم يكن بترتيب الله تعالى فقد أخرج القرآن عن كونه حجة وطرّقَ اليه التغييرَ والتحريف •وأن القرآن مشتمل على المحكم والمتشابه وأن محكمه يكشف عن متشابههِ • وأما

الايمان بالرسل عليهم الصلاة والسلام فهو أن تعلم وتعتقد أنهم معصومون من الذنوب في معتقداتهم وفي أمر التبليغ وفي الأخلاق والأفعال الحميدة • وأن درجة النبي أفضل ممن ليس بنبيٍ خلافاً لبعض الصوفية وأن بعض الانبياء أفضل من بعض كما قال تعالى (تلك الرسلُ فضلنا بعضَهم على بعضٍ منهم من كلم اللهُ ورفع بعضَهم درجات) وأما فضلهم على الملائكة فقد قال بعض العلماء ان الأنبياء أفضل من الملائكة وقال كثيرٌ منهم ان الملائكة السماوية أفضل من الأنبياء وأن الأنبياء أفضل من الملائكة الأرضية • وأن تعلم وتعتقد أيضاً أن شرع غير نبينا صلى الله عليه وسلم وان صار منسوخاً الاَّ أن نبوتهم لم تصر منسوخةً وأنهم الآن أنبياء ورسلٌ كما كانوا فهذه اشارةٌ الى أصول الايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله • واعلم أن المطالب التي يبحث عنها قسمان أحدهما البحث عن حقائق الموجودات وثانيهما البحث عن أحكام الأفعال من الوجوب والجواز والمنع • أما القسم الأول فمستفاد من العقل والثاني مستفاد من السمع والنقل • والقسم الأول هو المراد بقوله تعالى (والمؤمنون كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) والقسم الثاني هو المراد بقوله ﴿ وقالوا ﴾ أي المؤمنون ﴿ سَمعنا ﴾ أي فهمنا ما جاءنا من الحق وعلمنا صحته وتيقنا أن كل تكليف ورد الينا على لسان الملك والأنبياء عليهم الصلاة والسلام فهو حق صحيح يجب قبوله ﴿ وأطعنا ﴾ مافيه من الأوامر والنواهي • وقد جمع الله تعالى في هذين اللفظين كل ما يتعلق بأبواب التكاليف علماً وعملاً • ثم ان

المؤمنين لما قبلوا التكليف وعملوا به خافوا أن يكون قد وقع منهم تقصيرٌ فيما يأتون ويتركون فطلبوا منه تعالى المغفرة بقولهم ﴿ غفرانك ﴾ أي نسئلك غفرانك ﴿ ربنا ﴾ أي يا ربنا • ثم ان طلب هذا الغفران مقرون بأمرين بالاضافة اليه تعالى بقولهم ربنا • أما الأول فمعناه انا نطلب المغفرة منك وأنت الكامل في هذه الصفة والمطموع من الكامل في صفةٍ هو أن يعطي عطيةً كاملةً وتلك العطية لا تكمل الا بأن يغفر جميع الذنوب ويبدلها بالحسنات • ويصح أن تكون هذه الاضافة مشيرةً الى قوله صلى الله عليه وسلم (انَّ لله تعالى مائةَ جزءٍ من الرحمة قسَّمَ جزأً منها على الملائكة والجن والانس وجميع الحيوانات فيها يتراحمون ويتعاطفون وأخر تسعة وتسعين جزأً ليوم القيامة) • وأما الأمر الثاني فمعناه ربيتنا حين أوجدتنا مع أنك لولم تربنا في ذلك الوقت لم نتضرَّر بعدم التربية لأنا كنا نبقى على العدم والآن لو لم تربنا بفضلك وتغفر لنا ذنوبنا لكنا نتضرَّر بعدم غفرانك فنسئلك أن لاتحرمنا مما رجوناه منك يارب العالمين • ويصح أن يكون معناه أنت ربيتنا فيما مضى بالايجاد من العدم فنسئلك أن تتم هذه التربية فيما يُستقبل فان اتمام المعروف خير من ابتدائه ﴿ واليك المصير ﴾ أي واليك الرجوع بالموت والبعث لا الى غيرك لأنه لاحكم الاحكمك ولا يشفع أحدٌ الا باذنك • وفي هذة الآية دليل على أنهُ تعالى عالم بالجزئيات والكليات أيضاً قادرٌ على كل الممكنات له المحيا وله الممات • انتهى

قَالَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللّٰهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ . رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا . رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ . وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾

ثم ان المؤمنين لما قالوا سمعنا وأطعنا ثم طلبوا منه تعالى المغفرة كان ذلك دليلاً على أنهم لا تصدرُ عنهم ذَلة الا على سبيل النسيان والسهو . فلما ظهر منهم هذا الإخلاصُ وصفتْ نياتهم خفف الله عنهم ما كان يقع منهم من الذَّلات نسياناً أو سهواً إجابةً لدعائهم فقال ﴿ لا يكلفُ اللهُ نفساً الا وُسعها ﴾ أي لا يُلزِمُ اللهُ نفساً من نفوس العباد الا بما في وُسعها وتقدِرُ عليه من العبادات والخيرات فلا يضيقُ عليها ولا يلزمها الا ما تطيقه كالصلوات الخمس وصوم رمضان والحجّ . وبيان ذلك أن الانسان كان يمكنهُ أن يصلي أكثرَ من الخمس ويصوم أكثرَ من الشهر ويحجّ أكثرَ من حجةٍ ولكنه تعالى ما جعل فى الدين من حرجٍ لكمالِ رحمته وشمول رأفته ﴿لها﴾

أي لكل نفس ثوابُ ﴿ ما كسبت ﴾ أي ما عملته من الخيرات والطاعات والعلوم والكمالات ﴿ وعليها ﴾ أي وعلى كل نفس عقابُ ﴿ ما اكتسبت ﴾ من المعاصي والشرور من النقائص والجهالات . ولما كانت الروح من عالم النور كانت فوائدُ أعمال الخير عائدةً اليها على أي وجهٍ سواء كانت في عملها للخير مريدةً له أو كان صادراً عنها من غير قصدٍ وإرادة فالخيرات كلها ترجعُ فائدتها اليها . وأما الشرورُ من الجهالات والرذائل والمعاصي والنقائص فانها لما كانت أموراً ظلمانيةً غريبةً عن جوهر النفس النوراني فلا تلحقها ولا تضرها الا اذا كانت مائلةً اليها متوجهة بالقصد الى تكسبها . ولهذا ورد أن الملكَ صاحبَ اليمين يكتب كل حسنةٍ تصدر عن صاحبها في الحال وأن صاحب الشمال لا يكتبُ السيئةَ حتى تمضي عليه ست ساعات فان استغفر العبد ربهُ في هذه المدة وتاب او ندِم لم يكتب عليه هذه السيئةَ وان أصرَّ ولم يندم كتبها عليه . والمراد بالنفس هنا الذاتُ . ولما كانت النفس غير معتنيةٍ بالخير وليست متوجهةً له توجهاً كلياً ذكر الله تعالى الكسب في موضعه . ولما كانت للشر منجذبةً دائماً بالقصد ذكر الله الاكتساب في موضعه هذا . ثم ان العبد لا يؤاخذُ على السيئة بمجرد همه أو عزمه عليها بل لا يؤاخذ عليها الا اذا فعلها فقط بخلاف الحسنة فانه يثاب عليها مطلقاً بالهم أو العزم أو الفعل . وقد روي أنه لما نزل قوله تعالى (وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به اللهُ) الى آخر الآية إشتد ذلك على أصحاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوه عليه الصلاة والسلام ثم بركوا على الركب فقالوا يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق وهو الصلاة والصوم والحج والجهاد وقد أنزلت اليك هذه الآية ولا نطيقها . فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا . بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير . فقرأها القوم فأنزل الله عز وجل (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه) الى قوله تعالى (غفرانك ربنا واليك المصير) . فكان ماسألوه من الغفران هو الذي علقه الله بمشيئته عز وجل في قوله (فيغفر لمن يشاء) . ثم أنزل الله تعالى (لا يكلف الله نفساً الا وسعها) تهويناً للخطب عليهم ببيان أن المراد بقوله تعالى (وان تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) ما عزموا عليه من السوء خاصة وليس المراد به ما يعم الخواطر النفسانية التي لا يمكن الاحتراز عنها . وأن الله تعالى اقتضت حكمته أنه لا يكلف نفساً من النفوس الا ما يتيسر عليها ولا يكلفها فوق الطاقة فضلاً منه تعالى ورحمة لهذه الأمة لقوله تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) . ثم ان الله تعالى لما بين سر التكليف شرع في بيان بقية دعوات المؤمنين فحكي عنهم أربعة أنواع من الدعاء . النوع الأول قوله تعالى ﴿ربنا﴾ أي يا ربنا ﴿لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ أي لا تعاقبنا بما صدر منا من الذنوب في حالة النسيان أو الخطأ انتهى

ثم أشار الى النوع الثاني فقال تعالى ﴿ ربنا ولا تحمل علينا إصراً ﴾ أي تكليفاً ثقيلاً من التكاليف الشاقة ﴿ كما ﴾ أي مثل الإصر الذي ﴿ حملته على الذين من قبلنا ﴾ وهو ما كلفت به بني اسرائيل من قتل النفس في مقابلة التوبة بمعنى أنه لو فعل أحدهم ذنباً فتوبته لا تكون الا بقتله لنفسه كما قال تعالى في حق بنى اسرائيل (فتوبوا الى بارئكم فاقتلوا أنفسكم) وقطع موضع النجاسة من الثوب . وفرض خمسين صلاةً في اليوم والليلة . وصرف ربع المال في الزكاة وغير ذلك من التشديدات . فانهم كانوا اذا وقعت منهم خطيئة حرم الله عليهم من الطعام بعضَ ما كان حلالاً لهم . كما قال تعالى في سورة النساء (فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أُحلت لهم) وقد عصمَ الله تعالى بفضله ورحمته هذه الأُمة عن أمثال هذه التكاليف الشاقة وأنزل في شأنهم قوله تعالى (ويضع عنهم إصرَهم والأغلالَ التي كانت عليهم) »

قال النبي صلى الله عليه وسلم

(بُعثتُ بالحنيفةِ السَّهلةِ السَّمحةِ) انتهى

النوع الثالث من أنواع الدعاء قوله تعالى ﴿ ربنا ولا تحملنا مالا طاقةَ لنا به ﴾ من التكليف الشاق الذي لا قدرة لنا عليه مطلقاً سواء كلفتَ به من قبلنا أم لا فهو من باب ذكر العام بعد الخاص »

النوع الرابع من أنواع الدعاء قوله تعالى ﴿ واعفُ عنا ﴾ أي آثار ذنوبنا ﴿ واغفر لنا ﴾ أي واستر عيوبنا ﴿ وارحمنا ﴾ أي وتعطفْ بنا وتفضل علينا ﴿ أنت مولانا ﴾ أي أنت ناصرُنا ومتولي أُمورنا وسيدنا ونحن عبيدُك • فظهر من التفسير أن العفو هو اسقاطُ العذاب وأن المغفرةَ هي سترُ الذنب بعد اسقاط العذاب عليه صوناً لفاعله من عذاب التخجيل والفضيحة لأن الخلاص من عذاب النار لا يكون لذيذاً طيباً الا اذا حصل عقيبهُ الخلاصُ من عذاب الفضيحة • فعذاب النار هو العذاب الجُسمانيُّ : وعذاب الفضيحةِ هو العذاب الرُّوحاني ٭

والعبد اذا وصل الى الحق تعالى أعرضَ بالكلية عما سواه • وهذا المعنى مذكور في قوله جلت قدرتُهُ ﴿ فانصرنا على القوم الكافرين ﴾ أي أعنا على قهرِ من خالفك وتعدّي حدودَك وعلى غلبةِ القوى الجسمانيةِ الداعية الى ماسواك • انتهى

قال النبي صلى الله عليه وسلم

(من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاهُ) اللهم أكرمنا بفضلك وحفّنا بلطفك يا أرحم الراحمين : انتهى

الباب الثانى

﴿ فى تفسير ما ورد فى سورة آل عمران من النواهي ﴾

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ . قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

أرشد الله عباده المؤمنين في هذه الآية الكريمة الى أنه يجب أن تكون رغبتهم فيما عنده تعالى وعند أوليائه ولا يرغبون فيما عند أعدائه ونهاهم عن الركون اليهم والمعونة بهم . لقرابة أو نحوها فقال ﴿ لا يتخذ المؤمنونَ ﴾ أي المتصفون بالايمان ﴿ الكافرينَ ﴾ بالله ورسوله ﴿ أولياء ﴾ أي أصدقاء يوالُونهم ويحبونهم ﴿ من دون ﴾ أي من غير إخوانهم ﴿ المؤمنينَ ﴾ بالله ورسوله . مع أنهم أولى بالمودة والمحبة . فان الله تعالى جعل موالاة المؤمنين الذين هم أحباب الله ومعاداة الكافرين الذين هم أعداء الله من أكمل الايمان .

وربما جرّته الصحبة مع الكافر الى استحسان طريقته وأحواله الدنيوية الباطلة الفانية وهذا يكون سبباً لفساد نور الايمان فلذلك حذّر الله سبحانه وتعالى المؤمنين وزجرهم عن موالاة الكفار بقوله تعالى ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أي ومن يتخذ الكافرين (١) أولياء من دون المؤمنين ﴿ فليس من الله ﴾ أي من ولايته (٢) أو من دينه ﴿ في شيء ﴾ يُعتدُّ به بل هو منقطعٌ عن ولاية الله تعالى بالكلية لأنه ليس في قلبه نورانيةٌ صافيةٌ ينتسبُ بها الى الحضرة الإلهية فاللائقُ بكم أيها الاخوان المؤمنون أن تجتنبوا الكافرين اجتناباً كلياً في جميع الأمور والأحوال ﴿ الا أن تتقوا منهم تقاة ﴾ أي الا أن تخافوا من جهتهم أمراً يجبُ أن يُتقى ويُتحفظَ منه فيجوز لكم أن توالوهم في الظاهر بشرط أن لا يكون في قلوبكم شيءٌ من محبتهم أصلاً *

ثم عقب الله سبحانه وتعالى هذه الرخصة بقوله ﴿ ويحذّركم ﴾ أي ويخوفكمُ ﴿ اللهُ ﴾ تعالى ﴿ نفسهُ ﴾ أي عقاب نفسه وذاته العلية ويدعوكم الى التوحيد الحقيقي حتى لا يكونَ خوفكم من غيره بل يكونَ منه تعالى وحده ﴿ والى الله المصيرُ ﴾ أي واليه المرجع بعد الموت والبعث

(١) والمراد بالكافرين كل من أنكر وحدانية الله تعالى وخالف دين الحق

(٢) من ولايته أى من رعايته واحسانه تعالى

فلا تخافوا الا منه لأنه هو المطلع على أسراركم وعلانيتكم • وهو القادر على مجازاتكم ان واليتم أعداءه لغير ضرورة • ثم انه تعالى حذر عباده من جعل الباطن موافقاً للظاهر في وقت موالاة الكفار عند الخوف منهم فقال ﴿قل﴾ يامحمد لهؤلاء المؤمنين ﴿ إن تخفوا مافي صدوركم ﴾ أي مافي قلوبكم من الضمائر التي من جملتها موالاة الكفار ﴿ أو تبدوه ﴾ أي تظهروه فيما بينكم ﴿ يعلمه الله ﴾ أي يتعلق به علمه الأزلي فيؤاخذكم بذلك عند مصيركم اليه ﴿ ويعلم ما في السموات وما في الأرض ﴾ لايخفى عليه شيء ﴿ والله على كل شيء قدير ﴾ لا يعجزه شيء فيقدر على عقوبتكم بما لامزيد عليه ان لم تنتهوا عما نهيتم عنه • أعاذنا الله واياكم من عقابه ووفقنا الى ما يقرب منه ويكون سبباً في الفوز بثوابه الجزيل والله الهادي الى سواء السبيل * انتهى

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ • وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

هذه الآيات الكريمة ترشد الى أمر ونهي وترغيب وترهيب

للمؤمنين • تتميماً لما تقدم من الإرشاد الى الأصلح في أمر الدين •
وانما أعاد اللهُ تعالى النهي عن الربا في هذه السورة بعد ما شدّد في
النهي عنه في سورة البقرة • لأن الترغيب في الانفاق في السرّاء
والضرّاء متضمنٌ للترغيب في تحصيل المال • فكان ذلك مَظنةَ
لمبادرة الناس ومسارعتهم الى طرُق الاكتساب التى من جملتها الربا
فنهى الله المؤمنين عن تحصيل المال منه • فلا يكتسبوه من طريقه •
بل يتوكلوا على الله تعالى في طلب الرزق • فان التوكل عليه في ذلك
واجبٌ • وقال الفقهاء أن جزاء المُرَابي كجزاء الكافر فيكونُ
محجوباً عن مرضاة الله تعالى • كما أن الكافر محجوبٌ عن معرفة
ما يقربُ اليه • والمحجوبُ عن ربه مطرود عن رحمته تعالى وان
اتسعتْ • فاللائقُ بحال المؤمنين أن يَرفعوا كلَّ مايحجبهم عن
خالقهم بالمحافظة على الطاعة وترك المخالفة • حتى لايحرموا من رحمة الله
تعالى التى أعدّها للطائعين ووعدَ بها المتقين • وقد بين الله تعالى ما
أشرنا اليه فقال ﴿ ياأيهاالذين آمنوا لاتأكلوا ﴾ أي لاتأخذوا ﴿الربا﴾
الذي يؤدي الى الحرص على طلب الدنيا ﴿ أضعافاًمضاعفةً ﴾ أي الى
مالا يتناهي من الطمع وعدم القناعة • فانه لا يملأ جوفَ ابنِ آدم
الا الترابُ • وليس المراد من هذه الآية نهي المؤمنين عن أخذ
الربا في حال كونه أضعافاً مضاعفة فقط • لما تقدم أنه منهيٌّ عن أخذه
من كل وجه • وانما المراد تأكيد النهي عنه وتوبيخهم على ما كانوا
متعودين عليه في الغالب من تضعيفه • فقد كان الرجل منهم اذا بلغ

الدَّينُ أَجله وعجز المديون عن وفائه • يقول له زدني في المال حتى أزيدُكَ في الأَجل • فيزيدُه في المال وهو يزيدُه في الأَجل • وهكذا يفعل معه عند انتهاء كل أجل حتى يستغرقَ بالشيء القليل مال المديون • ثم بين الله تعالى أن التقوى واجبة • وأن فلاح المؤمن متوقفٌ عليها فقال ﴿ واتقوا ﴾ أي وخافوا أيها المؤمنون ﴿ الله ﴾ تعالى فيما نهاكم عنه من الأُمور التي من جملتها الربا ﴿ لعلكم تفلحون ﴾ أي تفوزون بالفلاح • فلو لم ينته المؤمن بأن أكل الربا • ولم يتق ربه زال عنه الفلاحُ • وهذا يدلُّ على أن الربا من الكبائر لا من الصغائر ويؤكده قوله تعالى ﴿ واتقوا النارَ التي ﴾ هي دار غضب الجبار و ﴿ أُعدَّت للكافرين ﴾ بالله المتعدّين لحدوده • وكان أبو حنيفة رحمه الله تعالى يقول هذه الآية أخوَفُ آية في القرآن • حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين ان لم يتقوه في اجتناب محارمه • وكون النار معدةً للكافرين لا يمنعُ دخول الفساق وهم مسلمون فيها • لأنه لما كان أكثرُ أهل النارِ من الكفارِ صارت النار كأنها مختصة بهم ﴿ وأطيعوا الله ﴾ في كل ما أمركم به ونهاكم عنه ﴿ و ﴾ أطيعوا ﴿ الرسول ﴾ الذي يبلغكم أوامره تعالى ونواهيه ﴿ لعلكم ترحمون ﴾ بالبعد عن نار الجحيم والفوز في دار النعيم • وهذه الآية تدل على أن رجاء الرحمة موقوف على طاعة الله وطاعة الرسول • فمن عصى الله ورسوله في شيء من الاشياء فهو ليس أهلاً للرحمة • وبعض العلماء يحملُ الآية على الزجرِ والتخويف • جعلنا الله وإياكم من الآمنين على أنفسهم من

عقابه الخائفين منه تعالى لا من غيره بجاه نبيه وحبيبه • سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام آمين •

الباب الثالث

﴿ في تفسير ما ورد في سورة النساء من النواهي ﴾

قَالَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴾

أرشدنا الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة الى وجوب حفظ أموال الضعفاء الذين لا يتمكنون من حسن التصرف في أموالهم فقال ﴿ ولا تؤتوا ﴾ أي ولا تعطوا أيها الأولياء والآباء ﴿ السفهاء ﴾ أي الذين ليس لهم عقل يفي بحفظ المال الذي لا بد من اصلاحه وتثميره والتصرف فيه ﴿ أموالكم ﴾ أي لا تعطوا السفهاء الأموال التي تختص بكم من جهة التصرف • سواء كانت ملكاً لكم أو كانت ملكاً لغيركم ممن لا يحسنون التصرف وكنتم أولياء عليهم • ويدخل في السفهاء النساء والصبيان والأيتام والفساق وغيرهم ممن لا وزن لهم في التصرف عند أهل الدين العالمين بمصالح الدنيا والآخرة

فان هؤلاء يضعون المال فيما لا يليق ويفسدونه . ولا يخفي أن المال لا يحصل قيامُ المرءِ ولا يحسن صلاحه الا به كما قال تعالى ﴿ التى جعل اللهُ لكم قياماً ﴾ أي التى جعلها الله شيئاً تقومون به وتنتعشون . فلو ضيعتموه لكنتم من المحتاجين . وكان المتقدمون من أهل الصلاح يقولون المال سلاح المؤمن . ولأن أترك مالاً يحاسبني الله عليه خيرٌ من أن أحتاج الى الناس . وقال ابن عباس رضى الله عنهما . الدراهمُ والدنانيرُ خواتيم الله في الأرض . لا تأكل ولا تشرب . حيث قصدتَ بها قضيت حاجتك . وقيل لأبي الزناد لم تحب الدراهم وهي تدنيك من الدنيا . فقال هي وان أدنتني منها فقد صانتني عنها . وقال بعض الحكماء من أضاع ماله فقد ضارّ الأكرمين (الدينَ والعرض) وفي منثور الحكم من استغنى كرم على أهله . وفيه أيضاً الفقر مخذَلةٌ والغنى مجذَلة والبؤس مرذلةٌ . والسؤال مبذَلةٌ »

ثم اختلفوا هل الفقر أفضل أم الغني . فذهب قومٌ الى أن الغنى أفضل من الفقر لأن الغنيَّ مقتدرٌ . والفقير عاجز . والقدرة أفضل من العجز . وهذا مذهب من غلب عليهم حبُّ النباهةِ . وذهب آخرون الى أن الفقر أفضل من الغنى . لأن الفقير تاركٌ للدنيا والغني مخالط لها . وترك الدنيا أفضل من مخالطتها . وهذا قول من غلب عليهم حبُّ السلامة وقال الباقون ان خير الأمور أوسطها والأفضل أن يكون حال الشخص معتدلاً بين الفقر والغنى . ليصل الى فضيلة الأمرين . ويسلم من مَذَمة الحالين . قال الشاعر

وَمَنْ كلَّفَتْهُ النَّفْسُ فَوْقَ كَفَافِهَا
فَمَا يَنْقَضِي حَتَّى المَمَاتِ عَنَاؤُهَا

وخلاصةُ القولِ في هذا المقام • أن الانسانَ اذا لم يكن فارغَ القلب • فلا يمكنه القيام بمصالح الدارين • ولا يكون فارغَ القلب الا بواسطة المال • لأنه بذلك يتمكن من جلب المنافع ودفعِ المضار • ولهذا رغب الله تعالى في حفظ المال هنا وفي آية المداينة التي تقدم تفسيرها في قسم الأوامر من سورة البقرة حيث أمر الله تعالى فيها بالكتابةِ والشهادة والرّهنِ المقبوضةِ • فمن أراد الدنيا لهذا الغرض الذي هو التمكن من القيامِ بمصالح الدارين كانت الدنيا في حقه من أعظم الأسباب المعينة له على اكتساب سعادة الآخرة • ومن أرادها لعينها وذاتها فيالها من حسرةٍ وندامة • لأنها محجبةُ عن السعي في كسب السعادة الأبدية • ثم انه سبحانه وتعالى بعد ما نهى عن اعطاء السفهاء أموالهم • أمر بعد ذلك بثلاثة أشياء • الأول مذكور في قوله تعالى ﴿ وارزقوهم فيها ﴾ أي واجعلوا أموال السفهاء مكان رزقهم بأن تتجروا فيها وتربحوا حتى تكون نفقتهم من الأرباح لا من أصول الأموال وصلبها • وانما لم يقل وارزقوهم منها لأجل أن لا يكون ذلك أمراً بجعل بعض أموالهم رزقاً لهم • فيفنى جميعها بسبب الانفاق منها • والثاني مذكور في قوله تعالى ﴿ واكسوهم ﴾ أي واجعلوا أموالهم مكاناً لكسوتهم أيضاً • ويكون كلٌّ من الرزق والكسوة بحسب

المصلحة كما يليق بحال أمثالهم • والثالث مذكور فى قوله تعالى ﴿وقولوا﴾ أيها الآباء والأولياء ﴿لهم﴾ أي للسفهاء ﴿قولاً معروفاً﴾ أي قولا ليناً تطيبُ به نفوسهم مثلَ أن تقولوا لهم اذا اصلحت أحوالكم ورشدتم سلمنا اليكم أموالكم • ومن المعروف أيضاً أن تعلموهم أمرَ دينهم بعد الاطعام والكسوة • وأن تنصحوهم وتعلموهم كلَّ ما يتعلقُ بالعلم والعمل • وعرِّفوهم أن عاقبة الإسراف فقرٌ واحتياجٌ • وبالجملة فكل ما سكنتْ اليه النفوسُ وأحبتهُ لحسنهِ عقلاً أو شرعاً من قولٍ أو عمل فهو معروفٌ • وما نفرتْ منه النفوسُ لقبحه عقلاً أو شرعاً فهو منكرٌ • فظهر من هذه الآية أنه لايجوز للآباء مثلاً أن يدفعوا أموالهم أو بعضَها الى أولادهم اذا كانوا سفهاء • واذا قرُب أجلُ الأب فيجب عليه أن يوصي أميناً على ماله ليحفظه على ورثته • وأجمعت الائمة على أنه لا يحرُمُ عليه أن يهبَ لأولاده الصغار أو الى النساء ما شاء من ماله • ثم أشار تعالى الى أنه يحرمُ على الوليّ أن يدفع الى السفهاء أموالهم قبل الرشد •

قال الله سبحانه وتعالى

﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا

أَنْ يَكْبَرُوا * وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ * فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً ﴾

ثم انه تعالى بين في هذه الآية الكريمة أن الأولياء لايدفعون لليتامي أموالهم الا اذا اجتمع فيهم شرطان • وهما بلوغ النكاح وإيناسُ الرشد فقال ﴿ وابتلوا ﴾ أي واختبرُوا ﴿ اليتامي ﴾ وجربوا عقولهم وتتبعوا أحوالهم فى صلاح الدين والاهتداء الى ضبط المال وحسن التصرف فيه • وتكون تجربتهم بما يليق بحالهم وصنعتهم • فان كانوا من أهل التجارة فأعطوهم من المال مايتصرفون فيه بيعاً وشراء • وان كانوا ممن له عقارات وأهل وخدم فأعطوهم من المال مايصرفونه في نفقة عبيدهم وخدمهم وسائر مصارفهم • وان كانوا من أهل الزراعة فاختبروهم في أمر المزارعة والانفاق على القوّام بها • وان كانوا من أهل الحرف والصنائع فاختبروهم بما يتعلق بحرفهم • وان كانوا نساء فاختبروهم في أمور بيوتهن المتعلقة بالنساء ولا تكفي المرةُ الواحدةُ في الاختبار بل لابدّ من مرتين فأكثر حتى يتبين لكم كيفية أحوالهم وهذا كله قبل البلوغ ﴿ حتى اذا بلغوا النكاح ﴾ أي حدّه وأوانه ﴿ فان آنستم ﴾ أي فان شاهدتم وعلمتم ﴿ منهم رشداً ﴾ أي اهتداء الى طرق التصرفات من غير عجز وتبذير ﴿ فادفعوا اليهم ﴾ أي الى

اليتامى ﴿ أموالهم ﴾ من غير تأخير عن حد البلوغ ﴿ ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ﴾ أي ولا تأكلوا أيها الأولياء أموال اليتامى لإسرافكم ومبادرتكم مخافة كبرهم . فتفرطون في الانفاق منها وتقولون نُنفق منها كما نشتهي قبل أن تكبرَ اليتامى فيأخذونها من أيدينا ﴿ ومن كان ﴾ منكم أيها الأولياء والأوصياء ﴿ غنياً ﴾ عنها ﴿ فليستعفف ﴾ أي فليتنزّه عن الأكل منها وليقنع بما آتاه الله تعالى من الغني والرزق رِفقاً باليتيم وشفقةً على ماله . (ومن كان) منكم ﴿ فقيراً فليأكل ﴾ منها ﴿ بالمعروف ﴾ أي بقدر حاجتهِ الضرورية وأجرة سعيه وخدمته فقط . لأنّ الله تعالى نهى في الآية عن الإسراف فقط وهو يفيد أن للولي أن يأكلَ منه بقدرِ حاجته . ولا سيما اذا كان فقيراً . وأيضاً فقد روي أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم انّ في حجري يتيماً . أفآكلُ من ماله . فقال له (بالمعروف غيرَ متأثلٍ مالاً ولا واقٍ مالك بماله) فقال الرجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم أفأضربه فقال له عليه الصلاة والسلام (مما كنتَ ضارباً منه ولدَكَ)واعلم أن الله تعالى جعل تسليم السفهاء أموالهم موقوفاً على وجود شرطين فيهم . أحدهما بلوغُ أوانِ النكاح . وثانيهما إيناس الرشد ووجوده بهم . فأما بلوغُ النكاح في الشخص فهو أن يحتلم . لأن الاحتلام بصلح الشخص عند حصوله للنكاح ولطلب ما بطلب به النكاح وهو التوالد وتمام الاحتلام يكون بخروج المنيّ . أو ببلوغه خمس عشرةَ سنة تامة وأما الايناس فالمراد به في الآية الكريمة العلم والعرفان وفى اللغة هو الابصار والرؤية

﴿ فاذا دفعتم ﴾ أيها الأولياء ﴿ اليهم ﴾ أي الى اليتامي ﴿ أموالهم ﴾ بعدماراعيتم الشرطين المذكورين ﴿ فأشهدوا عليهم ﴾ بأنهم قد تسلموها بالقبض وبرئت عنها ذممكم • وظاهر هذا الأمر للوجوب • وأيضاً فالولي أمين من جهة الشرع لامن جهة اليتيم • وليس له نيابة في الشرع عامة كالقاضي وليس له أيضاً كمال الشفقة كالأب • فحينئذ لا يصدق في دعواه باليمين فقط بل لابد من البينة • ولا يكتفي باليمين في تصديقه الا فى قدر النفقة وفي عدم التقصير والاسراف والانفاق • لأن اقامة البينة علي ذلك متعسرة • ويكون فيها تنفير الناس عن قبول الوصايا ﴿ وكفى بالله حسيباً ﴾ أي محاسباً فلا تخالفوا ما أمركم به ولا تتجاوزوا ماحده لكم •

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً ﴾

قال ابن عباس رضي الله عنهما سبب نزول هذه الاية الكريمة أن اوس بن ثابت الأنصاري توفي وترك امرأة يقال لها أم كحة

وترك ثلاث بنات له منها . فقام رجلان أحدهما يسمى سويداً . وثانيهما يسمى عرفجة . وكانا ابني عم الميت ووصييه . فأخذا ماله ولم يعطيا امرأته ولا بناته شيئاً من ماله . وكانوا في الجاهلية لا يورّثون النساء ولا الصغير من الأولاد وان كان ذكراً . وانما يورّثون الرجال الكبار . وكانوا يقولون لا يعطى من التركة الا من قاتل على ظهور الخيل . وحاز الغنيمة . فجاءت أم كحة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالت يا رسول الله ان أوس بن ثابت مات وترك لي بنات وأنا امرأته . وليس عندي ما أنفق عليهن . وقد ترك أبوهن مالاً حسناً وهو عند سويد وعرفجة . ولم يعطياني ولا بناته شيئاً من ماله . فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمها في هذا الأمر فقالا يارسول الله ان ولدها لا يركب فرساً ولا يحمل كلاً ولا ينكي عدواً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله لي فيهن فانصرفوا . فأنزل الله تعالى هذه الآية وبين لعباده فيها أن الارث ليس مختصاً بالرجال الكبار . بل هو مشترك بين الرجال والنساء والأطفال فقال ﴿ للرجال نصيب ﴾ أي حظ ﴿ مما ترك الوالدان ﴾ المتوفيان ﴿ والأقربون ﴾ أي ومما ترك المتوارثون من الأقربين اذا ماتوا أيضاً ﴿ وللنساء نصيب ﴾ كائن ﴿ مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر ﴾ يعني أنه يجب على الفريقين جميعاً أخذ حقهما من التركة سواء كانت التركة قليلة أو كثيرة . ﴿ نصيباً مفروضاً ﴾ أي نصيباً مقدراً لا بد لهم أن يأخذوه . ثم لما نزلت هذه

الآية بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى سويد وعرفجة • وقال لهما (لا تصرفا من مال أوس شيئاً • فان الله قد جعل لهن أي لزوجته وبناته نصيباً • ولم يبين حتى يتبين في آية أخرى) فنزل قوله تعالى (يوصيكم الله في أولادكم) الى آخر الآيات التي سيأتي تفسيرها في الآية قريباً • فأعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجة الميت ثمن المال وأعطى البنات الثلثين وأعطى الباقي لابني عمه المذكورين • والحكمة في ذكره تعالى حكم الميراث مجملاً هنا ثم أتبعه بالتفصيل فيما بعد • هو أن الناس كانوا متعودين على اختصاص التركة بالرجال الكبار وحرمان غيرهم من النساء والأطفال . ولا يخفى أن منع النفس من الأمر الذي ألفته شديد شاق عليها وأن التدرج في الأمور شيئاً فشيئاً من دأب الحكيم • فلهذا أنزل الله الأحكام والتكاليف الشرعية شيئاً بعد شيء لسهولة الأمر على العباد • ولينقلهم عن تعوداتهم الغير الشرعية بالتدريج حتى كملت الشريعة الحقة وتم الدين الحنيفي

﴿ تابع لما قبله من الآية الشريفة ﴾

﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً ﴾

لما بين تعالى في الآية السابقة أن النساء لهن حظ من الميراث مثل الرجال وكان تعالى عالماً بأن الأقارب منهم من يرث ومن لا يرث

ولا يخفى أن الذين لا يرثون اذا حضروا وقت القسمة فان تركوا محرومين بالكلية ثقل ذلك عليهم فبين تعالى في هذه الآية الكريمة أن يدفع اليهم شيء من التركة عند قسمتها على المستحقين حتى يحصل الأدب الجميل وحسن العشرة فقال ﴿ واذا حضر القسمة ﴾ أي قسمة التركة ﴿ أولو القربى ﴾ أي أصحاب القرابة ممن لا يرث ﴿ واليتامى والمساكين ﴾ من الأجانب ﴿ فارزقوهم منه ﴾ أي فأعطوهم شيئاً من المال المقسوم ﴿ وقولوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ لهم ﴾ أي لأولى القربى الذين لا يرثون ولليتامى والمساكين الذين هم من الأجانب ﴿ قولاً معروفاً ﴾ أي كلاماً جميلا وهو أن يدعوا لهم ويستقلوا ما أعطوه اليهم ويعتذروا لهم من ذلك ولا يمنوا عليهم ثم ان اعطاء هؤلاء الضعفاء يكون مستحباً اذا كانت الورثة كباراً وأما اذا كانوا صغاراً فلا يستحب اعطاء شيء لهم من التركة ولا يستحب لهم الا القول المعروف فقط كأن يقول لهم ولي الورثة الصغار انى لا أملك هذا المال وانما هو لهؤلاء الضعفاء الذين لا يعرفون ما عليهم من الحق واذا بلغوا مبلغ الكبار من العقلاء فسيعرفون حقكم.

﴿ تابع لما قبله من الآية الشريفة ﴾

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾

ثم انه تعالى حثّ الأوصياء في هذه الآية الكريمة على أنهم يخافون الله ويراقبونه في أمر اليتامي الذين تحت رعايتهم وأن يخافوا عليهم كخوفهم على ذريتهم اذا ماتوا وتركوهم ضعافاً فقال ﴿ وليخش ﴾ أي وليخف الله تعالى الأوصياء ﴿ الذين ﴾ من صفتهم وحالهم أنهم ﴿ لو تركوا من خلفهم ﴾ أي من ورائهم اذا ماتوا ﴿ ذرية ضعافاً ﴾ أي أولاداً صغاراً ﴿ خافوا عليهم ﴾ من الضياع والاهانة ﴿ فليتقوا الله ﴾ في أمر اليتامي الضعفاء وليفعلوا بهم مايحبون أن يُفعل بأولادهم الضعفاء بعد وفاتهم . وانما حثهم الله تعالى على التقوى بعد ما حثهم على الخشية مراعاةً للمبدء والمنتهى . لأنه لا نفع للخشية من غير التقوى . ثم انه تعالى نبه على الأوصياء بأن يقولوا لليتامي مثل مايقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الملاحظة فقال ﴿ وليقولوا ﴾ لليتامي الضعفاء ﴿ قولا سديداً ﴾ أي قولا صواباً . والغرضُ أنهم لايؤذُون اليتامي ويخاطبونهم كما يخاطبون أولادهم بالقول الجميل ويدعونهم يا بُنيَّ ويا ولدي . وانما نبه الله تعالى الاوصياء على حال أنفسهم وذريتهم لانهم اذا تصوَّروها وعلموا أنهم لو ماتوا وتركوا أولاداً صغاراً يكونون عليهم في اشتغال قلب وتغير حال . كما قال الشاعر

لَقَدْ زَادَ الْحَيَاةَ إِلَيَّ حبًّا

بَنَاتِي إِنَّهُنَّ مِنَ الضِّعَافِ

أُحَاذِرُ أَنْ يَرَيْنَ الْبُؤْسَ بَعْدِي
وَأَنْ يَشْرَبْنَ رَنْقاً بَعْدَ صَافِ

فاذا عرفوا تلك الحالة في أنفسهم وفي أولادهم نظروا الى حفظ مال اليتيم بعين العناية وتوجهوا اليه بعين الشفقة •

﴿ تابع لما قبله من الآية الشريفة ﴾

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً ﴾

ثم انه تعالى أكد الوعيد والزجر في أكل مال اليتامى ظلماً رحمةً منه تعالى بهم لأنهم لكمال عجزهم وضعفهم صاروا مستحقين منه تعالى مزيد العناية والكرامة فقال ﴿ ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً ﴾ أي على وجه الظلم من وُلاة السوء وقضاته • لا علي وجه المعروف ﴿ انما يأكلون في بطونهم ﴾ أي ملء بطونهم ﴿ ناراً ﴾ أي ما يجرّ الى النار ويؤدي اليها • وكأنه نارٌ في الحقيقة فقد روي أنه يبعث آكل مال اليتيم يوم القيامة والدخان يخرج من قبره ومن فيه وأنفه وأذنيه وعينيه • فيعرف الناس أنه كان يأكل مال اليتيم في الدنيا •

قال النبي صلى الله عليه وسلم

(يبعث الله تعالى قوماً من قبورهم تتأجج أفواههم ناراً) * فقيل من هم يا رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام (ألم تر أن الله يقول (ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً انما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً) أي وسيدخلون ناراً هائلة مبهمة الوصف لا يعلم شدتها الا خالقها • ولا شك أن هذا الوعيد في غاية الشدة • وهذا من كمال عنايته تعالى بالضعفاء • فنرجو من كمال فضله أن يرحم ذلنا وضعفنا بعزته وقوته * انتهى *

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا * وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ

قِنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعضٍ وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً *

اعلم أن الله تعالى شرع في نهي المؤمنين عما كانوا عليه في الجاهلية من إيذاء النساء بصنوف من العذاب وضروبٍ من البلاء والعقاب . وذلك كان منقسماً الى أنواعٍ . النوع الأول مذكور في قوله تعالى (يا أيها الذينَ آمنوا لا يحلُّ لكم أن ترثوا النساء كرهاً) كان الرجل في الجاهلية اذا مات قريبه يلقي ثوبه على امرأة ذلك الميت أو على خبائها . ويقول ورثت امرأته كما ورثت ماله . فيصير بذلك أحقَّ بها من كل أحد . ثم ان شاء تزوجها من غير صداق سوى الصداق الأول . وان شاء زوجها لغيره وأخذَ صداقها ولم يعطها منه شيئاً وان شاء ضيق عليها لتفديَ نفسها بالمال الذى ورثته من زوجها الميت . وان ذهبت المرأة الى أهلها قبل إلقاء الثوب عليها فهي أحقُّ بنفسها ولا سبيل لأحد عليها . فنهاهم الله عن ذلك بقوله ﴿ لا يحلُّ لكم أن ترثوا النساءَ ﴾ أي تأذوهن وتحوزوهن بطريق الارث على زعمكم كما تحوزون المواريث وهن كارهات لذلك . النوع الثاني من الأنواع التى نهى الله عن فعلها في حق النساء هو أن الرجلَ من الجاهلية كان اذا تزوَّجَ امرأةً وهو كاره لها حبسها مع سوءِ العشرةِ والقهر وضيقَ عليها لتفتديَ منه بمالها وتختلع . فنهاهم الله

عن ذلك بقوله ﴿ولا تعضلوهن﴾ أي ولا تحبسوهن وتضيقوا عليهن أيها الأزواج ﴿لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ من الصداق . وذلك لأجل أن يدفعن اليكم بعضه اضطراراً فتأخذونه منهن مع أن الأخذ حينئذ حرام عليكم ولا يحل لكم الأخذ ﴿الا أن يأتين بفاحشة مبينة﴾ أي بينة القبح من النشوز وسوء الخلق وإيذاء الزوج وايذاء أهله بالتطاول والشتم . فان السبب حينئذ في التضييق يكون من جهتهن وليس من جهتكم . فيكون لكم العذر في طلب الخلع وحل الأخذ حينئذ

النوع الثالث من التكاليف المتعلقة بأحوال النساء . النهي عن اساءة العشرة معهن وذلك مذكور في قوله تعالى ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ أي بالوجه الذي لا ينكره الشرع والمروءة . وذلك يكون بالقول الجميل والانصاف فى المبيت والنفقة . ﴿فان كرهتموهن﴾ وسئمتم من صحبتهن بمقتضى الطبع من غير أن يقع من جهتهن مايوجب ذلك من النشوز وسوء الخلق ونحوهما . فلا تفارقوهن بمجرد كراهة النفس واصبروا على معاشرتهن ﴿فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ أي فلعل أن يكون لكم في الأمر الذى تكرهونه خير كثير لم يوجد في الأمر الذي تحبونه . فمن الخير الكثير أن يحصل لكم الثناء في الدنيا بحسن الوفاء وكرم الأخلاق ومنه أنكم تفوزون بثواب الآخرة بسبب صبركم على مخالفة الهوى . ومنه أنه يحصل لكم ولد نجيب ومال كثير . اذ ربما تكون صحبتها سبباً في زيادة البركة . النوع الرابع من التكاليف المذكورة النهي عما كانوا يفعلونه

في الجاهلية من أن الرجلَ منهم كان اذا أراد التزوج بامرأة أخرى رمى زوجته الأولي بالفاحشة حتى يلجئها الي الافتداء منه بالمهر الذي أعطاها إياهُ ليدفعه في صداق المرأة التي يريدها . فنهاهم الله عن ذلك بقوله تعالي ﴿ وان أردتم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ استبدالَ زَوْجٍ ﴾ أى التزوُّج بامرأة ترغبون فيها ﴿ مكانَ زَوْج ﴾ ترغبون عنها وتطلقونها ﴿ وآتيتم ﴾ أي وأعطيتم ﴿ احداهنّ ﴾ أي إحدى الزوجات وهي التي تريدون أن تطلقوها ﴿ قنطاراً ﴾ أي مالاً كثيراً في صداقها ﴿ فلا تأخذوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ منه ﴾ أي من ذلك القنطارِ ﴿ شيئاً ﴾ يسيراً فضلا عن الكثير وفي هذه الآية دليل على جواز المغالاة في المهر وعلى آن المراد بالاتيان هو التزامُ وقوعِ العقد على ذلك المهر سواء دفع المال اليها أم لا . واعلم أن النشوزَ ان كان من جهة الزوجة فيكونُ أخذُ مالِ الخلع منها حلالا . وان كان من جهة الزوج لم يكن أخذه منها حلالا . الا أن الخلع يثبت مِلكه لذلك المال وان كان أخذه غير جائز . ونظيرُ ذلك هو البيع وقت نداءِ الجمعة . فانه منهي عنه ولكنه يفيد ملكَ المبيع . ثم قال الله سبحانه وتعالى منكراً عليهم وموبخاً لهم ﴿ أتأخذونه ﴾ أي لا يليقُ أن تأخذوا هذا المال منهنّ ﴿ بهتاناً ﴾ أي ظلماً ﴿ واثماً مبيناً ﴾ أي ظاهراً . ثم قال الله سبحانه وتعالي متعجباً من هذا الأخذ على سبيل الاستفهام الانكاريّ ﴿ وكيف تأخذونه ﴾ أيها المؤمنون ﴿ وقد ﴾ أي والحال أنه قد ﴿ أفضى بعضكم الي بعض ﴾ أي وقد جرى بينكم و بينهن أحوالٌ منافية لذلك

الأخذ . وتلك الأحوال هي الخلوة بهن والوطء وتقرر المهر وثبوت حق خدمتهن لكم وغير ذلك ﴿ وأخذن منكم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ ميثاقاً غليظاً ﴾ أي عهداً وثيقاً وهو حق الصحبة والمعاشرة . ويجوز أن يكون المراد بالميثاق الغليظ هو ما أوثق الله تعالى به على الرجال في شأن النساء بقوله تعالى (فامساك بمعروف أو تسريح باحسان) أو يكون المراد به أيضاً ما أشار اليه النبي عليه الصلاة والسلام بقوله اتقوا الله في النساء . فانكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله *

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾

هذا هو النوع الخامس من التكاليف المتعلقة بأمور النساء . وهو بيان ما يحرم نكاحها من النساء وما لا يحرم نكاحها . وقد شرع تعالى في بيان ما يحرم نكاحها مبتدأ بزوجة الأب فقال ﴿ ولا تنكحوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ ما نكح آباؤكم ﴾ أي التي نكحها آباؤكم ﴿ من النساء ﴾ ويدخل في الآباء الأجداد فتحرم زوجة الجد وان علا بنص الكتاب واجماع الأمة . ويثبت هذا التحريم بمجرد عقد النكاح

اذا كان صحيحاً • وأما اذا كان عقدُ النكاح فاسداً فلا يثبت به هذا التحريم وحده بل لا بدّ معه من وجود الاجتماع أو ما يجري مجراه من التقبيل والمسّ بشهوة أو نحوهما • بل الوطء وما يشبهه هو المثبت في الحقيقة اذا لم يكن عقد النكاح صحيحاً • حتى لو وقع شيء من ذلك في رقيقةِ الأب والجدّ يثبتُ به التحريم• وكان أهل الجاهلية يتزوّجون بأزواج آبائهم فنهاهم الله عن ذلك في هذه الآية الكريمة وبين لهم فيها أنهم مؤاخذون بنكاح ما نكح آباؤهم من النساء ﴿ الا ما قد سلفَ ﴾ أي الا ما قد مضى قبل نزول هذه الآية فانه معفوٌّ عنه ثم بين الله تعالى أن هذا النكاح كان ممقوتاً عند العرب كما هو ممقوت عنده تعالى فقال ﴿ انهُ ﴾ أي ان هذا النكاح ﴿ كان ﴾ في علم الله وحكمه الازليّ وفي ملةِ الأُمم السابقةِ ﴿ فاحشة ﴾ أي قبحاً ﴿ ومقتاً ﴾ أي و بغضاً مقروناً باستحقار من يرتكبهُ • وهذا المقت اذا كان من الله تعالى فانه يدل على غاية الخزيِ والخسران ﴿ وساء سبيلا ﴾ أي و بئسَ هذا الفعل طريقاً • وهذا الذمُّ يفهم منه أن هذا الفعل في غاية القبح ومبغوضٌ أشدَّ البغض • وأنه لم يزل في علمه تعالى وحكمه موصوفاً بهذا الوصف ولم يرخص فيه لأُمة من الأُمم السابقة • قال بعضهم مراتب القبح ثلاثٌ • قبحٌ في العقول • وقبح في الشرع • وقبح في العادة • فالفاحشةُ في الآية اشارةٌ الى القبح العقليِّ لأن زوجةَ الأب نشبهُ الأُم فتكونُ مباشرتها من أفحش الفواحش • والمقت في الآية اشارةٌ الى القبح الشرعيِّ • وساء سبيلا اشارةٌ الى القبح

في العرف والعادة. وكلُّ فعل اجتمعت فيه هذه المراتب الثلاثة فقد بلغ الغاية في القبح فيكون نكاح زوجة الأب من هذا القبيل. لأن هذه المراتب قد اجتمت فيه * انتهى

﴿ تابع لما قبله من الآية الكريمة ﴾

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ ٱللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ ٱلرَّضَاعَةِ * وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ ٱللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ ٱللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ * فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ * وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ * وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَٱلْمُحْصَنَاتُ مِنَ ٱلنِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ

مُسَافِحِينَ * فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً * وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ﴾

ثم انه سبحانه وتعالى نص على تحريم أربعةَ عشرَ صنفاً من النساء سبعةٌ من جهة النسب ، وهي الأمهاتُ والبناتُ والأخواتُ والعمات والخالات وبنات الأخ وبنات الأخت . وسبعة أخرى لاتحرم من جهة النسب بل اثنانِ منها يحرمان من جهة الرَّضاعِ . وهي الأمهات من الرضاع والأخوات من الرضاعة وأربعٌ منها تحرُمُ من جهة المصاهرة وهي أمهات النساء وبنات النساء بشرط الدخول بالأم وأزواج الابناء وأزواج الآباء اللاتى مرَّ تحريمها في الآية المتقدمة . والجمع بين الأختين والمحصنات من النساء . وهذا هو الصنفُ السابع من الأصناف التى لاتحرُمُ من جهة النسب وانما حرمتها من جهة عدم خلوها من النكاح ، وليس المرادُ من الآية تحريم ذواتهن ، بل المراد تحريم نكاحهن وتحريم ما يقصد به النكاح من التمتع بهن ، كما قال تعالى ﴿ حرمت عليكم ﴾ أيها المؤمنون الذين حضرُوا هذا الخطاب بالذات والذين لم يحضروه بالتبعية ﴿ أمهاتكم ﴾ والأمُّ هي كلُّ امرأةٍ رجعَ نسبكَ اليها بالولادة من جهةِ أبيكَ أو من جهة أمكَ . بدرجةٍ كأم لأب وأمِّ الأم ، أو بدرجاتٍ كأم أمِّ الأب ، أو مافوقها ، وكأم

أمّ الأمّ أومافوقها • يعني أن كلّ امرأة ينتهي نسبك اليها بواسطة إناث أو بواسطة ذكور فهي أمك ﴿ وبناتكم ﴾ يعني أن كلّ أنثى رجع نسبها اليك بالولادة بدرجة • كبنتك أو بدرجات كبنت ابنك وان نزلَ • فهي بنتك وتحرم عليك سواء رجع نسبها اليك بواسطة ذكور كبنات الابن •أو بواسطة إناث كبنات البنت ﴿ وأخواتكم ﴾ وهذا يدخل فيه الأخوات من جهة الأبّ والأم أو من جهة الأب فقط . أو من جهة الأم فقط . واعلم أن تحريمَ الأمهات والبنات كان ثابتاً من زمان آدم الى هذا الزمان • ولم يثبت حلّ نكاحهن فى شيء من الأديان خلافاً لطائفة المجوس • وأما نكاح الأخوات فقد نقل أنه كان مباحاً في زمان آدم عليه السلام . وذلك لعدم وجود نساء أجنبيات • فكانت أباحتهن للضرورة • ثم قال العلماء ان السبب في تحريم الأمهات والبنات هو أن الوطءَ إذلالٌ وإهانةٌ • فلا يليق ذلك بأصل الانسان الذي هو أمهُ ولا بجزئه الذي هو بنته ﴿ وعماتكم ﴾ يعني أن كلّ ذكر رجع نسبك اليه فأخته تكونُ عمتك . وتحرم عليك وقد تكونُ العمةُ من جهةِ الأم وهي أختُ أبي أمك . ﴿ وخالاتكم ﴾ يعني أن كلّ أنثي رجعَ نسبك اليها بسبب الولادة فأختها خالتُكَ وتحرم عليك . وقد تكون الخالةُ من جهة الأب وهي أخت أمّ أبيك . ولا يحرم عليك أولاد العمات ولا أولاد الخالاتِ ﴿ وبناتُ الأخِ وبناتُ الأختِ ﴾ القولُ فيهما كالقول في بنت الصلب . ولما بين الله سبحانه وتعالى النساء اللاتي يحرُمن

من جهة النسب شرعَ في بيان اللاتي يحرُمن من جهة الرَّضاع فقال ﴿ وأمهاتكم ﴾ أي وحرمت عليكم أيهــا المؤمنون أُمهاتكم ﴿ اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرَّضاعة ﴾ وقد بين تعالى أن مرضعةَ الصبيِّ تستحق أن تكونَ أُمًّا له بسبب الرَّضاع فنزَّل تعالى الرَّضاعة منزلة النسب حتى سمى المرضعةَ أُماً للرضيع وسمى المشاركةَ له في الرَّضاع أختاً له . وهذا الحكم كله مختص بالنكاح فقط فلا يثبت به إرثٌ لأن سبب الارث النسب وكذا زوج المرضعةِ يسمى أباه وأبو ذلك الزوج وأمه يسميان جدين له . وأخته تسمى عمةً له . وكل ولد ولدَه ذلك الزوج من المرضعةِ أو من غيرها قبل الرضاع أو بعده فهو أخٌ لذلك الصبي الرضيع من أبيه وامهِ معاً أو من أبيه فقط . وامُّ المرضــعةِ تسمى جدته واختها تُسمى خالته . وكلٌّ من ولدَ لها من هــذا الزوج فهم إخوته وأخواته من أبيه وأُمه ومن ولدَ لها من غــيره فهم إخوته وأخواته لأُمه فقط . ومن ذلك قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم (يحرم من الرَّضاع ما يحرم من النسب) وأما من يحرمنَ على زوجِ المرضعة من جهة المصاهرة فقط فلا يحرمنَ على المرضعِ . واعــلم أن الرضاع المحرمِ قد يَسبقُ عقدَ النكاح فيمنع انعقاده . وقد يطرأ عليه فيقطعه كما اذا عقد الرجل على بنت لم تبلغ من العمر سنتين فأرضعتها امرأته فان النكاح ينقطع وتصير تلك الصغيرة بنته من الرضاع . واعلم أن للرضاعِ المحرّمِ شروطٌ الشرطُ الأول أن تكون المرضعةُ امرأةً حيةً بلغتْ سن الولادةِ . فلبنُ البهيمةِ لا يثبت بهِ تحريمٌ بين الذكر

والأنثي اللذين شربا وأما اذا كانت المرأةُ ميتةً لا يثبت بلبنها تحريم الشرط الثاني ان يكونَ اللبنُ الذي يثبت به التحريم ليس متغيراً بحموضةٍ أو انعقادٍ أو اغلاء أو باتخاذ زُبدٍ أو جُبنٍ منه • وكذلك اذا كان ذلك اللبنُ مخيضاً أو ثُردَ فيه طعام أو عجن به دقيقٌ أو خلط بمائع حلالٍ أوحرامٍ فانه لا يثبت به تحريمٌ • • الشرط الثالث أن يصل اللبن الى معدةِ الرضيعِ من ثدْي أمه بخلاف الحقنة • الشرط الرابع أن يكون الرضيع لم يبلغ من العمر حولين هلاليَّينِ فلا أثرَ للرضاع بعدهما • ثم انه لا يثبت التحريم الا بخمس رضعات متفرقات لقول النبى صلى الله عليه وسلم (لا تحرِّمُ المصةُ والمصتان ولا الرضعةُ والرضعتانِ) • ولما بين تعالى المحرمات من جهة الرضاع شرع في بيان المحرمات من جهة المصاهرة فقال ﴿ وأُمهات نسائكم ﴾ أي وحرمت عليكم أيها المؤمنون أُمهات زوجاتكم • والمراد بالنساء في الآية المنكوحاتُ على الاطلاق • سواء دخل بهن الزوجُ أم لا • فمتى عقدَ الرجلُ نكاح المرأة حرمت عليه أمها • فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سُئلَ عن رجل تزوَّج امرأةَ ثم طلقها قبل أن يدخل بها فقال عليه الصلاة والسلام (انه لا بأسَ بأن يتزوَّج ابنتها ولا يحلُّ له أن يتزَوج أمها) ويدخل فى الآية أمُّ الزوجة من جهة الرضاع وجداتها من جهة الأب والأمِّ • ﴿ وربائبكم ﴾ أي وحرمت عليكم أيها

المؤمنون ربائبكم أي بنات زوجاتكم من غيركم ﴿اللاتي في حجوركم﴾ أي اللاتي نشأنَ في تربيتكم وتحت حضانتكم . والتقييدُ بكون بنات الزوجات في حجور الزوج بناءٌ على الغالب . فان شأنهن الغالب المعتاد أن يكنَّ في حضانةِ أمهاتهن تحت حماية أزواجهن . وقد اتفق جمهور الأئمة على أن بنت المرأة من رجل آخر تحرُم على زوجها سواءٌ نشأت في تربيته أم لا فكأنه تعالى يقول حرمت عليكم أيها الرجال بنات الغير اذا كن وُلدنَ ﴿ من نسائكم ﴾ أي زوجاتكم ﴿ اللاتي دخلتم بهن ﴾ أي اللاتي واقعتموهن في الحلال ﴿ فان لم تكونوا ﴾ فيما مضى ﴿ دخلتم بهن ﴾ أي بنسائكم ﴿ فلا جناح عليكم ﴾ أي فلا حرج عليكم في نكاح بناتهن وهن الربائبُ . فظهر مما قلناه أن الرجلَ اذا عقد على المرأة ثم طلقها قبل الدخول فانه يجوز له التزويجُ ببنتها . وأما اذا عقد الرجل على المرأة فانه يحرُم عليه التزوج بأمها سواءٌ دخل بها أم لا . وهذا معنى قول الفقهاء العقدُ على البنات يحرِّم الأمهات والعقد على الأمهات لا يحرِّم البنات ﴿ وحلائلُ ﴾ أي وحرمت عليكم ايها المؤمنون حلائل اي زوجات ﴿ أبنائكمُ الذين من اصلابكم ﴾ فيخرج الولد الذي تبنّاه (١) الرجل ولم يكن من صلبه . فان زوجته لا تحرم عليه . وكان الولد المتبنى فى صدر الاسلام بمنزلة الابن . حتى نزلَ قوله تعالى فى سورة الأحزاب (وما جعل أدعياءكم أبناءَكم) وقال تعالى فيها ايضاً (لكيلا يكونَ على المؤمنينَ حرج فى ازواج

(١) تبنّاهُ أي رآه مثل ابنه وسماه إبناً له

ادعيائهم) وحكم الابن من الرضاع حكم الابن من النسب في تحريم زوجته على أبيه من الرضاع • واتفقُ الأئمـة على أن حرمة التزوج بحليلة الابن تحصلُ بمجرد عقدِ النكاح ولا تتوقف الحرمة على الدخول واتفقوا أيضاً على تحريم حليلة الابن على جده وأما جارية الابن فقد قال أبو حنيفة يجوز للأب أن يتزوجَ بها • وقال الشافعي لا يجوز • ﴿ وأن تجمعوا بين الأختين ﴾ أي وحرم عليكم أيها المومنون الجمع بين المرأةِ وأختها • والجمع بينهما يكون إما بالنكاح أو بالملك أو بهما معاً أما الجمع بينهما بالنكاح فانه لو عقد عليهما معاً فيكونُ نكاحهما باطلاً من أصله ولو عقد عليهما مرتباً بطل النكاح الثانى • لأن الدفع أسهل من الرفع • وأما الجمع بينهما بسبب ملكِ اليمين أو بسبب نكاح إحداهما وشراء الاخرى . فالأصح عند أكثر الصحابة والفقهاء أنه جائز الا أنه اذا واقع احداهما حَرُمَ عليه وقاع الثانية • ولا تزولُ هذه الحرمة حتى يزولَ ملكه عن الأولى ببيعٍ أو هبة أو كتابة أو عتق أو تزويجٍ • ويشترك في هـذا الحكم الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها • وخلاصـة القول في ذلك أنه يحرمُ الجمع بين كل امرأتين بينهما قرابة او رضاع يقتضي التحريم ﴿ الا ما قد سلف ﴾ اي الا ما قد مضى قبل نزول هذه الآيات الكريمة فانه مغفورٌ • ف ﴿ ان الله كان غفوراً رحيما ﴾ وقـد تقدم تفسير ذلك ﴿ والمحصنات ﴾ اي وحرمت عليكم المحصنات اي ذواتُ الأزواج ﴿ من النساء ﴾ فاذا كانت المرأة لها زوجُ فلايحلُ لرجلٍ آخر ان يتزوجها مادامت

في عصمة الزوج ﴿ الأ ماملكت ايمانكم ﴾ اي الأ ماملكتموه من من النساء اللاتي سبيتموهن في غزو الكفار[1] ولهن ازواج في دار الكفر فهن حلال لكم ايها الغزاة من المسلمين وقد روي عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه انه قال اصبنا سبايا يوم اوطاس لهن ازواج فكرهنا ان تقع عليهن . فسألنا النبي صلى الله عليه وسلم فقلنا يا رسول الله كيف تقع على نساء قد عرفنا انسابهن وازواجهن فنزلت (والمحصنات من النساء الأ ماملكت ايمانكم) فاستحللناهن ثم قال الله سبحانه وتعالى تأكيداً لتحريم المذكورات ﴿ كتاب الله عليكم ﴾ اي كتب الله عليكم تحريم هولاء النساء كتاباً وفرضه فرضاً ﴿ واحل لكم ﴾ ايها المؤمنون ﴿ ما وراء ذلكم ﴾ اي ما سوى هذه المذكورات بنص الكتاب او ببيان النبي صلى الله عليه وسلم وقد نص الله تعالى على تحريم غير هذه المذكورات في آيات اخرى فمنها

---

(١) فتبين من هذه الآية الكريمة أن التي يحل وطؤها بملك اليمين بدون عقد نكاح عليها هي التي أخذت من ضمن الغنائم في غزو الكفار فيجوز لمن وقعت في نصيبه وطؤها شرعاً واذا باعها لغيره يجوز له أيضاً وطؤها بدون عقد بخلاف ما عليه أهل زماننا الآن من شراء النساء اللاتي لم يثبت رقهن شرعاً بل هم أحرار فلا يجوز وطؤهن الا بعقد نكاح . لأنهن إما مأخوذات بالسرقة كالنساء السودانيات أو بالشراء من أهلهن كنساء السراكسة وغيرهم .

ان المطلقة ثلاثاً لا تحل الا بعد نكاح زوج آخر . ودليل ذلك قوله تعالى (فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره) . ومنها الحربية والمرتدة فلا يحلان ايضاً بدليل قوله تعالى (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) ومنها المعتدة فانها لا تحل ايضاً حتى تنقضي عدتها . بدليل قوله تعالى (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) ومنها ان من كانت في عصمته حرة فانه لا يجوز له أن يتزوج رقيقة باتفاق الأئمة . وأما من لم تكن في عصمته حرة فان لم يكن قادراً على نكاح الحرة جاز له التزوّج بالأمة باتفاقهم أيضاً . وان كان قادراً على نكاح الحرة فلا يجوز له التزوّج بالأمة . ومنها نكاح الزائدة على الأربع فانه لا يجوز بدليل قوله تعالى (فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع) . ومنها المرأة الملاعنة فانها لا تحل . لقوله صلى الله عليه وسلم (المتلاعنات لا يجتمعان أبداً) وانما بين الله تعالى لكم تحريم هذه المحرمات المعدودة وأحل لكم ما سواهن ﴿أن تبتغوا﴾ أي لأجل أن تطلبوا النساء ﴿بأموالكم﴾ أي بصرف أموالكم الى مهورهن في حال كونكم ﴿محصنين﴾ أي متعففين لأنفسكم عن الوقوع فيما يوجب اللوم ﴿غير مسافحين﴾ أي غير مرتكبين للزنا فانكم ان طلبتم النساء في حال ارتكابكم للفجور فقد ضيعتم أموالكم التى تعيشون بها وتصرفونها فيما لا يحل لكم فتخسروا دنيا كم ودينكم ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿فما استمتعتم﴾ أي فالذي استمتعتم ﴿به منهن﴾ أي من النساء المنكوحات كالجماع والعقد عليهن ﴿فآتوهن﴾ أي فاعطوهن

﴿ أجورهن ﴾ أي مهورهن في مقابلته ﴿ فريضة ﴾ أي مفروضة ولا يخفى أن الاستمتاع بالدخول بالمرأة يوجب لها كل المهر • والاستمتاع بعقد النكاح فقط يوجب لها نصف المهر • ثم اتفق الأئمة الأربعة على أن هذه الآية الكريمة واردة في النكاح المؤبد • وذهبت الشيعة الى أنها واردة في النكاح المؤقت ويسمى نكاح المتعة • وهو أن يستأجر الرجل المرأة بمال معلوم ليجامعها • وهو باطل باتفاق أهل السنة لأن جميع الأئمة اتفقوا على أن المتعة كانت مباحة في صدر الاسلام ثم نسخت • ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ ولا جناح عليكم ﴾ أي ولا اثم عليكم أيها المؤمنون ﴿ فيما تراضيتم به ﴾ من إسقاط بعض المهر أو الابراء منه • فظهر من هذا التفسير أن المهر اذا كان مقدراً بمقدار معين فلا حرج على المرأة في أن تسقط شيئاً منه عن الزوج أو تُبرئه منه بالكلية ﴿ من بعد الفريضة ﴾ أي من بعد فريضة المهر على الزوج ﴿ ان الله كان عليماً ﴾ بمصالح العباد ﴿ حكيماً ﴾ فيما شرع لهم من الأحكام فلا يشرعها الا على وفق الحكمة والصواب • انتهى ››

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾

وَٱللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ * فَأَنْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ * مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ * فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ * ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

اعلم أنه تعالى لما بين في الآيات السابقة من يحل من النساء ومن لايحل منهم وشرطَ المهر في نكاح من يحل فكان في ذلك بعضُ تضيق على العباد في الجملة . فوسع عليهم الأمر في هذه الآية الكريمة فقال ﴿ ومن لم يستطعْ منكم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ طولا ﴾ أي غني وسعةً في المال الى ﴿ أن ينكحَ المحصنات ﴾ أي الحرائر ﴿ المؤمنات ﴾ فكأنه تعالى يقول ومن لم يقدر منكم على نكاح الحرة ﴿ فما ﴾ أي فلينكح رقيقة من النوع الذي ﴿ ملكتْ أيمانكم ﴾ أى ملكتموه ﴿ من فتيانكم ﴾ أى من مملوكاتكم ﴿ المؤمنات ﴾ وليس المراد جارية من يريد التزوج . بل المراد جاريةُ غيره من اخوانه المؤمنين . فان الانسان لا يجوز له أن يتزوج بجارية نفسه[1] بل له وطؤها بملك اليمين بدون

(١) أى التى ملكها بنفسه بسبب الغزو في مقاتلة الكفار الحربيين أو اشتراها ممن ملكها من غنيمة الحرب المذكور

عقد نكاح فظهر من تفسير الآية الكريمة أنه يشترط في نكاح الأرقاء ثلاثة شروط . شرطان منها في نفس الناكح لهن . الأول أن يكون فاقداً لصداق الحرة . فاذا كان كذلك جاز له التزوج بالرقيقة لأن العادة في الأرقاء تخفيف مهورهن . لأنهن غير منقطعات لخدمة الزوج بالكلية . بل مشتغلات بخدمة ساداتهن . والثاني أن يكون خائفاً من الوقوع في الاثم الذي تؤدي اليه غلبة الشهوة . والثالث في نفس المنكوحة وهو أن تكون الرقيقة مملوكة لمسلم ومع ذلك تكون مؤمنة لا كافرة . أما اشتراط كونها مملوكة للمسلم فهو أن الولد تابع لأمه في الرق والحرية . فلو كانت الأمة مملوكة للكافر بصير ولدها رقيقاً مسلماً داخلاً معها في ملك الكافر ودخول المسلم في ملك الكافر لا يجوز . وأما اشتراط كون الرقيقة المنكوحة مؤمنة فلأنها لو كانت كافرة لجتمع فيها نقصان الكفر ونقصان الرق وهذا محظور . ثم قال الله تعالى ﴿ والله أعلم بإيمانكم ﴾ أي أنه تعالى أعلم منكم بمرتبتكم في الايمان الذي به تنتظم أحوال العباد . وعليه يدور فلاك المصالح في المعاش والمعاد . وليس له تعلق بخصوص الحرية والرق . فرب رقيقة يفوق إيمانها إيمان الحرائر . ﴿ بعضكم من بعض ﴾ أي كلكم أولاد آدم فلا تشمئز نفوسكم من التزوج بالأرقاء عند الضرورة . ويجوز أن يكون معناه كلكم مشتركون في الايمان وهو أعظم المقاصد . فاذا حصل الاشتراك فيه فلا تلتفتوا الى ما وراءه من الرق والحرية . فبين الله تعالى بهاتين الجملتين أن مناط

التفاضل ومدارُ التفاخر هو الايمان دون الأحساب والأنساب علي ما نطق به قوله جلَّ شأنهُ (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتعارفوا ان أكرمكم عندالله أتقاكم) ثم ان الله تعالى شرح لعباده كيفية نكاح الأرقاء فقال ﴿ فانكحوهن ﴾ أيها المؤمنون ﴿ بإذن أهلهن ﴾ أي بإذن مواليهنَّ ﴿ وآتوهنَّ ﴾ أي وأدوا اليهن ﴿ أجورَهنَّ ﴾ أي مهورَهن ﴿ بالمعروف ﴾ أي بالوجهِ الذي يقتضيهِ الشرعُ والعادة حتى لايقع منكم مطلٌ وضرارٌ في أداء المهر . فتلجؤوهن الى الاقتضاء والتحاكم . وقد استدلَّ الائمة بهذه الآية على أن نكاح الأمةِ بغير اذن سيدها باطلٌ . لأن التزوج بها يعطل على السيد أكثرَ منافعها فوجب أن لايجوز نكاحها الا باذنه ثم ان لفظَ القرآن مختصٌّ بنكاح الأمةِ . وأما الرقيقُ فقد ثبتت كيفية نكاحه بالحديث . وهو أنهُ لا يتزوج الا باذن سيده . فقد روي جابرٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهُ قال (اذا تزوج العبد بغير إذن سيده فهو عاهرٌ) (١) وقد اتفق الجمهور على أن مهر الأمة يدفع الى سيدها . لأن منافعها كانت قبل تزويجها مملوكةً للسيد . وقد أباحها لزوجِ الأمة بعقد النكاح . فوجب أن يستحقَّ المهرَ بدلها . وليس في قوله تعالى (فآتوهن أجورهن) ما يوجب كون المهر ملكاً لهنَّ . غاية الامر أن المهر لما كان ثمناً لبضعهن كان مضافاً اليهن لا

(١) أى عاص فعلى هذا يكون نكاحه باطلا مثل نكاح الأمة لعدم اذن السيد فى نكاح كل منهما

على سبيل التملك وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (العبد وما يملكه لمولاه) ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ محصنات ﴾ أى فانكحوهن حال كونهن محصنات أى عفيفات عن الزنا ﴿ غير مسافحاتٍ ﴾ أي غير متجاهرات به ﴿ ولا متخذات أخدانٍ ﴾ أى ولا متخذات أصدقاء لفعل الفاحشة سراً • وظاهر هـذه الآية يقتضي حرمةَ عقد نكاح الزواني من النساء • ولكن اتفق الاكثرون على أن العقد عليهن جائز فتكون الآيةُ محمولة على الندب والاستحباب • وكان أهل الجاهلية يفرقون بين المتجاهرة بالفاحشة و بين المُسرة بها • فما كانوا يحكمون على المسرة بها آنهازانية • فلما كان هذا الفرق معتبراً عندهم أفردهما الله تعالى بالذكر تنصيصاً علي حرمتهما معاً • ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ فاذا أحصنّ ﴾ آي فاذا أُعففن عن الفاحشة بالزواج ﴿ فان أتين بفاحشةٍ ﴾ أى فن فعلن فاحشةً وهي الزنا بعد التزويج ﴿ فعليهن ﴾ أى فيثبت عليهن شرعاً ﴿ نصف ما ﴾ يثبت (علي المحصنات) أى الحرائر الابكار ﴿ من العذاب ﴾ آي من الحد الذى هو جلد مائة • فنصفه يكون خمسين جلدة كما هو بهذا المقدار ثابت علي الارقاء قبل احصانهن بالتزوج • فبين الله تعالى آن الارقاء لا يتفاوت حدهن قبل التزوج و بعده • بخلاف الاحرار فان حد الزنا يختلف قبل التزوج و بعـده وقد تقدم ذلك في قسم الاوامر من سورة النور مفصلا ﴿ ذلك ﴾ آى نكاح الارقاء جائز ﴿ لمن خشي ﴾ آي لمن خاف ﴿ العنت ﴾ آي الوقوع في الاثم والهلاك ﴿ منكم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ وآن تصبروا ﴾

علي عدم نكاحهن متعففين كافين أنفسكم عما نشتهيه من المعاصي ﴿ خيرٌ لكم ﴾ من نكاحهن وان جوزناه لكم عند الضرورة . لما يترتب عليه من تعريض أولادكم للرقّ . ولان حق السيد في الرقيقة أقوى من حق زوجها . فلا تكون الرقيقةُ خالصة له في التمتع كخلوص الحرائر . ولان السيد يقدر على استخدامها كيف يريد في السفر والحضر ويقدر على بيعها لأى شخص . وفي هذا الأمر مالا مزيد عليه من اختلاف حال الزوج وحال أولاده . وذلك كله ذلٌّ وإهانةٌ ساريةٌ الى المتزوج بالارقاء . ولايليق بالمؤمنين الا العزةُ . وأيضاً فان الرقيقة ينبت مهرُها لمولاها فلا تقدر على التمتع به ولا على هبته للزوج فلا ينتظمُ أمرُ الزوج معها ولا أمر منزله . وقد قال النبيُّ عليه الصلاة والسلام (الحرائرُ صلاحُ البيت . والاماء هلاك البيت) ﴿ والله غفورٌ ﴾ أى بالغ النهاية في المغفرة فيغفرُ لمن لم يصبرْ عن نكاحهن . لما فيه من الامور المنافية لحال المؤمنين ﴿ رحيم ﴾ أى عظيمٌ في الرحمة . ولذلك رخص لكم أيها المؤمنون في نكاح الارقاء . عند الضرورة . انتهى

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ

عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾

ثم انه تعالى ذكر هذه الآيات لتقرير ماسبق من الأحكام . ولبيان كونها جارية على مناهج المهتدين من الأنبياء والصالحين فقال ﴿ يريد الله ﴾ إنزال هذه الأحكام ﴿ ل ﴾ أجل أن ﴿ يبين لكم ﴾ ماهو خفيٌّ عليكم من مصالحكم وطيب أعمالكم أو ماتعبدكم به من الحلال والحرام ﴿ ويهديكم سنن ﴾ أي مناهج الذين كانوا ﴿ من قبلكم ﴾ من الأنبياء والصالحين لتقتدوا بهم ﴿ ويتوب عليكم ﴾ اذا رجعتم اليه تعالى عما وقع منكم من التقصير والتفريط في باب نكاح الأمهات والبنات . وفي سائر المنهيات المذكورة في هذه الآيات . بل وفي مراعاة ما كلفكم به من الشرائع . فان المكلف قلما يخلو من تقصير يستدعي تداركهُ بالتوبة ﴿ والله عليمٌ ﴾ أي كاملٌ في العلم بالاشياء التى من جملتها ما شرعه لكم من الأحكام ﴿ حكيم ﴾ يراعي في جميع أفعاله الحكمة والمصلحة . ثم بين الله تعالى أن ماأراده كامل في المنفعة . وأن ما يريده الفجرةُ كامل في المضرة فقال ﴿ والله يريد أن يتوب عليكم ويريد ﴾ الفجرةُ ﴿ الذين يتبعون الشهوات ﴾ أي يأتمرون بها ﴿ أن تميلوا ﴾ عن الحق بموافقتكم لهم على اتباع الشهوات واستحلال المحرمات وتكونوا فجاراً مثلهم ﴿ ميلاً عظيماً ﴾ بالنسبة لمن

ارتكب خطيئةً قليلةً من غير استحلال لها • ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ بما مرَّ من الرُّخص حيث لم يحملكم مشاقّ التكاليف ﴿ وخُلقَ الانسانُ ضعيفاً ﴾ أي عاجزاً عن مخالفةِ هواهُ • غير قادر على مقابلة ماتدعو اليه نفسه وقواه • لأنه لايصبرُ عن اتباع الشهوات ولا يستخدمُ قُواه في مشاق الطاعات • ويجوز أن يكون معناه وخلق الانسان ضعيفاً في خلقته وعزائمه ودواعيه • أما ضعفهُ في الخلقة بالنسبة الى كثير من المخلوقات بل الى كثير من الحيوانات فهو ظاهر • ولهذا اشتدَّ احتياجه الى التعاون والأغذية والادويةِ والمساكن والملابس والزخارف والمعاملات الى غير ذلك من الضروريات • وأما ضعف عزائمه ودواعيه فهو أظهر من ضَعف خلقته • ولهذا لا يصبرُ على مشاقِّ الطاعات ولاعن الشهوات ولا سيما عن النساء • اللهمَّ أكرمنا بكمال العفةِ وأتحفنا بحصن الحماية انك على كل شيء قديرٌ • انتهى

قَالَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ ٱللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ

عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾

لما بين الله تعالى المحرمات المتعلقة بالنساء شرع في بيان المحرمات المتعلقة بالأموال والانفس فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ بالله ورسوله ﴿لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ أي لا يأكل بعضكم أموال بعض بالطريق الذي يخالف الشرع كالغصب والسرقة والخيانة والقمار وعقود الربا وغير ذلك من الأمور التي وردَ الشرع بمنعها في أخذ الأموال ﴿ إلاَّ أن تكونَ تجارةَ ﴾ أي الا أن تكون الأموالُ أموالَ تجارة صادرةٍ ﴿ عن تراضٍ منكم ﴾ أي عن توافق بينكم غير منهيٍّ عنه فان أكلها حينئذٍ جائزٌ . واعلم أن جميعَ الاموال التي يأخذها الشخص بنحو الهبة والارث وأخذ الصدقات والمهور كلها حلالٌ . وانما خص الله تعالى التجارة بالذكر من بين هذه الأشياء ونحوها . لان أكثر أبواب الرزق تتعلق بالتجارة . ويدخل تحت هذا النهي أكل مال الغير بالباطل . وأكل مال نفسه بالباطل ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ ولا تقتلوا أنفسكم ﴾ أي ولا يقتل أحدُكم نفسهُ كما يفعله بعض الجهلة حين ما يعرضُ له غمٌّ أو خوفٌ أو يأس مما يؤمله أو مرضٌ شديد فيرى أن قتل نفسه أسهلُ عليه . وهذا أمرٌ يؤديه الى غاية الحرمان . ويستوجب به غضب الرحمن . فقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنهُ أنهُ قال شهدنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة

خيبر . فقال النبي في شأن رجل يدّعي الاسلام هذا من أهل النار فلما حضرَ القتال قاتل ذلك الرجل قتالاً شديداً . فأصابتهُ جراح شديدةٌ فقيل له يارسول الله ان الرجل الذي قلت له أي في شأنه قريباً انهُ من أهل النار قاتل اليوم قتالاً شديداً وقد مات . فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم الى النار . فكادَ بعض المسلمين أن يشكَّ في عقيدته فبينماهم على ذلك اذْ قيل له صلى الله عليه وسلم ان الرجل لم يمت ولكن به جراحاتٌ شديدة . فلما جاء الليل لم يصبرْ على الجراح فقتل نفسهُ فأُخبرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بذلك . فقال الله أكبرُ أشهدُ أني عبد الله و رسوله

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

﴿ مَنْ تَرَدَّي مِنْ جَبَلٍ فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّي فِيهَا خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا . وَمَنْ تَحَسَّى سُماً فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَسمهُ فِي يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا . وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَتَوَجَّأُ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدًا مُخَلَّدًا فِيهَا أَبَدًا ﴾

فالواجب علي كل مؤمن اذا نزل به ما يكرههُ من غمٍّ أو خوف

أومرض شديد أن يصبر على ما أصابه ويفوض الأمر الى النافع الضار ﴿ ان الله كان بكم رحيماً ﴾ ولأجل رحمته نهاكم عما يضركم في الدنيا والآخرة ﴿ ومن يفعل ﴾ منكم أيها المؤمنون ﴿ ذلك ﴾ القتل وأكل الأموال بالباطل ﴿ عدواناً ﴾ أي تعدياً على الغير ﴿ وظلماً ﴾ على نفسه بتعريضها للعقاب ﴿ فسوف نُصليه ﴾ أي ندخله ﴿ ناراً ﴾ مخصوصة هائلة شديدة للعذاب ﴿ وكان ذلك ﴾ الادخال في النار العظيمة ﴿ على الله يسيراً ﴾ فان مَن حارب اللهَ بالمعاصي ورضي لنفسه بالهلاك فليس عذابهُ على الله عسيراً

تابع لما قبله من الآية الكريمة

﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً ﴾

اعلم أنه تعالى لما قدم ذكر الوعيد في الآية السابقة أتبعه بتفصيل ما يتعلق به فقال ﴿ ان تجتنبوا أيها المؤمنون ﴿ كبائر ما تنهون عنه ﴾ أي كبائر الذنوب التي نهاكم الله عنها ﴿ نكفر عنكم سيئاتكم ﴾ أي نغفر لكم ذنوبكم الصغائر ونمحها عنكم ﴿ وندخلكم ﴾ في الجنة ﴿ مدخلاً ﴾ أي مكاناً ﴿ كريماً ﴾ حسناً مرضياً . واعلم أن الذنوب بعضها من الكبائر وبعضها من الصغائر . وأن الله تعالى لم يميز جملة الكبائر عن جملة الصغائر . والحكمة في ذلك أنه تعالى قد بين في هذه

الآية أنّ الاجتناب عن الكبائر يوجب تكفير الصغائر • فلو عرف المكلف جميع الكبائر لاجتنبها فقط • وقدم متجاسراً على فعل الصغائر • وأما اذا عرف أن كلّ ذنبٍ فعله يجوز أن يكون من الكبائر يصيرُ هذا المعنى زاجراً له عن الذنوب كلها • ولا ينافي ذلك ما نصّ عليه صلى الله عليه وسلم من بعض الذنوب أنها كبيرة •

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

﴿ إجتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ الشِّرْكَ بِاللهِ وَالسِّحْرَ وَقَتْلَ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَأَكْلَ الرِّبَا وَأَكْلَ مَالِ اليَتِيمِ وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ وَقَذْفَ المُحْصَنَاتِ الغَافِلاَتِ المُؤْمِنَاتِ ﴾

فانه قد ذكر عند ابن عباس أن الكبائر سبعةٌ فقال هي الى السبعمائة أقرب • وقد قال العلماء ان الكبائر هي التى يَلحقُ صاحبها الوعيدُ الشديد بنص كتاب أو سنةٍ أو اجماعٍ • ثم ان جميع الكبائرِ مندرجةٌ تحت ثلاثة أشياء • أحدُها اتباعُ الهوى • وينشأُ منهُ البدعُ المحرمةُ والضلالات وطلبُ الشهوات وحظوظ النفس وحبها لترك الطاعات • وثانيها حبُّ الدنيا وينشأُ عنهُ القتل والظلم وأكل الحرام • وثالثها الاشتغال بغير الله وينشأُ عنهُ الشركُ به تعالى والرياء والنفاق وغيرها

قَالَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ ٱللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ * لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا ٱكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا ٱكْتَسَبْنَ * وَٱسْأَلُوا ٱللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ ٱللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾

ثم انهُ سبحانه وتعالى لما حث عباده على تطهير أعمال الجوارح وهو أن لا يقدموا على أكل الأموال بالباطل وعلى قتل الأنفس حثهم أيضاً على تهذيب الأخلاق الباطنة وهو الرضى بما قسم اللهُ لهم • لأنهم اذا لم يرضوا بذلك وقعوا فى الحسد • ومتى وقعوا في الحسد جرهم من غير شك الى أخذ أموال الناس بالباطل والى قتل النفوس وأما اذا رضوا بما قدره الله لهم فانه يمكنهم الاحتراز عن الظلم فى النفوس وفي الأموال • ولهذا نهاهم الله تعالى عن ذلك كله اجمالا فقال ﴿ ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم علي بعض ﴾ أي لا تتمنوا ماخص الله تعالى به بعضكم دون بعض من الأمور الدنيوية كالجاه والمال وغيرهما مما يجرى فيه التفاخر بينكم فان ذلك قسمةٌ من الله تعالى صادرةٌ عن تدبيره الأزلى اللائق بأحوال العباد المترتب على احاطته

بعظيم شؤونهم ودقيقها . واعلم أن مراتب سعادات العبد ثلاثة . الأولى نفسانية وهي نوعان . النوع الأول ما يتعلق بالقوة النظرية وهو الذكاء التام والمعارف الزائدة . والنوع الثاني ما يتعلق بالقوة العملية . وهو التحلي بالأخلاق الفاضلة كالعفة والشجاعة والحكمة . ومجموع هذه الأحوال هو العدالة . والثانية من مراتب السعادات بدنية . وهي الصحة والجمال والعمر الطويل مع اللذة والبهجة . والثالثة من مراتب السعادات هي الخارجة عن النفس والبدن وذلك مثل حصول الأولاد النجباء والصلحاء وكثرة العشائر وكثرة الأصدقاء وكثرة الأعوان وحصول الرئاسة العلية ونفاذ القول وكون الشخص محبوباً للخلق حسن السيرة بينهم مطاع الأمر فيهم . فهذه مجموع السعادات . وبعضها محض عطاء الله تعالى لا سبيل للكسب فيه وبعضها مما يظن أنها كسبي . ولكن متى تأمل العاقل وجده عطاء منه تعالى أيضاً في الحقيقة . فانه لولا تقوية الدواعي الى الكسب وازالة الموانع عنه وتحصيل الأسباب له والتوفيق اليها من الله تعالى لما نال العبد بكسبه سعادة واحدة فمن قوّى الله تعالى عزيمته بترجيح الدواعي الى الكسب وزال عنه الموانع من الكسب وأوجد له الأسباب فانه لا شك في نيله رتب السعادة الكسبية . ومن ضعفت عزيمته بسبب ضعف الدواعي الى الكسب واعترضته الموانع منه وانقطعت عنه الأسباب الخيرية فانه لا يمكنه أن ينال شيئاً منها أصلاً . واذا كان الأمر كذلك فلا فائدة في الحسد سوى الاعتراض على مدبر

الأمور سبحانه وتعالى • ثم ان السبب في الحسد هو أن الانسان اذا
شاهد أنواع الفضائل والغنى حاصلة لغيره ووجد نفسه خالية عن جميعها
أو عن أكثرها فحينئذ يتألم قلبه ويتكدر خاطره • وفي هذه الحالة
يحصل له أحد أمرين • فإما أن يتمنى زوال تلك السعادات عن ذلك
الغير • وإما أن لا يتمنى ذلك بل يتمنى أن يحصل له مثلها • أما الامر
الأول فهو الحسد المذموم • فان مدبر العالم وخالقه قد سبق في علمه
الأزلي ومشيئته أن يكون محسناً الى عبيده بالجود وافاضة أنواع
الكرم لمن شاء منهم على حسب حكمته فمن تمنى زوال ذلك عن
عبيده فكأنه اعترض على الله تعالى فيما علمه أزلاً وأراده لعبيده حين
خلق العالم وأوجد كل شيء • وأيضاً ربما اعتقد هذا الحسود في
نفسه أنه أحق بتلك النعم من ذلك الغير • فيكون هذا اعتراضاً آخر
عليه تعالى وقدحاً في حكمته وكل ذلك مما يوقعه في الكفر وظلمات
البدع • ويذهب عن قلبه نور الايمان • وكما يكون الحسد سبباً لفساد
الدين فكذلك يكون سبباً للفساد في الدنيا • لأنه يقطع المودة والمحبة
ويبدلها الى البغض والعداوة • فلهذا السبب نهى الله عباده عنه في
هذه الآية بقوله (ولا تتمنوا مافضل الله به بعضكم على بعض) فاذا
لم يكن فى الحسد فائدة سوى الاعتراض على مدبر الأمور • فيجب
على كل عاقل أن يعلم ويعتقد أنه تعالى فعال لما يريد لا يسئل عما
يفعل • وأن يرضى بما قسم له معتقداً أن ما قسم له هو خير له • ولو
كان المقسوم له غيره لكان وبالا عليه • كما قال الله تعالى (ولو بسط

الله الرِزْقَ لعباده لبغوْا في الارض ولكن ينزِّلُ بقدرٍ ما يشاء انهُ بعباده خبيرٌ بصيرٌ) انتهى • وفي الحديث القدسيّ عن الله عزوجل *

قال النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ مَن أستسلَمَ لِقضائي وَصبَرَ على بلائي وَشكرَ نَعْمائي كَتَبْتُهُ صدِّيقاً وبَعَثْتُهُ يومَ القيامةِ معَ الصدِّيقينَ * وَمَنْ لَمْ يَرْضَ بِقضائي وَلَمْ يَصبِرْ على بلائي وَلَمْ يَشكُرْ نَعمائي فَلْيَخرُجْ مِنْ أَرْضي وَسَمائي وَلْيَطْلُبْ رَبًّا سِوائي ﴾

ومما يؤكدُ هذا ما روي أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال (لا يخطب الرجل على خطبة أخيه ولا يسوم على سوم أخيه ولا تسأل المرأةُ طلاق أختها لتقوم مقامها فان الله هو رازقها) انتهي

والمقصود من كل ذلك المبالغةُ في المنع من الحسد الذي هو تمنى الشخص حصول نعمة الغير له • وأما اذا لم يتمن ذلك بل تمنى حصول مثلها له فمن العلماء من جوزه ومنهم من منعهُ قائلاً ان الانسان اذا تمني حصول مثل نعمة الغير له فربما أن تلك النعمة تكون مفسدةً في حقه في الدين ومضرة عليه في الدنيا • فلهذا قال المحققون لا يجوز للانسان أن يقول اللهم أعطني دارًا مثل دار فلان أو ملكاً مثل ملك فلان وما

أشبه ذلك • وان لم يكن هذا حسداً بل ينبغي أن يقول أللهم أعطني ما يكون صلاحاً في ديني ودنياي ومعادي ومعاشي • وقد روي عن الحسن رضي الله عنـهُ أنه قال لا يتمنّ أحد المال فلعل هلاكه في ذلك المال انتهي *

وسبب نزول هذه الآية ما ورد من روايات مختلفةٍ أن واحدة من النساء أتت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت يارسول الله ربُّ الرجال والنساء واحدٌ • وأنت الرسول الينا واليهم • وأبونا آدم وأمنا حواء • فماالسبب في أن اللهَ تعالى يذكر الرجال في كتابه ولا يذكرنا • فنزلت هذه الآية فقالت وقدسبقنا الرجال بالجهاد فمالنا من الاجر • فقال لها النبيُّ صلى الله عليه وسلم (ان للحامل منكن أجر الصائم القائم) فاذا اضربها الطلق لم يدر أحد مالها من الاجر • فاذا أرضعت كان لها بكل مصةٍ أجر إحياء نفس • فهذا هو السبب في تعليل النهي المتقدم بقوله تعالى ﴿ للرجال نصيب مما اكتسبوا ﴾ من نعيم الدنيا وثواب الآخرة • فينبغي أن يرضوا بما قسم لهم ﴿ وللنساء نصيبٌ مما اكتسبنَ ﴾ من نعيم الدنيا وثواب الآخرة • ويجوز أن يكون معـنى الآية الـكريمة لـكل فريق من الرجال والنساء جزاء ما اكتسبه من الطاعات • فلا ينبغي أن يضيع هذا الجزاء بسبب الحسد المذموم • فكأنه تعالي يقول لا تضـيعوا أيها الرجال والنساء ما ثبت لـكم من الجزاء بسبب تمنى ما ثبت لغيركم من عظيم النعمةِ ﴿ واسئلوا اللهَ ﴾ تعالى شيئاً ﴿ من فضله ﴾ أي من خزائن كرمه وسعة انعامه فان

عنده من ذخائر الانعام • مالا يفنيه مطالبُ الأنام • ﴿ ان الله كان بكل شيء عليماً ﴾ فهو العالم بما يكون صالحاً للسائلين • فيجب على السائل أن يقتصرَ على سؤال المجمل كأن يقول اللهم أعطني مايكون فيه صلاحٌ لمعاشي ومعادي ويفوضُ التفصيل اليه كاللهم أعطني منزلاً أو غنيً أو جاهاً وغير ذلك لان ذلك أقرب الى الأدب وأوفقُ للطلب وأليقُ بشأن الالوهية * اللهم احفظنا من آفةِ الحسد ودواعيه • ووفقنا لما يكون الخير والمصلحة فيه • بجاه المصطفى وعترته وتابعيه • آمين

﴿ تابع لما قبله من الآية الشريفة ﴾

﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضاً فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحاً وَالصُّلْحُ خَيْرٌ * وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

اعلم أن الله تعالى جعل ترتيبَ هذا الكتاب الكريم واقعاً على أحسن الوجوه • وهو أنه تعالى جرتْ عادتهُ في هذا الترتيب العجيب أن يذكرَ شيئاً من الاحكام الشرعية ثم يذكر بعده جملةً عظيمةً من الايات الدالة على الوعد والوعيد والترغيب والترهيب • ويذكر في خلال ذلك آيات دالة على كبريائهِ وجلال قدرته وعظمة

أولوهيته . ثم يعود ثانياً الى بيان الاحكام الشرعية . ولا شك أن هذا أحسن أنواع الترتيب وأقربها الي التأثير في القلوب . وذلك لان التكليف بالاعمال الشاقة لا يقع في موقع القبول الا اذا كان مقروناً بالوعد والوعيد . ولا يخفى أن الوعد والوعيد لا يحصل منهما تأثير في القلب الا اذا كانا صادرين ممن هو مقطوع بغاية كماله . وقد بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة مالم يبينهُ في الاحكام التى سبق ذكرها في حق النساء فقال ﴿ وان امرأةٌ خافتْ ﴾ أي علمت أو ظنت ﴿ من بعلها ﴾ أي من زوجها ﴿ نشوزاً ﴾ أي تباعداً عنها وترفعاً عن صحبتها كراهةً لها ومنعاً لحقوقها ﴿ أواعراضاً ﴾ عنها بقبح وجهها وقلةِ محادثتها واساءةِ عشرتها ﴿ فلا جناح ﴾ أي فلاحرج ﴿ عليهما ﴾ حينئذ في ﴿ أن يصلحا بينهما صلحاً ﴾ على أن تطيب المرأة له نفساً عن القسمة فيما اذا كان متزوجاً لها ولغيرها أو عن النفقة أو عن كل المهر أو بعضه . فان هذه الامور هي التى تقدرُ المرأةُ علي طلبها من الزوج ويجب عليه الوفاء بها . وأما الوقاع أي الجماع فليس كذلك لأن الشرع لا يجبر الزوج عليه . فبين الله تعالى أن المرأةَ اذا علمت من زوجها كراهةً لها واعراضاً عن صحبتها . فانه يجوز لها الصلح معهُ على ترك المهر أو بعضه له أو ترك ما يخصها من القسمة كما فعلتْ سودةُ بنت زمعةَ حين أراد أن يفارقها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم . وهي تكره ذلك . فعرفت منزلة عائشةَ في الحب عنده فوهبت لها يومها . والمقصود أن المرأة الخائفةَ من نشوز الزوج تفعل معهُ ما يستميل به قلبهُ اليها من

اسقاط مهر أو هبة شيء من المال أو نحو ذلك . ثم قال الله سبحانهُ وتعالى ﴿ والصلح خيرٌ ﴾ من الفرقة أو من الخصومة في كل شيء . ﴿ وأحضرت الانفس الشحَّ ﴾ أي وجُعلت النفوس البشريةُ حاضرةً للشح مطبوعة عليه لا تنفك عنه أبداً . فلا تسمح المرأة بترك حقوقها للرجل ولا الرجل يجود لها بحسن المعاشرة مع قبح صورتها . وهذه الجملة الكريمة مسوقة لحث كلٍّ من الزوجين على الصلح المذكور وتحقيق له . و بيان ذلك أنَّ الرجل اذاشحتْ نفسهُ بحسن المعاشرة للمرأة ومالت عنها كان ذلك حاملا للمرأة على بذل بعض حقوقها اليه لاستمالةقلبه نحوها . وكذلك المرأة اذاشحت نفسها بحقوقها كان ذلك مما يحمل الرجل علي أن يقتنع من جهتها بالشيء اليسير . ولا يكلفها بذل الشيء الكثير فيسهل للطرفين بذلك الصلح . واعلم أنهُ تعالى رخص لعباده أولا في الصلح بقوله (لا جناح عليهما) . وغايةُ هذه الرخصة ارتفاعُ الاثم فقط . ثم بين ثانياً أن الصلح فيه خير كثيرٌ . ثم حثَّ على الاحسان والتقوى وقطعِ مادة الخصومة من أصلها فقال ﴿ وان تحسنوا ﴾ أيها الأزاج بالاقامة مع نسائكم وان كرهتموهن وأحببتم غيرهن ﴿ وتتقوا ﴾ النشوزَ والاعراضَ وما يؤدي الى الاذَى والخصومة الملجأة الى بذْل شيء من حقوقهن لكم . وتصبروا على ذلك مراعاةً لحق الصحبة ﴿ فان اللهَ كان بما تعملونَ ﴾ من الاحسان والتقوَى ﴿ خبيراً ﴾ فيجازيكم ويثيبكم عليه من غير شك . لأنهُ تعالى أخبرنا عن نفسه (أنه لا يضيع أجر المحسنين) . انتهى *

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ وَلَن تَستَطِيعُوا أَنْ تَعدِلُوا بَيْنَ النِّساءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلا تَمِيلُوا كُلَّ المَيلِ فَتَذَرُوهَا كَالمُعلَّقَةِ * وَإِنْ تُصلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكانَ اللهُ واسِعًا حَكِيمًا ﴾

ثم انه سبحانه وتعالى نهى عباده في هذه الآية الكريمة عن الميل الكلي المؤدّي الى الجور في حقوق النساء • وعرّفهم فيها أنهم لا يمكنهم العدلُ الكلي في حقهن فقال ﴿ ولن تستطيعوا ﴾ أي ولن تقدروا أيها الأزواج ﴿ أن تعدلوا بين النساء ﴾ في ميل الطباع بحيث لا يقع منكم أدنى ميل الى إحداهنّ في أمر من الأمور ﴿ ولو حرصتم ﴾ أي ولو تحفظتم كل التحفظ على إقامة العدل وبذلتم فيه جهدكم ﴿ فلا تميلوا كلَّ الميل ﴾ أى فلا تجوروا على المرأة كل الجور لكراهتكم إياها بل اعدلوا في حقها قدر ما يمكنكم • فان عجزكم عن تمام العدل يصحح لكم عدم التكليف به ولا يرفع عنكم ما يمكنكم من مراتب العدل والانصاف فأتوا منه ما استطعتم بشرط ان تبذلوا فيه وسعكم وطاقتكم • ولا تمنعوا المرأة قسمتها ونفقتها وسائر حقوقها وحظوظها من

غير رضاً منها ﴿ فتذروها ﴾ أي فتتركوها ﴿ كالمعلقة ﴾ بين السماء والأرض لا على قرار . يعني أنها لا تسمى متزوجة ولا خالية من الزوج . فبين تعالى أنه يجوز التفريط في العدل الكلي في حقوق النساء . ويمتنع علينا الميل الكلي فيها لأن ذلك ناشئ عن شدة المحبة لاحداهن دون الأخرى . وذلك ميل قلبي معفو عنه قليلاً كان أو كثيراً . لأن القلب ليس في تصرف الانسان . وانما هو تحت مشيئة الرحمن . فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقسم بين نسائه فيعدل ثم يقول أللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك يعني المحبة لأن عائشة كانت أحب اليه من جميع نسائه .

قال النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ يَمِيلُ مَعَ إِحْدَاهُمَا * جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَحَدُ شِقَّيْهِ مَائِلٌ ﴾

ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وان تصلحوا ﴾ أيها العباد ما مضى من ميلكم وتداركوه بالتوبة ﴿ وتتقوا ﴾ ما قصرتم فيه من أمورهن بسبب الميل فيما يستقبل ﴿ فان الله كان غفوراً ﴾ يغفر لكم

ما أسرفتم فيه من الميل ﴿رحيما﴾ يتفضل عليكم برحمته ﴿ وإن يتفرّقا ﴾ أي وان يفارق كلٌّ من الزوجين صاحبه بأن لم يحصل بينهما وفاق بأي وجهٍ من الصلح وغيره ﴿ يغن اللهُ كلاًّ ﴾ أي يجعل الله كلَّ واحدٍ منهما مُستغنياً عن الآخر ويكفيه مهماته ﴿ من سَعته ﴾ أي من غناه وواسع رزقه سبحانه وتعالى • وفي ذلك زجرٌ لمن يفارق صاحبه من غير سبب يوجب الفرقة ﴿ وكان اللهُ واسعاً ﴾ أي مقتدراً على الرزق والفضل والرحمة ﴿ حكيما ﴾ أي متقناً في جميع أفعاله وأحكامه * أللهم وفقنا لما أمرت به من العدل وقنا من الميل وحفنا بالفضل • آمين (تكميلٌ) اعلم أن الله تعالى أمرَنا بالعدل في حق النساء ونهانا عن الميل فيه • وحيث أن الله تعالى أمرَ بالأول ونهى عن الثاني • فيجب العمل بما أمر به والاجتناب عما نهى عنه • ومَن حاد عن ذلك فلا شك أنهُ يَصلى ناراً هائلة كما أخبرَ الله سبحانه وتعالى في كتابه غيرَ مرةٍ لكنا نرى كثيراً من أهلِ زماننا هذا يجمعون بين الزوجتين بل الأربع زوجات ولا يرعون حقاً للعدالة التي أمرَ الله بها أصلاً • بل متى مالَ قلب أحدهم الى واحدةٍ منهن انشغلَ بها شغلا زائداً وأعرض عن حقوق غيرها • ولا شكَّ أن ذلك ميلٌ عن صراط الشرعِ الى صراط الضلالةِ • فاذا تأمل العاقلُ فيما قلناه • وتبصر في أبناء هذا الزمان علمَ يقيناً أنه يحرم التزوج بما زادَ عن واحدةٍ من النساء حيث أن العدل الذي أمرَ اللهُ به بين الزوجات متعسرٌ لا يمكن الإتيان به الا لمن وفقهم الله تعالى للقيام به وهم نادرون والنادر لاحكم له

• وفيما ذكرناه تذكرةٌ للعقلاء وتبصرةٌ للجهلاء • نعوذُ بالله من مخالفة أمره ومن وبال مقته وغضبه فانه لا يأمن مكرَ اللهِ الا القومُ الكافرون • انتهى

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا ﴾

اعلم أن الله تعالى خصَّ النصارى في هذه الآية الكريمة بالخطاب ونهاهم فيها عن الغلوّ والإفراط في الدين لما أفرطوا في شأن رفعة المسيح عليه السلام الى آن اتخذوه إلهاً مع أنه رسولٌ من الله اليهم . ثم حثهم الله تعالى في هذه الآية أيضاً على أنهم لايقولوا عليه تعالى الا الحق الذي سيأتي تفسيره . وأن ينزجروا عما هم عليه من سلوك طريق الضلال في دينهم فقال ﴿ يا أهلَ الكتاب ﴾ من

النصارى ﴿ لا تغلوا ﴾ أي لاتتجاوزوا الحدَّ ﴿ في دينكم ﴾ بالافراط في رفعة شأن عيسى عليه السلام وإدعاء أُلوهيتهِ ﴿ ولا تقولوا ﴾ أيها النصارى ﴿ على الله ﴾ تعالى ﴿ الا الحق ﴾ الذي بحقٌّ ويمكن أن يوصفُ به • وهو تنزيهه تعالى عن الحلول فى بدن انسانٍ واتخاذه لزوجةٍ واتخاذه لصاحبةٍ وولدٍ ﴿ انما المسيحُ عيسى بنُ مريمَ رسولُ الله ﴾ وليس ولداً له كما تقولون ﴿ وكلمتهُ ﴾ أي ومكونٌ وموجودٌ بكلمة الله تعالى وأمرهِ الذي هو(كنْ) من غير واسطة أبٍ ولا نطفةٍ ﴿ ألقاها ﴾ أي أوصلها ﴿ الى مريمَ ﴾ وحصلها فيها بنفخ ملكٍ من ملائكته وهو جبريل عليه السلام ﴿ وروحٌ منه ﴾ يعنى أنه عليه الصلاة والسلام طاهرٌ نظيفٌ فهو بمنزلة الروح فروحه من الأرواح الشريفةِ القدسيةِ العاليةِ • وانما أضافَ الله سبحانه وتعالى روحَ المسيح الى نفسه بقوله منه لأجل التشريف فقط • لا لكونهِ جزأً منه كما قالت النصاري • فقد حكي أنه كان للرشيد طبيب نصرانيٌّ حاذقٌ فاتفقَ أنه تناظرَ ذات يوم مع عليٍّ بن الحسين الواقدي المروزي فقال له إن في كتابكم مايدلُ على أن عيسى عليه السلام جزءٌ منه تعالى ثم تلا هذه الآية الى أن وصل الى قوله تعالى وروح منه يريد النصرانيُّ أن معنى قوله تعالى وروح منه أي جزءٌ منه • فقال له عليٌّ بنُ الحسين إذاً يلزمُ على هذا القول أنَّ قوله تعالى (وسخرَ لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه) أن تكونَ جميع تلك الأشياءِ المذكورةِ في هذه الآية أجزاءً لله • تعالى الله عن ذلك

علواً كبيراً . فانقطع النصراني عن المناظرة فأسلم وفرح الرشيد باسلامه فرحاً شديداً ووصل علياً بن الحسين بصلة فاخرة . ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ فآمنوا ﴾ أي فصدقوا أيها النصاري ﴿ بالله ﴾ وخصوه بالألوهية وحده ولا تشركوا به غيره ﴿ ورسله ﴾ أي وآمنوا برسله أجمعين وصفوهم بالرسالة ولا تخرجوا بعضهم عن الوصف بها بسبب وصفه بالألوهية كما وصفتم المسيح وجعلتوه إلهاً . مع أن الواجب عليكم أن تؤمنوا به كايمانكم بسائر الرسل ولا تجعلوه إلهاً ﴿ ولا تقولوا ﴾ الآلهة (ثلاثة) الله والمسيح ومريم . وهذا التفسير يدل عليه قوله تعالى (واذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله) . فدلت هذه الآية على أن النصاري يقولون ان الله والمسيح ومريم آلهة ثلاثة . واعلم أن مذهب النصاري مجهول جداً . والذي يتحصل منه أنهم أثبتوا ذاتاً موصوفة بصفات ثلاثة . الا أنهم وان سموها بالصفات فهي في الحقيقة ذوات بدليل أنهم يجوزون حلولها في عيسى وفي مريم بعد انتقالها من تلك الذات فيقولون ان هذه الصفات يجوز أن تفارق الذات وتحل في عيسى وفي مريم من غير تغيير لحقيقتها . فهم وان كانوا يسمونها بالصفات لكنهم يثبتون ذواتاً متعددة قائمة بأنفسها في الحقيقة . وذلك أنهم يقولون ان الله جوهر مركب من ثلاثة أقانيم . أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس . وبالجملة فلا نري مذهباً في الدنيا أشد ركاكة وبعداً عن العقل من مذهب النصاري وقد بينا بقية هذا الموضوع

في قسم الأوامر فراجعه ان شئت . ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ انتهوا ﴾ أيها النصارى واقصدوا أمراً ﴿ خيراً لكم ﴾ مما أنتم عليه من الاعتقادات البعيدة عن العقل السليم والطبع المستقيم المانعة لكم عن معرفة الإله الحق الذي ليس كمثله شيء . وليس هو الذي تزعمون أنه جوهر مركب من ثلاثة أشياء ﴿ انما الله إله واحد ﴾ أي منفرد بالألوهية منزه عن التعدد لا تركيب فيه بوجه من الوجوه ﴿ سبحانه ﴾ أي أسبحه تسبيحاً وأنزهه تنزيهاً من ﴿ أن يكون له ولد ﴾ فلا يتصل به عيسى اتصال الآباء بالابناء ولكن يتصل به من حيث انه عبده ورسوله وأوجده بأمره جسداً حياً من غير أب كما أوجد آدم من غير أم ولا أب وكما أوجد حواء من غير أم وكما أوجد كثيراً من مخلوقاته بلا أب ولا أم . وبيان ذلك أن الولد انما يتصور فيمن يماثله شيء ويلحقه فناء وعدم . والله تعالى منزه عن أمثال ذلك . فلا يتصور منه الولد بأي وجه . وقد أسرفت طائفة أيضاً سموا أنفسهم بالطبيعيين وزعموا أنهم علماء عقلاء مع أنهم أسوء حالاً من النصاري من حيث الاعتقادات الغير المعقولة فقالوا ان وجود مخلوق من بني آدم وغيرهم بدون أب ولا أم مخالف للطبيعة . فهل يمكنهم أن يجيبوا عن الطير الذي يخرج من البيض أي النوعين من البيض والطير أوجدته الطبيعة قبل الآخر . فأن قالوا أوجدت البيض قبل الطير نقول لهم كيف خلق البيض من غير أب وأم . وان قالوا أوجدت الطير قبل البيض نقول لهم ومن أين خرج هذا الطير قبل وجود البيض . فقولهم

المذكور هو الذي يخالفُ الطبيعة . لأنه لا فرق بين خلقة بني آدم وبين الطيور . ومن هنا يظهر للعاقل الحكيم أن الاله الواحد هو الخالق الحقيقي الذي يخلق مايشاء كيف يشاء . وأنه لا يمكن أن تدرك عقول البشر ذرّةً من أفعاله سبحانه وتعالى ﴿ له مافي السموات ومافي الأرض ﴾ من الموجودات خلقاً وملكاً وتصرفاً لايخرج عن ملكوته شيءٌ من الأشياء التي من جملتها عيسى عليه السلام فكيف يتوهم كونه ولداً له تعالى ﴿ وكفى بالله وكيلا ﴾ فاليه يوكلُ كل الخلق أمورهم وهو غنيٌ عن العالمين فكيف يتصور في حقه اتخاذ الولد الذي هو شأن العاجزين المحتاجين في تدبير أمورهم الى مَن يخلفهم ويقوم مقامهم انتهى . ثم قال الله سبحانه وتعالى

﴿ تابع لما قبله من الآية الكريمة ﴾

﴿ لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلّٰهِ وَلاَ الْمَلاَئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً ﴾

ثم انه سبحانه وتعالى لما أقام الحجةَ القاطعةَ على أن عيسى عبده وليس بولدٍ له أشار في هذه الآية الى أن الشبهةَ التي ادعت النصاري بسببها أن عيسى ابنُ الله هي أنه كان يخبر عن المغيبات ويأتي بخوارق

العادات من احياء الموتى وابراء الأكمه والأبرص . فأجاب الله تعالى عن هذه الشبهة رداً عليهم بقوله ﴿ لن يستنكف ﴾ أي لن يأنف ويمتنع ﴿ المسيح ﴾ بسبب ما أودع فيه من العلم والقدرة عن ﴿ أن يكون عبداً لله ﴾ تعالى مستمراً على عبادته وطاعته كما هو وظيفة العبودية بل ويعتقد أن ذلك أقصى مراتب الشرف ﴿ ولا ﴾ يستنكف ﴿ الملائكة المقربون ﴾ عن أن يكونوا عبيداً لله تعالى . فان الملائكة المقربين أعلى حالاً منه في العلم بالمغيبات لأنهم مطلعون على اللوح المحفوظ وأعلى حالاً منه في القدرة أيضاً لأن ثمانية منهم حاملون العرش مع عظمته الهائلة . ثم انهم لن يستنكفوا عن عبادة الله مع كمال حالهم في العلم والقدرة فكيف يستنكف المسيح عن عبادته بسبب ما أعطيه من القدر القليل الذي كان معه من العلم والقدرة . واعلم أن اليهود فرطوا في شأن المسيح ولم يقبلوه نبياً بل هموا بقتله فنجاه الله منهم . والنصارى أفرطوا في حبه فجعلوه ابن الله و بعضهم جعله الهاً . وهكذا جرت عادة الله تعالى في كل عبد أكرمه بالنبوة أو الولاية . فانه قد جعل حال الاولياء دائراً بين المحبة لبعض من الناس فيهم و بين البغض لآخرين منهم . فكل ولي من أوليائه تعالى له حالتان . فاما أن يسعى قوم في ترك احترامه وطلب أذيته . واما أن يسعى قوم بالزيادة في تعظيمه حتى أنهم يعتقدوا فيه ما ليس يرضى به . كالخوارج والزائغين من الشيعة . فان الخوارج يعتقدون عدم احترام سيدنا علي كرم الله وجهه . و ينقصونه غاية التنقيص . فبئس ما يعتقدون وحاشاه مما

يقولون ﴿ والله عليم بما يعملون ﴾ وأما الزائغون من الشيعة فقد أفرطوا في حبه حتى إن بعضهم جعله في درجة النبيِّ صلى الله عليه وسلم • و بعضهم بالغ في الافراط حتى جعله الهاً مثل عيسى عليه السلام والى هذه الطائفة أشار صلى الله عليه وسلم مخبراً عنهم بقوله مخاطباً للامام علي رضي الله عنه (ان طائفة من أُمتي تتغالى فيك كما تغالت النصارى في عيسى عليه السلام)

ثم ان ما وصل اليه المسيح عليه السلام من احياء الموتى وغيره من خوارق العادات كان بسبب غلبة جانب الروحانية عليه • وهذا الاستعداد الروحانيُّ الذي هو من كلمةِ الله مركوز في طبيعة الانسان فمن تخلص جوهرُ روحانيته من معدن بشريته في انسانيته يكون عيسى وقته • فيحيي الله تعالى بأنفاسه القلوبَ بل والأجسادَ الميتة ويفتح به آذاناً صُماً وعيوناً عمياً • فيكونُ في قومه كالنبي في أمته • وهذا سرٌّ مكتوم لا يصل الى فهمه الا من كشفَ اللهُ بصيرته بنور التوحيد • جعلنا الله وايا كم من أهله • ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ومن يستنكفْ ﴾ أي ومن يمتنع من جميع الكافرين ﴿ عن عبادته ﴾ أي عن طاعته تعالى ﴿ويستكبر ﴾ عنها ﴿ فسيحشرهم ﴾ أي فسيجمعهم يوم القيامةِ ﴿ اليه ﴾ تعالي ﴿جميعاً ﴾ حيث لا يملكون لأنفسهم شيئاً فحينئذ يعلمون علم اليقين مَنْ هو اللهُ الحقيقيُّ الذي كان يستحق العبادة • انتهى *

وسبب نزول هذه الآية ما رويَ أن وفد نجرانَ من النصارى

قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم لم تعيب صاحبنا • فقال لهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم ومن صاحبكم • قالوا عيسى فقال لهم وأي شيء أقول • فقالوا له تقول انه عبد الله • فقال لهم انه ليس بعارٍ أن يكون عبد الله قالوا بلى • فأنزل الله هذه الآيةَ مجيباً لهم وَرَداً لشبهتهم التى بيناها في أول تفسير هذه الآية الكريمة • انتهى *

أللهم اجعلنا ممن يؤمنون بك يا ألله و برسولك كمالَ الايمان • وقنا شرَّ الشبهاتِ الموجبةِ الى الطرد والحرمان يا مجيب يا رحمان *

﴿ الباب الرابع ﴾

﴿ في تفسير ما ورد في سورة المائدة من النواهي ﴾

قَالَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا * وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

اعلم أنه تعالى لما حرم الصيد على المحرم في الآية السابقة التى تقدم تفسيرها في قسم الأوامر من هذه السورة أكد هذا التحريم في هذه الآية بنهي المؤمنين عن مخالفة تكاليفه تعالى فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ﴾ أي لا تتهاونوا في الأمور التى جعلها اللهُ شعاراً وعَلَماً للنسك من مواقيت الحج ومرامي الجمار والمطاف والمسعي والأفعال التي هي علاماتُ الحاجِّ ويتميزُ بها المحرم عن غيره كالاحرام والطوافِ والسعيِ والحلق والنحر . والغرض نهي العباد عن التهاون في حرمة هذه الأمور وعن الاحالة بينها و بين المتنسكين بها وعن احداث ما يصدُّ الناس عن الحج في أشهره ﴿ ولا الشهر الحرام ﴾ أي ولا تحلوا أيها المؤمنون الشهر الحرام الذي هو شهر الحج بسفكِ دماء المسلمين فيه ﴿ ولا الهديَ ﴾ أي ولا تحلوا ما أُهدي الى الكعبة من إبلٍ أو شاء أو بقر بأن تتعرضوا له بالغصب أو بالمنع عن بلوغ محله ﴿ ولا القلائدَ ﴾ أى ولا تحلوا ذواتِ القلائدِ من الهدىِ وهي الابلُ التي قُلدت بنعل أو أطراف شجرٍ ليعلمَ الناسُ أنها هديٌ الى الكعبة متقربٌ به الى الله تعالى فلا يتعرض له أحد بسوءٍ ﴿ ولا ﴾ تحلوا قوماً ﴿ آمّينَ ﴾ أي قاصدينَ ﴿ البيتَ الحرام ﴾ أي زيارة البيت الحرام الذي هو الكعبة . فلا تصدوهم عن زيارته بأي وجه كان من وجوه

الأذي • فانهم اخوانكم المسلمون قصدوا البيتَ الحرام ﴿ يبتغون﴾
أي يطلبون ﴿ فضلاً ﴾ أى ثواباً ﴿ من ربهم ﴾ أي من خالقهم
﴿ ورضواناً ﴾ أى ويطلبون أن يرضى عنهم الله سبحانه وتعالى وهذا
حثٌّ شريفٌ من الله تعالى لعباده على تعظيم الشرائع بصدق الضمائر
وخصوصاً المؤمنين الذين قصدوا زيارةَ المحبوب • وشاهدوه بالقلوب
وخرجوا عن أوطانِ الأوزار • وسافروا عن ديار الأغيار • واشتغلوا
بالسير لاظهار معالم الدين والشريعة ومراسم آداب الطريقة والحقيقة
وعظموا الزمانَ والمكانَ والاخوانَ القاصدين كعبة الوصول الى الرحمن
وهمُ الذينَ أهدُوا للتقرب اليه تعالى نفوسهم • وقلدوها بأطراف
الشجرة الطيبة • ليأمنوا شرَّ أعدائهم الخبيثة ومكرهم ثم قال الله سبحانه
وتعالى ﴿ واذا حللتم ﴾ أي واذا أتممتم مناسكَ الحج ﴿ فاصطادوا ﴾
أى فلا حرج عليكم في الصيد الذي كان حراماً عليكم حال التلبس
بأركان الحجّ • ﴿ ولا يجرمنكم ﴾ أى ولا يحملنكم يا أصحاب محمدٍ
﴿ شنآن قوم ﴾ أي شدة البغض لقوم ﴿ أن صدّوكم ﴾ أي لأجل أنهم
منعوكم ﴿ عن ﴾ دخول ﴿ المسجد الحرام ﴾ يوم الحديبيةِ على ﴿ أن تعتدوا ﴾
عليهم • ثم لما كان الاعتداء غالباً لا يكونُ الا بطريق التعاون
والتظاهر حثهمُ الله تعالى بعد هذا النهي على التعاون في كل ما هو
من باب البرِّ والتقوي ومتابعة الأمرِ ومجانبة الهوي فقال ﴿ وتعاونوا ﴾
أيها المؤمنون ﴿ على البر والتقوى ﴾ أي على كل مايعد براً وتقوي •
وهذا يدخل فيه ما حثهم اللهُ عليه من العفوِ والصَّفح عما وقع من

القوم الذين منعوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابَهُ عن دخول مكة يوم الحديبية . ثم انه تعالى نهاهم عن التعاون في كل ما هو داخل في الظلم والمعاصي بقوله ﴿ ولا تعاونوا ﴾ أي ولا تتعاونوا ﴿ على الاثم والعدوان ﴾ أي على كل مايورثُ الاثم والتجاوزَ للحد . فكأنه تعالى يقول ان الباطلَ والاثم لا يليقُ بكم الاقتداء به والتعاون عليه بل اللائق للاقتداء به والتعاون عليه هو الخير والبرّ ومافيه تقوي الله سبحانه وتعالى ﴿ واتقوا الله ﴾ في جميع الأُمور التى من جملتها مخالفةُ ما ذُكر من الأوامر والنواهي فَ ﴿ ان اللهَ شديد العقاب ﴾ لمن لا يتقيه . فلا شكّ أنه تعالى يعاقبكم أيها المؤمنون ان لم تتقوه .

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللّٰهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذٰلِكُمْ فِسْقٌ * أَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ * الْيَوْمَ

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

ثم انه تعالى شرع في تفصيل المحرمات التى أشار اليها في أول هذه السورة بقوله الا ما يتلى عليكم فقال • ﴿ حرمت عليكم ﴾ أيها المؤمنون الميتةُ وهي الحيوان الذي فارقتهُ الروح من غير ذبحٍ شرعي• ثم قالت العقلاء ان الحكمةَ في تحريم الميتة هي أن الدم جوهرٌ لطيفٌ • فاذا مات الحيوانُ من غير ذبح احتبس الدم في عروقه وتعفنَ • فيحصلُ من أكله مضارٌ كثيرةٌ ﴿ والدم ﴾ أي وحرم عليكم أيها المؤمنون أكلُ الدمِ المسفوحِ أي السائل وأما الجامد وهو الكبد والطحال فانه يحلُّ ﴿ ولحم الخنزيرِ ﴾ أي وحرم عليكم أكل لحمِ الخنزيرِ ﴿وما أُهلَّ به لغير الله ﴾ وتقدمَ بيان ذلك في سورة البقرة ﴿ والمُنخنقة ﴾ أي وحرم عليكم الميتة التى ماتت بالخنق • وقد كانوا في الجاهلية يخنقون الشاةَ فاذا ماتت أكلوها • وقد تنخنق بحبل الصائد • وقد تدخل رأسُها بين غصنينِ في شجرة فتنخنق فتموت • فالميتة بالخنق اذاماتت بأي وجه من وجوه الخنق فهي حرام باتفاق الأئمة • ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ والموقوذَة ﴾ أي وحرم عليكم أكل الموقوذَة وهي التى قتلت بالضرب بالخشب ونحوه• ويدخل

فيها الحيوان الذي رُمِيَ ببندق الرصاص فمات لأنه مات ولم يسل دمه فحكمهُ في التحريم حكم المنخنقة والموقوذةِ . ثم قال الله سبحانه وتعالي ﴿ والمتردية ﴾ أى وحرم عليكم أكل المترديةِ وهي التى تردّت أى وقعت من علو الى سفلٍ أو وقعتْ في بئرٍ فماتت ﴿ والنطيحة ﴾ أي وحرم عليكم أكل النطيحة وهي التى نطحتها بهيمةٌ أخرى فماتت بهذا السبب . ولا يخفى أن هذه الأقسام الأربعةَ داخلةٌ في الميتة دخولَ الخاصِ في العامِ . وانما أُفردتْ بالذكر لمزيد البيانِ . ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وما أكلَ السبُعُ ﴾ أي وحرم عليكم أكل الحيوان الذي أكل منه السبع فمات . والمراد بالسبع كل ماله ناب قويٌ يعدو على الانسان ويفترسُ الحيوان كالأسد وما دونه . وفي هذا دليل على أن جوارحَ الصيد اذا أكلتْ مما صادتهُ لم يحل أكله ﴿ الا ما ذكيتمْ ﴾ أى الا ماأدركتم ذكاته وفيه بقية حياةٍ يضطرب اضطرابَ المذبوح بأن وجدتم له ذنباً يتحركُ أو رجلا تضطرب فذبحتموه فهو حلال . لأن ذلك دليلٌ على وجود الحياة المستقرة فيه . ثم قال سبحانه وتعالى ﴿ وما ذُبحَ على النصبِ ﴾ أي وحرم أكل الحيوان الذى ذُبح على النصب . وهي أحجارٌ كانت منصوبةً حول الكعبة وكان أهل الجاهلية يذبحون عليها الذبائح . ويعدون ذلك تقرباً منهم فنهاهم الله عن ذلك . ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وأن تستقسموا بالازلامِ ﴾ أي وحرم عليكم أن تطلبوا ما قُسم لكم من خيرٍ أو شر بالأزلام أي بالأقداحِ وذلك أن أهل الجاهلية كانوا اذا أرادَ أحدهم

سفراً أو تجارةً أو نكاحاً أو أي أمرٍ من الأمور العظيمة ضرب القداح • وكانوا قد كتبوا على بعضها أمرني ربي • وعلى بعضها نهاني ربي • وتركوا بعضها خالياً عن الكتابة • فان خرج القدح الذي كتب عليه الأمر أقدم علي الفعل • وان خرج القدحُ الذي كتب عليه النهي أمسكَ عنه • وان خرج الخالي عن الكتابة أعاد العملَ ثانياً • وانما حرم الله عليهم طلبَ معرفة ما قُسم لهم من خيرٍ أو شر بالأقداح • لأنهم كانوا يضربونها عندأصنامهم ويعتقدون أن ما خرج لهم من الأمر أو النهي انما هو بارشاد الأصنام وإعانتها • وأما اذا طلب الانسان ظنَّ ما قسم له من خيرٍ أو شرٍ بالأمارات المتعارفة فهوغير منهي عنه • وذلك كتعبير الرُّؤيا والتفائلِ بالمصحف ونحوه • وكما يحصل من أصحاب الكرامات وأهل الفراسة ونحوذلك من الأمور التي جربت في معرفة عواقب الأمور العظيمة على طريق الظن • فان هذا كله جائزٌ ولا يحرُمُ شيءٌ منه أصلا • ثم قال الله سبحانه وتعالي ﴿ ذلكم فسقٌ ﴾ أي ذلكم الذي ذُكر من المحرمات تناوله فسق أي تمرُّدٌ وعصيانٌ وخروجٌ عن الحد ودخولٌ في علم الغيب الذي لا يختصُّ به الا الله سبحانه وتعالى ﴿ اليومَ يئس الذين كفروا من دينكم ﴾ أي من إبطال دينكم ومَيلكم عنه بسبب تحريم هذه الخبائث • والمراد بهذا اليوم هواليوم الذي نزلت فيه هذه الآية الكريمة وكان نزولها بعد عصر الجمعة يوم عرفةَ في حجة الوداع • وكان النبي صلى الله عليه وسلم واقفاً بعرفات راكباً على ناقته العضباء • فكادَت

عضدُها أن تندقّ لثقل الوحي عليها • فلما اشتدّ بها الثقل برَكت ويجوز أن يكون معنى قوله تعالى (أليوم يئس الذين كفروا من دينكم) أي من أن يغلبوكم على دينكم لما شاهدوه من أن الله عزّ وجل وفّي لكم بوعده حيث أظهره على الدين كله • وهذا التفسيرُ أنسبُ بقوله تعالى ﴿ فلا تخشوْهم ﴾ أي فلا تخافوا من أن يظهروا عليكم ﴿ واخشوْنِ ﴾ أي وأخلصوا اليّ الخشيةَ فان كيدي متينٌ ولا يتمّ تمام الخشية اليّ الاّ اذا انتهيتم عن هذه النواهي وتخلصتم من تلك الدواهي • فحينئذ يعود ليلكم نهاراً وتصيرُ ظلمتكم أنواراً • ثم قال الله سبحانه وتعالي ﴿ أليوم أكملتُ لكم دينكم ﴾ أي أكملت لكم ما تحتاجون اليه في تكاليفكم من تعليم الحلال والحرام وقوانين القياس وأصول الاجتهاد ﴿ وأتممت عليكم نعمتي ﴾ بذلك الاكمال فانه لا نعمةَ أتمّ من الهداية والتوفيق ﴿ ورضيتُ ﴾ أي واخترت ﴿ لكم الاسلام ديناً ﴾ من بين جميع الأديان وهو الدين الحقيقيّ المرضيّ عند الله تعالي • وغيرهُ بعد ظهور هذا الدين باطلٌ • وروي أن هذه الآية لما نزلت على النبي صلي الله عليه وسلم فرح الصحابةُ وأظهروا السرور إلاّ أكابرَهم كأبي بكر الصديق وعمر وغيرهما رضوانُ الله عليهم • فانهم حزنوا حزناً شديداً وقالوا ليس بعد الكمال الا الزوالُ • فكان الأمر كما ظنوا • فان رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يعمرْ بعد نزول هذه الآية الا إحدي وثمانين يوماً • ولم يحصل بعد نزولها في الشريعة زيادةٌ ولا نسخٌ • فكانت هذه الآية جاريةً مجرَي اخبار النبي

صلى الله عليه وسلم بقرب وفاته . وهذا إخبارٌ بالغيب فيكونُ معجزة من معجزاته صلى الله عليه وسلم . ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ فمنِ اضطرَّ ﴾ أي فمن ألجأتهُ الضرورةُ الى تناول شيءٍ من هذه المحرمات ﴿ في مخمصةٍ ﴾ أي في مجاعةٍ يخافُ معها الموتَ أو مَباديَهُ وأسبابه فتناوله ﴿ غيرَ متجانف لإثم ﴾ أي غير مائلٍ ومنحرف الى اثمٍ بأن يأكلَ هذه المحرمات تلذذاً أو بأن يأكلَ منها فوق الشبعِ أو يستعين بأكلها على فعل معصية ﴿ فان اللهَ غفورٌ رحيم ﴾ لا يؤاخذُه بذلك (هذا) وقد آن لنا أن نذكر سبب نزول الآيةِ الأولى من هاتين الآيتين بعد ما تمَّ تفسيرهما فنقول قال ابن عباس رضي الله عنهما ان الحطمَ واسمهُ شريحُ بن ضُبيعةَ الكنديُّ أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم من اليمامة الى المدينة فترك خيله خارج المدينة ودخل وحده على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له يا محمد لأي شيءٍ تدعو الناس فقال صلى الله عليه وسلم الى شهادة أن لا اله الا الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة فقال له الحطم انه حسن الا أنَّ لي امراء لا أقطع أمراً دونهم ولعلي أسلم وآتي بهم . وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يدخل عليكم رجل يتكلم بلسان شيطان . ثم خرج الحطمُ من عنده صلى الله عليه وسلم . فلما خرج قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد أتى بوجه كافرٍ وخرج بعقبى غادرٍ . وما الرجل بمسلم . فلما خرج من المدينة مرَّ بماشيةٍ لأهل المدينة فاستاقها فطلبوه فعجزوا عنه . فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى عمرة القضاء سمع تلبيةَ حجاج

اليمامة . فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه هذا الحطم وأصحابه . وكان قد قلد ما نهبه من ماشية أهل المدينة وأهداه الى الكعبة . فلما توجهَ المسلمون في طلبه أنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائرَ اللهِ) الى آخر الآية المذكورة والله يتولانا بهداه . ويوفقنا الى مافيه رضاه : آمين :

قَالَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

اعلم أن الله تعالى بين فى هذه الآية حكم قُطاعِ الطريق الذين يفسدون في الأرض وهم قوم مسلمون مكافون خرجوا في الارض الخالية البعيدة عن الناس معتمدين على قوتهم فنصبوا أنفسهم للتعرض الى أذية من مرَّ بهم بأنواع الأذى المختلفة . فمنهم من يتعرّض للقتل

فقط • ولم يأخذ مالا ومنهم من تعرّض للقتل وأخذ المال معاً • ومنهم من تعرض لأخذ المال فقط • ومنهم من تعرض لتخويف المارين من غير قتل ولا أخذ مال • وهناك قسم آخر عده الشافعيّ من قطاع الطريق وجعله داخلا في الآية وهمُ اللصوص الذين يدخلون البلد معتمدين علي قوتهم لأجل التعرض الى أخذِ أموال الناس وقتل من حاربهم • وقد نصت الأئمة على أن أحكامهم مختلفة بحسب جنايتهم كما صرّحت به الآية الكريمة . فمن اقتصر على القتل قتل ومن قتل وأخذ المال وكان قدر نصاب السرقة وهو ربع دينار فانه يقتل ويصلب . ومن اقتصر على أخذ المال ولم يَقتل قطعت يده ورجله من خلاف . ومن اقتصر علي اخافة المارّين بالطريق ولم يأخذ المال ولم يَقتل فانه ينفى من الأرض وقد بين الله تعالى ذلك كله فقال ﴿ انما جزاء الذين يحاربون اللهَ ورسوله ﴾ أي الذين يخالفون أحكام الله وأحكام رسوله ﴿ ويسعون في الأرض فساداً ﴾ أي ويسعون في ظهر الأرض بالفساد مخالفين أوامر الله تعالى ونواهيه ﴿ أن يُقتَّلوا ﴾ حداً من غير صلب ان قتلوا فقط فيكون قتلهم واجباً ولو عفا عنهم أولياء المقتول . لأن ذلك حقُّ الشرع • ولا فرق في القتل الذي صدر منهم بين أن يكون بآلة جارحة أو بغيرها كالرمي بالحجارة ﴿ أو يُصلبوا ﴾ بعد قتلهم ان جمعوا بين القتل واخذِ المال • وكيفيةُ الصلب المذكور هو أن يُقتل ثم يصلب علي خشبة بعد التكفين ويترك مصلوباً ثلاثة أيام • والحكمة في صلبه بعد القتل هي أن بقاءه

مصلوباً في ممرّ الطريق يكون فيه زجرٌ لغيره عن الاقدام على التعرض بالسوء للمسلمين ﴿ أو تقطعَ أيديهم وأرجلهم من خلاف ﴾ أى تقطع أيديهم اليمنى وأرجلُهم اليسري ان اقتصروا على أخذ المال . وكان مقدار المال الذي أخذوه بحيث لو قُسمَ عليهم لأصاب كل واحد منهم عشرة دراهم أوما يساويها قيمة . أما وجوب قطع أيديهم فبسبب أخذ المال . وأما وجوب قطع أرجلهم فبسبب إخافة الطريق وتفويت الأمن منه . فاذا عادوا بعد القطع الى أخذ المــال واخافة الطريق قطعت يدهم اليسري ورجلهم اليمنى . ثم قال تعالى ﴿ أو ينفوا (١) من الأرض ﴾ ان لم يفعلوا غير اخافة الطريق والسعي في الفساد . ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ﴾ أى ذلك الذى فصل من الأحكام والجزاء لقطاع الطريق خزي أي فضيحة وذُلٌ كائن في الدنيا ﴿ ولهم ﴾ غير هذا ﴿ في الآخرة عذاب عظيم ﴾ لا انتهاء له لغلظ جنايتهم . ثم انه تعالى لمــا شرح ما يجب على هؤلاء المخالفين من العقوبات بين حكمهم اذا تابوا قبل القدرة عليهم أى قبل القبض

(١) قال أكثر العلماء المراد بالنفى من الأرض حبسهم في أرض بعيدة عن وطنهم بحيث تنقطع عنهم أخبار وطنهم لأن نفيهم عن جميع الأرض غير ممكن ونفيهم الى بلدة أخرى يكون فيه ضرر للغير ونفيهم الى بلاد غير الاسلام لا يوافق الشريعة الاسلامية .

عليهم فقال ﴿ الا الذين تابوا ﴾ أي رجعوا عن مخالفة الله ورسوله ﴿ من قبل أن تقدروا عليهم ﴾ أي من قبل قدرتكم أيها الأئمة وولاة الأحكام على أخذهم وعقوبتهم بما يستحقونه ﴿ فاعلموا أن الله غفور رحيم ﴾ أى فاعلموا أن الله تعالى واسع المغفرة والرحمة فيعفو عن حقه الذي أوجبه علي هؤلاء المخالفين من شدة العذاب الذي أوعدهم به حال عدم التوبة • وبيان ذلك أن مايتعلق بهم من حقوق الله تعالى فانه يسقط عنهم بعد التوبة • وما يتعلق بهم من حقوق الآدميين فانه لا يسقط عنهم بعد هذه التوبة فان قتلوا انساناً ثم تابوا قبل القدرة عليهم أي قبل قبض ولاة الأحكام الشرعية عليهم كان وليّ القتيل مخيراً في حقه بين القصاص والعفو عنهم • وأما وجوب القتل عليهم الذى هو من حقوق الله تعالى • فانه يزول بسبب هذه التوبة ويجب عليهم ردّ ما أخذوه من المال • وأما قطع اليد والرجل الذى هو من حق الله تعالى فانه يزول بسبب التوبة أيضاً • فتبين أن ما هو من حقوق الله تعالى كوجوب القتل من غير قبول عفو عنهم أو وجوب قطع اليد والرجل فانه يزول بسبب التوبة قبل القدرة عليهم وأن ماهو من حقوق العباد كالقصاص والعفو من أولياء المقتول وكردّ المال الذي أخذوه فانهُ لا يسقط بسبب التوبة قبل القدرة عليهم • وأما اذا تابوا بعد القدرة عليهم فظاهر هذه الآية أن التوبة لا تنفعهم بل تقام عليهم الحدود * اللهم أدخلنا من فضلك في زمرة التائبين واجعلنا من المقبولين الأوابين آمين *

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾

﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتحرموا ﴾ أى لا تعتقدوا تحريمَ ﴿ طيباتِ ﴾ أي لذيذات ﴿ ما أحلَّ الله لكم ﴾ أولا تظهروا باللسان تحريمه أو لاتجتنبوها اجتناباً يشبه اجتناب المحرمات . فان اعتقادكم تحريمه أو اظهاره باللسان أو اجتنابه كاجتناب المحرمات لا يزيدكم قرباً من الله تعالى بل هوحرام عليكم . والمراد بالطيبات هو اللذيذات التى تشتهيها النفوس وتميل اليها القلوب . فان قال قائل ماالحكمة في النهي عن تحريم الطيبات مع أن توسع الانسان في اللذيذات والطيبات يمنعه عن الاستغراق في الطاعات الموجبة لتحصيل السعادات الباقيات . ولهذا قالت الحكماء اذاشبعت الأجسام صارت الأرواح أجساداً واذاجاعت الأجسام صارت الأجساد أرواحاً . فالجواب عن ذلك أن التباعد المفرط عن اللذيذات يوقع الآفات والخللَ في أعضاء الجسم الرئيسة التى هي القلبُ والكبدُ والدماغ والأنثيانِ . فحينئذٍ يختلُّ الفكر ويقلُّ التأمل فى الجواهر الروحانية ومباديها . وأمااذاتناولت النفوس

اللذائذَ من الحلال صارت قوية على التأمل في الروحانيات • لأن تصرفها في الجسمانيات لا يمنعها عن ذلك • وأما التباعدُ المذكور فانه يورث الضعفَ والقصورَ • ويمنع من الكمال فى الوفاء بجهة التصرف في الجُسمانيات • وجهة التأمل في الرُّوحانيات وكيف لاَ وأن هذا التباعد هو عين الرهبانية التى توجب خرابَ الدنيا وهلاك الحرث والنسل • وأما ترك الترهب مع رعايةِ وظائف الطاعة يفضي الى سعادة الدارين ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ ولاتعتدوا ﴾ أي إنا لما أحللنا لكم الطيبات فاكتفوا بها ولا تتعدّوها وتتجاوزوا عنها الى ما حرمَ عليكم فـَ ﴿ ان الله لايحب المعتدين ﴾ أي لا يرضي عن المتجاوزين حدوده انتهى

وسبب نزول هذه الآية ما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلس يوماً فوعظ أصحابه ووصف يوم القيامة لهم وبالغَ وأشبع الكلام فى الانذار والتحذير فرقت قلوبهم وبكوا • فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون منهم أبوبكر وعليّ وابن مسعود وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي • فاتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم ولا الشحم ولا يقربوا النساء والطيب ويلبسوا ثياب الصوف الخشنةَ ويرفضوا الدنيا ويحرموا على أنفسهم المطاعم الطيبة والمشارب اللذيذة ويسيحوا في الأرض ويترهبوا ويجبوا المذاكير • فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم ألم أنبأ أنكم اتفقتم على كذا وكذا فقالوا

يا رسول الله وما أردنا الا الخير • فقال لهم اني لم أُومَرْ بذلك • ان لأنفسكم عليكم حقاً • فصوموا وافطروا وقوموا وناموا فاني أقوم وأنام وأصوم وأفطر وآكلُ اللحم والدسم • فمن رغب عن سنتي فليس مني ثم جمع صلى الله عليه وسلم الناس وخطبهم فقال في خطبته مابال أقوام حرموا النساء والطعام والطيب والنوم وشهوات الدنيا • أما اني لست آمركم أن تكونوا قسيسين ورهباناً فانه ليس في ديني ترك اللحم والنساء ولا اتخاذُ الصوامع • وأن سياحة أمتي الصوم ورهبانيتهم الجهاد • فاعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وحجوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وصوموا رمضان • فانما هلكَ من قبلكم بالتشديد شدّدوا على أنفسهم فشدد الله عليهم فأولئك بقاياهم في الديارات والصوامع • فأنزل الله هذه الآية وبين لعباده فيها أنهم لا يحرموا على أنفسهم ما هو حلال لهم من الأطعمة وغيرها فلما نزلت قالوا يا رسول الله فكيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها وكانوا قدحلفوا على مااتفقوا عليه • فنزل قوله تعالى (لا يؤاخذُكم الله باللغو في أيمانكم) وقد تقدم تفسيرها في قسم الأوامر من هذه السورة ثم قال الله سبحانه وتعالى (وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون) ثم انه تعالى لما نهاهم عن الاعتداء في الأكل نهياً عاماً ليدخل تحته النهي عن الاسراف في الأكل وغيره من أنواع الحلال أباح لهم في هذه الآية أن يأكلوا مما منّ الله به عليهم من طيبات الطعام وأرشدهم فيها ارشاداً حسناً الى الاقتصار في الأكل

على البعض وأن يصرفوا ما بقي الى المحتاجين فقال ﴿ وكلوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ مما رزقكم ﴾ أي من الرزق الذي رزقكم ﴿ الله ﴾ به حال كونه ﴿ حلالاً طيباً ﴾ أي لذيذاً ﴿ واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ﴾ لأن الايمان به يوجب التقوى فيما أمر الله به ونهى عنه وفي هذه الآية دليل على أنه تعالى قد تكفل برزق كل أحد • فانه تعالى لو لم يتكفل برزق العباد لما خاطبهم بقوله (كلوا مما رزقكم الله) واذا كان الله تعالى متكفلاً برزق العبد وجب عليه أن لا يلح في الطلب وأن يعتمد على وعده تعالى واحسانه • فانه منزه عن خلف الوعد ومتصف بكل كمال وكرم • ولهذا قال عليه الصلاة والسلام • (ألا فاتقوا واجملوا في الطلب) واذا علمت أن الله سبحانه وتعالى تكفل بالرزق لكل أحد بدليل قوله تعالى (وما من دابة في الأرض الا على الله رزقها) فيكون الرزق مضمونا لأن وعد الله لا يتخلف فلا ينبغي حينئذ اجتهادنا في تحصيل الرزق وانما ينبغي للعاقل الفطن المتذكر عواقب الأمور أن لا يجتهد الا في تحصيل الأمور التي يتسبب عنها غفران الله له لأن الله أبهم علينا الأمر فلا ندري من المغفور له منا حيث قال (يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) بخلاف ما عليه أهل زماننا الآن فانهم يجتهدون في تحصيل الرزق الذي لاشك في حصوله بل يطلبونه بأسباب قد نهي عنها شرعاً وعقلا كالتجائهم الى الأجانب وتعليم أولادهم لغات أعداء دينهم وعاداتهم ويتركون الأمر المشكوك فيه فهم غير عقلاء نسأله سبحانه وتعالى أن يحشرنا في زمرة المتمسكين

بكتابه . وأن يوفقنا للخدمة الخالصة الى حضرة جنابه آمين

قَالَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّٰهُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّٰهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ * فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ * وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللّٰهُ عَمَّا سَلَفَ * وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللّٰهُ مِنْهُ وَاللّٰهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾

انه سبحانه وتعالى لما أباح لنا جميع الحلالات ونهانا عن تحريمها في الآيتين السابقتين حرّم علينا في هذه الآية الكريمة بعضاً من الصيد وهو صيد الحرم وصيد المحرم بالحج . وجعل هذا التحريم امتحاناً لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بصيد البر كما امتحن أصحاب السبت من الأمم السابقة بتحريم صيد البحر الا أن أصحاب

السبت لم يصبروا علي هذا الامتحان ولم يبالوا بالنهي عن صيد البحر بل اصطادوا منه وأكلوا ما اصطادوه • وأما الأمة المحمدية فقد عصمها الله من ذلك • حتى أنه تعالى لما ابتلاهم بالصيد وهم محرمون عام الحديبية كانت الوحشُ والطيرُ تأتيهم في رحالهم وأما كنهم بكثرة ويقدرون على أخذها بالأيدى وصيدها بالرماح • وما رأوا مثل هذه الحالة في سهولة الصيد طول عمرهم أبداً • ومع ذلك لم ينظروا الى كثرة الصيد وسهولة أخذه بل كانت همتهم في التمسك بنهي الله تعالى وصبرهم على هذا الابتلاء والامتحان • لأنهم علموا أن فائدةَ هذا الامتحان التنبيه عليهم بأن من لم يثبت في هذا الامتحان الهين لا يمكنهُ أن يتثبتَ عند شدائد المحن والبليات • وقد بين تعالى ذلك كله على سبيل الاشارة في بعضه والتصريح في البعض الآخر فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم ﴾ أي ليُعاملنكم ﴿ الله ﴾ معاملةَ من يختبرُكم ليظهر أحوالكم بينكم ﴿ بشيء ﴾ أي بتحريم شيء ﴿ من الصيد ﴾ أى من صيد البرّ سواء كان مأكولا أو غير مأكول ﴿ تناله أيديكم ورماحكم ﴾ أى تتمكنون من أخذه بأيديكم أو من طعنه برماحكم • وانما ابتليتم بذلك ﴿ ليعلمَ الله من يخافهُ بالغيب ﴾ أي ليتميزَ من علم اي في الأزل أنه يخاف من عقابه الأخروي وهو غائب عن رؤيته ممن لا يخاف عقابه تعالى • فان الخائف من عقابه الأخروي لا يتعرض للصيد وغيره من المنهيات لقوة ايمانه • ومن لم

يخف من عقابه الأُخروي يتجاسرْ على الصيد وغيره لضعف ايمانه ﴿ فمن اعتدَى ﴾ أي فمن تعدّى بخروجه عن طاعة الله في هذا النهي ﴿ بعد ذلك ﴾ أى بعد ما علم أن ماوقع من تحريم الصيد وغيره ابتلاءٌ وامتحانٌ من الله تعالى لما ذكر من الحكمة وهي تمييز الخائف من غيره ﴿ فله عذاب أليم ﴾ لأن اعتداءه على حدود الله مكابرةٌ صريحةٌ وعدم مبالاة منه بتدبير الله تعالى وخروجٌ عن طاعته وقلةُ خوف منه . فكأنه تعالى يقول ان من تعرّضَ منكم لصيد البر وهو محرمٌ أو لصيد الحرم مطلقاً بعد ما بينا لكم أن تحريمَهُ ابتلاءٌ مؤد الى تمييز المطيع من العاصي فله عقابٌ شديد لشدة مكابرته . ولأن من لا يملك زمام نفسهِ ولا يراعي حكم الله تعالى في أمثال هذه البلايا الهينة لا يراعيه في عظائم المفاسد . ثم قال تعالى

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ﴾

أي وأنتم محرمون بالحج أو العمرة . والمراد بالصيد الذي نهى الله عن قتله هو الذى يتوحش سواء كان مأكولاً أو غير مأكول . وعلى هذا التفسير لو قتل المحرمْ سَبعاً غير مأكول اللحم فانه يضمن قيمته ولا يصل بها الى الزيادةِ عن قيمة الشاة . وقيل هو الصيدُ البرى المتوحش الذي يؤكل لحمه فما لا يحل أكله لا يجب في قتله شيءٌ على هذا التفسير . وأما قتل جميع المؤذيات كالعقرب ونحوه فانه جائز للمحرمِ باتفاق الأئمة . فالواجب على كل مسلم أن لا يتعرض

للصيد مادام محرماً أو في الحرم بالسلاح ولا بالحيوانات التى تعلمت الصيد كالكلاب والطيور . سواء كان الصيد من صيد الحل أو من صيد الحرم . ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ ومن قتله ﴾ أى ومن قتل هذا الصيد ﴿منكم﴾ أيها المؤمنون ﴿متعمداً﴾ أي متذكراً لإحرامه عالماً أن ماقتله من الصيد حرام ﴿ فجزاء ﴾ أي فيجب عليه جزاء كائن ﴿ مثلُ ما قتلَ ﴾ أي مماثلٌ للصيد الذي قتله . ويكون هذا الجزاء ﴿ من النعم ﴾ وهي الإبلُ والبقرُ والغنمُ . والمراد بالمثل المماثلة في الخلقةِ والهيئة . فيكونُ الصيدُ منقسماً الى نوعين نوع له مماثلٌ في الخلقة والهيئة كالنعامة فانها تماثل الإبلَ ونوع ليس له مماثل كالحمام والعصفور فانه لا يماثله شيء من النعم . فما له مماثلٌ من الصيد فان ضمانه يكون بمماثله من النعم فيضمنُ من قتل نعامةَ واحداً من الإبل ومن قتل ضبعاً يضمنُ كبشاً ونحوذلك . وأماماليس له مماثل فضمانه دفعُ قيمتهِ . وقد ذكر أكثر الأئمة أن ضمانَ الصيد واجب سواء قتله المحرم عمداً أو خطأً . وانما وردت الآيةُ بالتعمد فقط . لأن العمد أصلٌ والخطأ ملحقٌ به لأجل التغليظ . ولما روى أن الصحابة ظهر لهم حمار وحش فى غزوة الحديبية وكانوا محرمين . فحملَ عليه أبو اليسر فطعنه برمحهِ فقتله . فقيل له انك قتلت الصيد وأنت محرم فنزلت هذه الآية على وفق القصة وهي قتل حمارِ الوحش عمداً فلا ينافي عموم الحكم لأن خصوص السبب لاينافي عموم اللفظ . ثم ان

الجزاء المذكورُ ﴿ يحكمُ به ذوا عدل منكم ﴾ أي يحكمُ بهذا الجزاء المماثلِ لما قتل من الصيد حكمانِ صالحانِ عادلان من المسلمين . فالواجب على من قتل الصيدَ ما يحكم به العدلان مما يماثله من النعم ﴿ هَدْياً بالغَ الكعبةِ ﴾ يعنى أن ذلك المثلَ الذي يحكم به العدلان يصل به صاحبهُ الي الحرم ثم يذبحهُ فيه ﴿ أو ﴾ يجب عليه ﴿ كفارةٌ ﴾ هي ﴿ طعام مساكينَ ﴾ لكل مسكين مُدٌّ من القوت المعتاد أكله فى الحرم ﴿ أو ﴾ يجب عليه ﴿ عدل ذلكَ ﴾ أي ما يعادل ذلك الطعام ﴿ صياماً ﴾ فيصوم بدل كلِّ مُدٍّ يوماً ومثال ذلك محرم قتلَ ظبياً فحينئذ يخيرُ بين واحد من ثلاثة أشياء فإما أن يهديَ شاة فيذبحها ويتصدق بها على فقراء الحرم وإما أن يشتري بقيمة تلك الشاة طعاماً ويطعم منهُ كلَّ مسكين مُداً وإما أن يصوم بدل كلِّ مُدٍّ يوماً ويكون صيامه بقدر عدد الأمداد . حتى أنه لو بقيَ نصف مُدٍّ يصوم بدله يوماً كاملاً وقسْ على هذا المثال . انتهى

فظهر من هذا التفسير أن قاتل الصيد اذا كان محرماً بالحج أو كان داخل الحرم وان لم يكن محرماً يجب عليه ضمانُ ماقتله من الصيد ويخيرُ في هذا الضمانِ بين ثلاثة أشياء . فإما أن يهديَ شيئاً من النعم قيمتهُ قيمة الصيد المقتول أو يماثله في الخلقةِ ثم يتصدق به على مساكين الحرم . وإما أن يشتريَ بقيمة هذا الهدْيِ طعاماً ويفرقه على مساكين الحرم فيعطي لكل مسكين مُداً . وإما أن يصوم بدل الطعام عن كل يوم مُداً . واعلم أن المحرم اذا ذبح صيداً لم يحل له ولا

لغيره الأكل منه باتفاق الأئمة . لأنه في حكم الميتة . وكذا يحرم الأكل من صيد الحرم اذا ذُبح . وانما شرع الله ذلك علي قاتل الصيد ﴿ ليذوقَ وبال أمرِه ﴾ أي ليذوق القاتل سوء عاقبة فعله . وهو هتكُ حرمةِ الحرم والاحرام . والحكمةُ في تخصيص الوجوب بأحد هذه الثلاثة التي هي غُرمٌ بدل المقتول من النعم . أوالطعام الذي يشترى بقيمته . أو الصيام على قاتل الصيد هي أنَّ اثنين منها نقصٌ في المال وهما الهديُ والاطعام . ومعلومٌ أن نقص المال ثقيلٌ على الطبع . وأما الثالث وهو الصوم فهو ثقيل على البدن . فاذا علم المسلم أنه يجب عليه واحد من هذه الثلاثة بسبب قتل الصيد زجرَ نفسه وامتنع عن قتله لأن كلاً من هذه الثلاثة نوع من أنواع العقوبة . ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ عفا اللهُ عما سلفَ ﴾ أي عما تقدم من قتل المحرم الصيدَ قبل التحريم ﴿ ومن عاد ﴾ الى قتل الصيد بعد النهي عنه وهو محرمٌ ﴿ فينتقمُ الله منه ﴾ بالعذاب في الآخرة ﴿ والله عزيزٌ ﴾ أي غالب لا يغلبهُ أحدٌ ﴿ ذو انتقام ﴾ أي ذو عذاب شديد . فينتقمُ ممن أصرَّ على المعصية والاعتداء . انتهى ثم قال الله سبحانه وتعالى

﴿ تابع لما قبله من الآية الكريمة ﴾

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ

وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

ثم انه تعالى أرشد عباده المحرمين بالحج الى مايحل صيده وما لايحل فقال ﴿ أُحلّ لكم ﴾ أيها المحرمون بالحج أوالعمرة ﴿صيد البحر ﴾ أي ما يصاد من المياه كلها والمرادُ بصيد البحر هو مالا يعيش الا في المياه كلها سواءٌ كان مأكولاً أوغيرَ مأكولٍ ﴿ وطعامهُ ﴾ أي وأحل لكم ما يطعمُ من صيده • والمعنى أحل لكم التعرض الى كل مايصاد في المياه جميعها من بحر أو نهر أو بئر والانتفاع به وأكل ما يحلُّ أكلهُ منه • واعلم أن جملة ما يصاد من الماء ثلاثةُ أنواع • أحدها الحيتانُ وجميع أجناسها حلال باتفاق الأئمة • وثانيها الضفادعُ وجميع أنواعها حرام باتفاقهم أيضاً • وثالثها ما خرج عن هذين النوعين • واتفق الأكثرون على حله وانما أحل لكم طعام البحر ﴿متاعاً لكم ﴾ أي للتمتع للمقيمين منكم يأكلونه طرياً ﴿ وللسيارة ﴾ أي وللمسافرين منكم يتزَودون به قديداً مالحاً ﴿ وحرم عليكم ﴾ أيها المحرمون بالحج ﴿ صيدُ البر ﴾ أي مايصادُ في البر ﴿ مادمتم حرُماً ﴾ أي مادمتم محرمين والمراد بصيد البرّ كلُّ مالا يعيشُ الا في البرّ أو كان يمكنهُ أن يعيش في البر وفي البحر معاً • وأما مالا يمكنه أن يعيش الا في البحر فقط فهو صيد البحر كما ذكرنا قريباً • ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ واتقوا الله الذى اليه تحشرون ﴾ تقدم تفسيره • واعلم أنه يوجد فى هذه السورة

الكريمة بعضٌ من النواهي التى تقدم تفسيرها في آل عمران مثل النهي عن اتخاذ المؤمنين أولياء من الكافرين ▪ فلا داعي لاعادة تفسيرها هنا كما أننا أعرضنا عن تفسير بعض آياتٍ تشتمل على نهيٍ خاصٍ بالصحابة رضوانُ الله عليهم وحشرنا فى زمرتهم آمين :

﴿ الباب الخامس ﴾

﴿ في تفسير ما ورد في سورة الأنعام من النواهي ﴾

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ▪ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

اعلم أن بعض المسلمين اذا سمعوا من اليهود والنصاري وغيرهم ممن يخالفُ دينهم كلاماً يكون فيه تنقيصٌ لله تعالى أو لرسوله صلى الله عليه وسلم حملتهم شدةُ الغضب على شتم دينهم وسب اعتقاداتهم فنهاهم اللهُ تعالى عن هذا العمل ▪ لأنهم اذا سبوا ما يزعمون أنه دينٌ غضبوا وذكروا الله تعالى بما لايليقُ من النقص لعدم علمهم به سبحانه

وتعالى . وبالجملة فيجب علي كل من دخل مع انسانٍ في مناظرةٍ أن يتخلق بجميل الأخلاق واذا بادره خصمهُ بجهالة وسفاهةٍ لم يجز له أن يفعل كفعله لأن ذلك يوجب فتح باب الشر من المشاتمة والمسافهة التي لا تليق بالعقلاء • فالأدب اللائقُ بمن يدعو الناس الى طريق الحق أن لا يتشاغلَ بما لا فائدة له في المطلوب الذي يقصده من الدعوة الى الدين القويم • وأن لا يسرع الى التعرض لقبحِ وإبطالِ اعتقادات من يدعوهم • بل يدور معهم بجميل القول اللين حتى لا ينفرهم عن قبول دعوته • فان الأمر بالمعروف قد يكون قبيحاً اذا ترتب عليه أدنى محرَّمٍ • والنهي عن المنكر قد يكونُ قبيحاً أيضاً اذا علمَ الناهي أن مَن ينهاه لم يتأثرْ بالنهي . بل يتغالى في فعل المنكرات • ولهذا لما كان المسلمون يسبون أوثانَ الكفار • وهم يردون ذلك عليهم نهاهمُ اللهُ عن ذلك السب لئلاَّ يجرئهم العنادُ الى سب الله عزوجل فقال ﴿ ولا تسبوا ﴾ أي ولا تشتموا أيها المؤمنون الكفار ﴿ الذينَ يدعون ﴾ أي يعبدون الأصنامَ ﴿ من دون الله ﴾ ولا تتعرَّضوا لأصنامهم بالسب ﴿ فيسبوا اللهَ ﴾ تعالى ﴿ عَدْواً ﴾ أي ظلماً وتجاوزاً عن الحق الى الباطل ﴿ بغير علمٍ ﴾ أي بغير معرفة بالله وبما يجب أن يذكرَ به . لأنهم قوم جهلة لا معرفة لهم بالحق أصلاً • وكما زينا لهؤلاء المشركين عبادةَ الأصنام وطاعةَ الشيطان للحرمان والخذلان ﴿ كذلك ﴾ أي مثل هذا التزيين القوي ﴿ زينا لكل أمة عملهم ﴾ من الخير والشر بإحداث ما يمكنهم من عمله ويحملهم على فعله توفيقاً

في الخير وتخذيلا في الشر ﴿ ثم الى ربهم ﴾ أي الى مالك أمرهم ﴿ مرجعهم ﴾ أي رجوعهم ثانياً بالبعث من قبورهم بعد الموت ﴿ فينبئهم ﴾ أي فيخبرهم من غير تأخير ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ فى الدنيا فيجزيهم عليه في الآخرة • وفي هذه الآية نكتة سرية مبنية على حكمة نورانية إلهية • وهي أن كلاً ما يظهر في هذه النشأة الدنيوية من الأجسام والأعراض اللازمة لها فانما يظهر بصورة مستعارة مخالفة لصورته الحقيقية التى يظهر بها في النشأة الآخرة • فان المعاصى سموم قاتلة قد ظهرت في الدنيا بصورة تستحسنها نفوس العصاة • كما نطقت به هذه الآية الكريمة وذلك قوله تعالى (زينا لكل أمة عملهم) وكذا الطاعات فانها قد ظهرت عند العصاة بصورة مكروهة مع كونها في أقصى درجات الحسن •

قال النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات ﴾

فالأعمال السيئة قد ظهرت في هذه النشأة الدنيوية بصورة مزينة يستحسنها الغواة ويستحبها الطغاة • وستظهر في النشأة الأخروية بصورتها الحقيقية القبيحة الهائلة • فعند ذلك يعرفون أن أعمالهم كيف كانت • وقد عبر الله تعالى بقوله (فينبئهم بما كانوا يعملون) عن اظهار صورها الحقيقية • لأن كلاً من الأخبار والاظهار

سببٌ للعلم بها علماً حقيقياً فاعرف ماذات عليه الآية الكريمةُ وانظرْ اليه بعين البصيرة فانه سرٌّ من أسرار الآيات القرآنية التي لايدركها الاّ العقلاء الراسخون فى العلوم والمعارف . انتهى

وسبب نزول هذه الآية ما روي من عدة وجوه . أنه لما قربت وفاةُ أبى طالب . قالت قريشٌ ندخلْ عليه ونطلب منه أن ينهي ابنَ أخيه عنا . فانا نستحي أن نقتله بعد موته فتقول العرب ان عمه كان يمنعهُ من قريش . فلما مات قتلوه . فانطلقَ أبو سفيان وأبو جهل والنضر بنُ الحرث مع جماعة من قريش فذهبوا الى أبي طالب فقالوا ياأبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وأن محمداً قد آذانا وأذى آلهتنا فنحب أن تدعوه فتنهاه عن ذكر آلهتنا ولندعهُ وإلههُ . فدعاه فجاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال له أبو طالب هؤلاء قومك و بنو عمك فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومايريدون فقالوا نريد أن تدعنا وآلهتنا وندعكَ وإلهكَ . فقال أبو طالب قد أنصفك قومك و بنوا عمك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيتم ان أعطيتكم هذا هل أنتم معطيَّ كلمةً ان تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم . فقال أبو جهل نعم وأبيك لنعطينكها وعشرة أمثالها . فما هي فقال قولوا لا إله الا الله فأبوا ونفروا . فقال أبو طالب قل غيرها يا ابن أخي فان قومك قد فزعوا منها . فقال يا عم ما أنا بالذي أقول غيرها . ولو آتوني بالشمس فوضعوها في يدي ما قلت غيرها . فقالوا لتكُفَنَّ عن شتمك آلهتنا أو لنشتمنكَ ولنشتم من يأمرُكَ . فأنزل

الله تعالى هذه الآية ونهاهم فيها عن التعرض لأهل الشرك لئلا يحملهم الجهل والسفه على الوقوع في السب للحضرة المقدسة كما ذكرنا في أول تفسير الآية . أعاذنا الله من جميع الفتن وكفانا بفضله شر المحن . آمين

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا * وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ * وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ * وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ * ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا * وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا * ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ١٥١ ١٥٢

اعلم أن المشركين كانوا قد حرموا على أنفسهم أشياء لم يردْ بها الشرع الشريف . وزعموا أن إشراكهم وإشراك آبائهم وتحريم ماحرموه لم يكن من عند أنفسهم . وانما هو بتحريم الله تعالى ومشيئته ثم عجزوا عن اظهار شيء من الأدلة ليتمسكوا به في دعوتهم لأمر التحريم عجزاً بيناً . فأمرَ الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يبين لهم ماحرمهُ اللهُ عليهم على الأسلوب الحكيم . ليظهر فساد قولهم وليعلموا أن الحق هو الاجتناب عن هذه المحرمات التسعةِ التي ينبني عليها أساس الدين فقال ﴿ قلْ ﴾ يا محمد لهؤلاء المعاندين ﴿ تعالوْا ﴾ أي أقبلوا أيها القوم ﴿ أَتلُ ﴾ أي أقرأْ لكم الآيات التي تشتمل على ﴿ ما حرمَ ﴾ أي الذي حرمه ﴿ ربكم عليكم ﴾ حقاً يقيناً لا شكّ فيه ولا ظناً ولا كذباً كما تزعمون أنتم بل هو وحيٌ أوحاه الله اليَّ وهو ﴿ أن لاتشركوا به شيئاً ﴾ أي أن لاتجعلوا لله شريكا من خلقه وأن لاتطيعوا مخلوقاً في معصية الخالق . وأن لاتريدوا بعبادته رِياءَ ولا سمعةَ . فان من فعل شيئاً من ذلك فقد ضلَّ سعيه وحبط عمله . ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وبالوالدين ﴾ أي وأحسنوا بالوالدين ﴿ احساناً ﴾ عظيما ولاتتعرضوا لهم بأدنى اساءة بل بالغوا في اكرامهم وبرهم بقدر ما يمكنكم . وانما حث الله تعالى على الاحسان الى الوالدين بعدالنهي عن الاشراك به . لأن أعظم النعم على العبد هي نعمة الله تعالى الذي أخرجه من العدم الى الوجود . وخلقه وأوجده بعد أن لم يكن شيئاً . ثم أعظم النعم على العبد بعد نعمة الله تعالى نعمة

الوالدين لأنهما السببُ في وجوده . وصار لهما الحق عليه من جهة التربية والشفقة التى لم توجد في غيرهما وشدة التحفظ عليه من المهالك في حال صغره . واعلم أن العرب كانوا في الجاهلية يدفنونَ البنات وهنَّ أحياءٌ غيرةً عليهنَّ وخوفاً من الفقر . فنهاهم الله عن ذلك وحرمه عليهم بقوله ﴿ ولا تقتلوا ﴾ أي ولا تهلكوا بالدفن أيها العبادُ ﴿ أولادكم ﴾ وهن أحياء ﴿ من املاق ﴾ أي من أجل خوف الفقر ﴿ نحن نرزقكم واياهم ﴾ أى نحن نرزقكم ونرزقهم . وأما أنتم فلا تقدرون على رزق أنفسكم فكيف يمكنكم أن ترزقوا غيركم . فحينئذ لاتخافوا الفقر بناءَ على عجزكم عن تحصيل الرزق . واذا كان الله تعالى متكفلا برزق الوالد والولد فيجب على الوالد أن يقوم بحق الولد وتربيته . وأن يتكلَ فى أمر الرزق على الله عز وجل . واعلم أن الشركَ هو عبادة الهوي والشيطان واحتجابٌ بصفاتِ النفس الأمارة عن صفات الحق . فالمشركون لما أمرُوا عليهم الهوي وعبدوه أطاعوا أوامره ونواهيه في التحريم والتحليل . وعميتْ قلوبهم عن التحريم والتحليل المتبع فيهما أمر الله تعالى ونواهيه . وضلوا عن أنواع الفضائل وسلكوا سُبلَ الرذائلِ . وانما ابتدأ الله تعالى بالنهي عن رذيلة القوة النطقيةِ لأن رذيلتها أكبرُ الكبائر وينشأ عنها جميع الرذائل . لأن سبب اتصافها بهذه الرذيلة التى هي الشركُ أنها لما قصرت عن استعمال العقل والنظر في البرهان وقعت في لجج الضلال وبحار الظلمة فلم تهتد الى شيء من الأنوار المقدسية والدلائل الربانية . ثم عقب

النهي عن الشرك بالحث على الاحسان للوالدين لأن معرفة حقوقهما تكون بعد معرفة الله تعالى في الرتبة من حيث الايجاد والربوبية لأنهما سببان قريبان في الوجود والتربية وهما واسطتان جعلهما الله تعالى مظهرين لصفتي ايجاده وربوبيته • ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وسلم (من أطاع الوالدين فقد أطاع الله ورسوله) فيكون عقوقهما يَلي الشرك فالجهل بحقوقهما ناشيء عن الجهل بحقوق الله تعالى وبمعرفة صفاته • ثم عقبَ الحث على الاحسان للوالدين بالنهي عن قتل الأولاد خشية الفقر لأن ارتكابَ ذلك لا يكون ناشئاً الا عن الجهل والعمى عن تسبيبهِ تعالى الرزق وإيجاده لكل مخلوق وعن الغفلة المؤدية الى الذهول عن كون الأرزاق بيد قدرته سبحانه وتعالى اذ هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر • وهذا كلهُ ناشيء عن احتجاب العبد عن سر القدرة الإلهية • فلا يعلم أن الأرزاقَ مقدرةٌ مع الأعمار كتقدير الآجال • فهذه ثلاثة من الرذائل أولها رذيلة الشرك وهي لا تقع الا من الخطأ في معرفة ذات الله تعالى • وثانيها رذيلةُ عقوق الوالدين • وهي لا تقع الا من الخطأ في معرفة صفاتهِ تعالى • وثالثها رذيلة قتل الأولاد بسبب خوف الفقر وهي لا تقع الا من الخطأ في معرفة أفعاله تعالى • فظهر من ذلك أنه لا يرتكب هذه الرذائل الثلاث الا ممقوت محجوبٌ عن ذاته تعالى وصفاتهِ وأفعاله • وأن هذه الحجب الثلاثة أُم الرذائل وأساسها • ثم انه سبحانه وتعالى لما بين رذيلةَ القوة النطقية شرع في بيان رذيلة القوة البهيمية • لأن رذيلتها أظهرُ وأشد قدوماً

على المعاصي فقال ﴿ولا تقربوا ﴾ أيها العباد ﴿ الفواحش ﴾ أي الأعمال القبيحة الشنيعة عند الشرع والعقل ﴿ماظهر منها ﴾ وذلك كالزنا وشرب المسكرات وأكل الربا ﴿ وما بطن ﴾ أى وما خفي منها كالإصرار والجزم على فعل شيء من هذه الفواحش المذكورة • وكالسرقة وارتكاب أنواع المعاصي خفيةً • واعلم أن في قوله تعالى (ما ظهر منها وما بطنَ) دقيقةً من أسرار دقائق القرآن • وهي أن الانسان اذا احترز عن المعاصى في الظاهر ولم يحترزْ عنها في الباطن دلَّ ذلك على أن احترازه عنها فى الظاهر ليس لأجل عبودية الله تعالى وطاعته فيما أمرَ به أو نهى عنه • وانما هو لأجل الخوف من روية الناس ومذمتهم • ومن كان كذلك استحقَّ الحرمان والعقاب من الله تعالى • وأما من تركَ المعصية لأجل عبودية الله تعالي والخوف منه والتعظيم لأمره • فانه يستوجب رضوان الله تعالى وثوابه • ثم انه تعالى بعد ما بين رذيلةَ القوة البهيمية الشهوية أشار الى رذيلة القوة السبعية الغضبية فقال ﴿ ولا تقتلوا ﴾ أيها العباد ﴿ النفس التى حرمَ اللهُ ﴾ قتلها بأن عصمها بالاسلام أو بالعهد لغير الكافر الحربي فلا تقتلوها بسبب من الأسباب ﴿ الا بالحق ﴾ أى بسبب الحق الذى هو أمرُ الشرع بقتلها • وذلك يكون بسبب الكفر بعد الايمان أوالزنا بعد الاحصان وهو الذى يوجب الرجم أو بقتل النفس المعصومة • انتهى

قال النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ لاَ يحلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسولُ اللهِ إِلاَّ بِإِحْدَى ثلاثٍ . الثَّيِّبُ الزَّاني . وَالنَّفسُ بِالنَّفْسِ . وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَماعةِ ﴾

﴿ ذلكم ﴾ الذى ذكر من التكاليف الخمسة ﴿ وصاكم ﴾ أى أمركم الله ﴿ به ﴾ وأوجبه عليكم ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ أى لكي تفهموا ما في هذه التكاليف من الفوائد والمنافع فتعملوا بها . فانه لا يفهمها الا العقلاء . ومن ارتكبها فلا عقل له . ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم ﴾ وهو الصبي الذى ليس له أب ﴿ الا بالتى ﴾ أى الا بالخصلة التى ﴿ هي أحسنُ ﴾ وهي الاجتهادُ في السعي الى مايكون فيه صلاحهُ من تثميره أوالتجارة فيه وتحصيل الربح له من غير أن تأخذوا من ربحهِ شيئاً . هذا اذا كان وليُّ اليتيم غنياً غير محتاج الى ماله . وأما اذا كان فقيراً فيحل له أن يأكل منه بالوجه الذى يرضاه الشرع والعقل . فالواجب علي القائم بأمر اليتيم أن يحفظ ماله ويسعي في اصلاحه ولا يسلمهُ اليه ﴿ حتى يبلغَ أشده ﴾ أي حتى يَبتدأَ في بلوغ الحُلم ويظهر منه الرشدُ وحسنُ التصرف . فاذا وصل الى هذه الدرجة فيجب دفع ماله اليه . ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ وأوفوا الكيل

والميزانَ بالقسط ﴾ أى بالعدل من غير زيادة ولا نقصان • ثم انه لما كان سلوك طريق الفضائل وحسن العمل صعباً وكانت مراعاة الوسط فيما بين طرفي الافراط والتفريط في غاية الصعوبة قال تعالى رأفةً بعباده ﴿ لا نكلفُ نفساً الا وُسعها ﴾ أى الا طاقتها وما يَسعها ولا يعسرُ عليها فى مراعاة العدل والقيام بهــذه التكاليف • فلم يكلف سبحانه وتعالى العبد بما لا يقدر عليه من فعل الطاعات والقيام بالعدل حتى لا يضيقَ أمر الدين عليه • بل أمر كل واحدٍ بما يكون في طاقته رأفةً منــه تعالى ورحمة بعباده . ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ واذا قلتم ﴾ قولا في حكومة أو شهادة أو أمرٍ بمعروف أو نهى عن منكرٍ أوغير ذلك من جميع الأقوال التي يجب فيها الصدقُ والعدل ﴿ فاعدلوا ﴾ ولاتقولوا الا الحق من غــير زيادة فيه ولا نقصان ﴿ ولو كان ﴾ الذى تقولون له أو عليه ﴿ ذا قربى ﴾أى ذاقرابة منكم فلاتميلوا في القول له أو في القول عليه بالزيادة أو النقصان نظراً الى قرابتهِ • وكونوا مع الحق حيث دار ﴿ وبعهد الله ﴾ أي وبما عاهدتمُ اللهَ عليه وأوجبتموه على أنفسكم من نذر ونحوه ﴿ أوفوا ﴾ أى أدوه ﴿ ذلكم ﴾ الذي فُصل من جميع التكاليف ﴿ وصاكم ﴾ أى أمركم الله ﴿ به ﴾ أمراً مؤكداً ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أى لكي تتذكروا بما أوجبنه عليكم وتعملوا به

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ * ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

اعلم أن الله تعالى بين في هذه الآية الكريمة أن ماتقدم من الآيتين السابقتين مشتمل على النهي عن جميع الرذائل والحث على جميع الفضائل • ولا يمكن سلوك ذلك الا لمن استقام في دين الله وأيده بتأييده ووفقه لسلوك طريق الحق • فحينئذٍ يكون سيرُه سيراً إلهياً وصراطُه صراطاً محمدياً وهو الصراط الذي ذكره الله تعالى فى قوله ﴿ وأن هذا ﴾ الذى وصيتكم به في هاتين الآيتين هو ﴿ صراطي ﴾ أي طريقي وديني الذي بيناه لكم ﴿ مستقيماً ﴾ أي قويماً لا اعوجاج فيه ﴿ فاتبعوه ﴾ أى فاعملوا به ﴿ ولا تتبعوا السبل ﴾ أي ولا تتبعوا الطرق المختلفة والاهواءَ المضلةَ والبدعَ الرديئةَ ﴿ فتفرَّقَ بكم ﴾ أي فتميل بكم هذه الطرق المختلفة المضلةُ ﴿ عن سبيلهِ ﴾ أى دينه تعالى الذي ارتضاه لعباده • قال ابن مسعود رضي الله عنه خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً فقال (هذا سبيلُ الرشاد) • ثم خطَّ عن يمينه وشماله خطوطاً وقال هذه سبلٌ • على كل سبيلٍ منها شيطان

يدعو اليه ثم قرأ وأن هذا صراطي مستقيماً • الى آخر هذه الآية ﴿ ذلكم ﴾ الذي مرَّ من اتباع سبيله تعالى وترك اتباع سائر الطرق المختلفة المضلة ﴿ وصاكم ﴾ أي أمركم الله ﴿ به ﴾ أي باتباع دينهِ الذى لا إعوجاج فيه ﴿ لعلكم تتقون ﴾ أي لكي تخافوا منه تعالى وتجتنبوا الطرقَ المختلفةَ والسبلَ المضلةَ • واعلم أن ماذكر في هذه الآيات من الأحكام لم يختلف باختلاف الأمم • فقد رُوى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال هذه الآيات محكماتٌ في جميع الكتب وما فيه من الأحكام محرمٌ على بنى آدم كلهم • وهن أم الكتاب • من عمل بهنَّ دخل الجنة ومن تركهنَّ دخل النار • وقال كعب الأحبار رضي الله عنهُ والذي نفس كعب بيده ان هذه الآيات لأول شيء في التوراة • انتهى • أللهم اجعلنا من المتمسكين بها ووفقنا للعمل بأحكامها • آمين

الباب السادس

﴿ في تفسير ماورد فى سورة الاعراف وغيرها ﴾
﴿ الى سورة النحل من النواهى ﴾

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ يَا بَنِي آدمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ

مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

انه سبحانه وتعالى نهى عباده في هذه الآية الكريمة عن متابعة الشيطان وحذرهم من وسوسته فقال ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم ﴾ أي لا يوقعنكم ﴿ الشيطانُ ﴾ في الفتنة والمحنة بأن يمنعكم من دخول الجنة ﴿ كما ﴾ أي مثل ما ﴿ أخرج أبويكم ﴾ آدم وحواء ﴿ من الجنة ﴾ فان مَن قدَرَ على اخراج الأب من الجنة مع كمال قوته وقرب عهده من فيضان ربه . فهو أقدرُ على أولاده بالفتنة حتى يمنعهم من دخول الجنة بطريق الأولى . وانما أخرج الشيطانُ أبويكم من الجنة حال كونه ﴿ ينزعُ عنهما ﴾ أي كان سبباً في النزع عنهما ﴿ لباسهما ﴾ بوسوسته وغروره ﴿ ليريهما سوآتهما ﴾ أي عوراتهما والمعنى ليرى آدم عورةَ حواءَ وترى حواء عورةَ آدم . وكانا قبل وقوع المحنة بهما لا يرى بعضهم عورةَ بعض . فحذَّر الله عزَّ وجلَّ بني آدم وحثهم على الاحتراز من وسوسة الشيطان وغروره وتزيينه لهم الأفعال القبيحة وتحسينها في قلوبهم . فهذه فتنةُ التي نهى الله العباد عنها وحذَّرهم منها . ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ انه ﴾ أي ان الشيطانَ ﴿ يراكم ﴾ يا بني آدم ﴿ هو وقبيلهُ ﴾ أي هو وجنوده وذريتهُ ﴿ من حيث لا ترَوْنهم ﴾ وذلك أن الله تعالى خلق في عيون الجن ادراكاً

يرَوْنَ به الانس ولم يخلقْ في عيون الانس هذا الادراك . فلا يمكنهم حينئذ أن يرُوا الجن والجنُّ يرونهم .

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

﴿ أَلشَّيْطَانُ يَجْرِي مِنْ بَنِي آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ . وَجُعِلَتْ صُدُورُ بَنِي آدَمَ مَسَاكِنَ لَهُمْ إِلاَّ مَنْ عَصَمَهُ اللّٰهُ تَعالي ﴾ ويدل على هذا المعنى قوله تعالى (أَلَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ) . فهم يرَوْنَ بني آدَمَ وَبنو آدَمَ لاَ يَرَوْنَهم ﴾

فالعدوُّ اذا كان يراك ولا تراه فلا شكَّ أنهُ أشدُّ منك وقويٌّ عنك . ولايخفى مابين الشيطان و بنى آدم وذريته من العداوة القديمة التى لا تزول حتى في القيامة . وقدسلطهُ الله عليهم حتى أضلهم وأغواهم قال تعالى في سورة مريم (انا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزًّا) وهذا معنى قوله تعالى ﴿ انا جعلنا الشياطينَ أولياءَ ﴾ أى أعواناً وقرناءَ ﴿ للذين لا يؤمنون ﴾ فسلطناهم عليهم يزيدونهم غياً على غيهم بسبب ارسالهم عليهم وتمكينهم من التصرف في قلوبهم . أللهم احفظنا من كيد الشيطان وفتنته وثبتنا علي الدين القويم واسلكْ بنا في طريقته آمين

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون * واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم ﴾

يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود بني قريظة احدى وعشرين ليلةً فسألوه الصلح كما صالح اخوانهم بني النضير على أن يسيروا الى أذرعات وأريحاء من أرض الشام . فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعطيهم ذلك الا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل الينا أبا لبابة بن مروان بن المنذر وكان مناصحاً لهم لأن ماله وعياله كانوا في أيديهم . فبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم . فلما أتاهم قالوا يا أبا لبابة ما ترى هل ننزل على حكم سعد بن معاذ . فأشار أبو لبابة بيده الى حلقه وقال انه يعني ان حكم سعد بن معاذ هو الذبح . فلا تفعلوا قال أبو لبابة فوالله ما زالت قدماى عن مكانهما حتى علمت أني قد خنت الله ورسوله . ثم انطلق على وجهه ولم يأت رسول الله صلي الله عليه وسلم بل توجه الى المسجد وشد نفسه على سارية من سواريه . ثم قال والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي . فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم

خبره قال (أما لو جاءني لاستغفرت له . أما اذ فعل ما فعل فاني لا أطلقه حتى يتوب الله عليه) فمكث سبعة أيام لا يذوق طعاماً ولا شراباً حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقيل له يا أبا لبابة قد تاب الله عليك فحل نفسك . فقال لا والله لا أحل نفسي حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي يحلني فجاءه فحله بيده ثم قال أبو لبابة ان من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التى أصبت فيها الذنب . وأن أنخلع من مالي . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يجزيك الثلث أن تصدق به) فأنزل الله هذه الآية ونهى عباده فيها عن الخيانة في الأمانة فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي صدقوا بأرواحهم وقلوبهم المنورة بنور الايمان بالله ورسوله ﴿ لا تخونوا الله ﴾ بتعطيل فرائضه واحفظوا ما آتاكم من المواهب ولا تجعلوها شبكة لاصطياد الدنيا . ﴿ والرسول ﴾ أى ولا تخونوا الرسول أيضاً بترك السنة والقيام بالبدعة ﴿ وتخونوا ﴾ أي ولا تخونوا ﴿ أماناتكم ﴾ التى ائتمنكم الله عليها من فرائض الله تعالى وغيرها من حقوق العباد التى ائتمنوكم عليها . واعلموا أن دين الله أمانة فأدوا الى الله ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده . ومن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها . فقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (أد الأمانة الى من ائتمنك ولا تخن من خانك) . انتهى

ويدخل في الأمانة محبة الله تعالى . وخيانتها تبديلها بمحبة المخلوقات ﴿ وأنتم تعلمون ﴾ أن الخيانة من أقبح الرذائل وأسوئها

فلا تبيعوا الدين بالدنيا • ثم لما كان الداعي الى الخيانة هو حب المال والولد • نبه الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين أن يحترزوا من ذلك الحب فقال ﴿ واعلموا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ انما أموالكم وأولادكم فتنةٌ ﴾ أي أن أموالكم وأولادكم سبب في الوقوع في الفتنة التى هي الاثم أو العذاب أو هي محنةٌ من الله يختبركم بها لأجل أن يظهر لكم الموافق الى طريق الحق • والصديق من الزنديق • فيجب على العاقل أن يحذر من المضارّ المتولدة من حب المال والولد • لأن ذلك يشغل القلب ويصيره محجوباً عن خدمة الرب • وهذا من أعظم الفتن • فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهُ أُتي له بولد فقبله وقال (أما انهم مَبخلةٌ مجبنةٌ وانهم لمن ريحان الله) أي من رزقه • ثم انه تعالى بين لعباده المؤمنين أن سعادةَ الآخرة التى هي ثواب الله أفضل من سعادة الدنيا التى هي المال والولد فقال ﴿ واعلموا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ أن اللهَ عنده أجرٌ عظيمٌ ﴾ لمن أدّى الأمانةَ ولم يخنْ فيها فيجب عليكم حينئذٍ أن تتحروا في أمر المال والأولاد ما يخرجكم عن وصف الخيانة وذلك بالوقوف عند حد المطلوب ومراقبة علام الغيوب انتهى

﴿ تابع لما قبله من الآية الكريمة ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو

الفضلِ العظيمِ ﴾

رغب سبحانه وتعالى عباده المؤمنين في التقوى التي توجب ترك التغالي في حب الأولاد والأموال والخروج في ذلك عن حد الاعتدال فقال ﴿ ياأيها الذين آمنوا ان تتقوا الله ﴾ في ارتكاب الكبائر والاصرار على الصغائر ﴿ يجعل لكم ﴾ بسبب ذلك ﴿ فرقاناً ﴾ أى توفيقاً ونوراً في قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل • ويجوز أن يكون معناه يجعل لكم فرقاناً أي فارقاً بينكم وبين الكفار والاعداء في الأحوال الباطنة بسبب الاختصاص بالمعرفة الإلهية والهداية الربانية وانشراح الصدر وإزالة الغل والحسد والمكر وسائر الأخلاق الذميمة • وفي الأحوال الظاهرة بسبب إعلاء الكلمة والاظهار على أهل الأديان كلهم وفي أحوال الآخرة بالثواب الجزيل والمنافع الدائمة والتعظيم من الله والملائكة ﴿ ويكفرْ عنكم سيآتكم ﴾ أى ويستر عنكم في الدنيا ذنوبكم الصغائر ان فرطتْ منكم ﴿ ويغفرْ لكم ﴾ ذنوبكم الكبائر في دار الجزاء • فلا يفضحكم في الدنيا ولا في الآخرة ﴿ والله ذو الفضل العظيم ﴾ فاذا وعد بشيء وفّى به وليس لغيره فضل بجانب فضله فهو سبحانه وتعالى يتفضلُ على العبد بنفسه ولا ينظر الي عمل أو ثناء • وأما غيره من المخلوقات فانه لايقع منه الفضل الا بايجاد الله تعالى ولا يتفضلُ الا لغرض من الأغراض • كالثناء عليه أو الشفقة على غيره • فلا فضل فى الحقيقة الا لله سبحانه وتعالى • نسأله أن

لا يحرمنا من فضله . وأن يكفينا شرّ فتنةِ الأموال والأولادِ بكرمهِ وعدله . آمين

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾

اعلم أن الله تعالى بين في هاتين الآيتين ما كان عليه رؤساء اليهود والنصاري من الطمع والحرص على أخذ أموال الناس بالباطل تنبيهاً منه تعالى على أن من يسلكُ طريقَ هؤلاء الرؤساء فهو في غاية البعد من رحمة الله تعالى . ثم بين الله تعالى في هاتين الآيتين أيضاً وعيدَ من يجمعْ المال ولم يؤدِّ الحق الواجب فيه فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أى صدقوا بالله ورسوله ﴿ ان كثيراً من الأحبار ﴾ أي علماء اليهود ورؤسائهم ﴿والرهبان﴾ أي علماء النصاري ورؤسائهم

﴿ ليأكلون ﴾ أي ليأخذون ﴿ أموال النـاس بالباطل ﴾ أي بالوجه الذي لا يرضاه الشرعُ والعقل . وذلك أنهم كانوا يأخذون الأموال من الناس بطريق الرشوة لأجل تغيير الأحكام والشرائع والتخفيف فيها ﴿ ويصدون ﴾ أي ويمنعون النـاس ﴿ عن سبيل الله ﴾ أى عن دين اللهِ وهو دين الاسلام ويرشدونهم الى ما افتروهُ وحرفوه من عند أنفسهم بسبب أخذ الرشوة وهذه الآية الشريفة منطبقةٌ تمـام الانطباق على كثيرٍ من المسلمين بين أظهرنا فمنهم من يدعي التصوف وهو بعيد عنه كبعـد السماء عن الأرض ثم يكثر من الخلفاء والنقباء والدراويش ذُكوراً وإناثاً ويحضرون وهم غائبون . ويذكرون وهم غافلون . ويعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما لا يؤمرون . ومنهم من يدعي الولاية والمكاشـفة ويجرء على الغيب ولا يخشى العيب فيوهم الوصول الى مالم يصل اليـه الرسول بلى والله قد ضلوا وتاهوا (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو) . ومنهم من يدعي العلم والمعرفة ويظهر الزهد والورع ويقول ان الاشتغال بالدنيا سفهٌ وهم مع ذلك يتهافتون على الأموال ولا يبالون بحرام أوحلال ولكنهم يظهرون بمظاهر عالية تستميل القلوب وقلوبهم خاويةٌ من مراقبة علام الغيوب (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشهد الله على مافي قلبه وهو ألدُّ الخصام واذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلكَ الحرثَ والنسل والله لا يحب الفساد) ومنهم غير ذلك وكلها دعاوى يتخذها أهلها حبائل يصطادون بها البسطاءَ ويستعبدون أشقياء الفقراء

وينزعون ثروة الأغنياء من الأغنياء والدين من الكل براء . ثم انه تعالى لما بين قبح طريقة الأحبار والرهبان في الحرص على أخذ الأموال بالباطل نهى المسلمين عن ذلك وبين وعيدَ من جمع المال ومنع حقوق الله منه فقال ﴿ والذين يكنزُون ﴾ أى والذين يجمعون ﴿ الذهب والفضةَ ﴾ ويحفظونهما سواء كان ذلك بالدفن في الارض أو بغيره ﴿ ولا ينفقونها ﴾ أي ولا يؤدُّون زكاةَ ما جمعوه منها ﴿ في سبيل الله ﴾ أي في دينه وأمر شريعته ﴿ فبشرْهم ﴾ أى فأخبرْهم ﴿ بعذابٍ أليمٍ ﴾ أي مؤلمٍ . واعلم أن كلَّ مال أديتْ زكاته فليس بالكنز الذي نهى الله عنه ولا يحرم على صاحبه جمعهُ واكتنازُه وان كثرَ . وأن كل مال لم تؤدَّ زكاته فصاحبه معاقبٌ عليه وان كان قليلاَ اذا كان من المال الذى تجب فيه الزكاة بأن بلغ نصاب الزكاة ويستحق على منع الزكاة الوعيد من الله الا أن يتفضل الله تعالى عليه بعفوه وغفرانه . ويدل على ذلك ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (مامن صاحب ذهب ولا فضةٍ لايؤدِّي منها حقها الا اذا كان يوم القيامة صُفحت له صفائح من نار فأُحمي عليها في نار جهنم فيكوي جبينهُ وجنبهُ وظهرُه كلما فنيت أُعيدت له في يوم كان مقدارُه خمسين ألف سنة حتي يُقضي بين العباد فيري سبيله إما الى الجنة واما الى النار . انتهى

ثم قرأ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهمُ اللهُ من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌّ لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراثُ السموات والأرض والله بما تعملون خبيرٌ) وهذا كله معنى قوله تعالى ﴿ يوم يحمَى ﴾ أي وانما يعذبون بسبب جمع الأموال وعدم اخراج الحق الواجب منها يوم يحمى أى توقدُ النار ذاتُ الحرِ الشديدِ ﴿عليها﴾ أي على تلك الأموال المجموعة ﴿ فى نار جهنم ﴾ التى هي دارُ عذاب الكفار والعصاة ﴿ فتكوى بها جِباههم وجنوبهم وظهورُهم ﴾ وانما كانت هذه الأعضاء مخصوصةً بالكيّ دون بقيةِ أعضاءِ الجسم . لأن حصول الأموال يحصل به فرح في القلب ويظهر أثره على الوجه ويحصل به أيضاً شِبَعٌ ينتفخُ بسببه الجنبان ويحصل به أيضاً لُبسُ ثياب فاخرة يطرحونها على ظهورهم فعارضهم اللهُ تعالى بضد ذلك وانما كان الكيُّ بجميع أموالهم ولم يكن بقدر ما منعوه من حق الزكاة فقط لأنهم لما لم يخرجوا منها الحقَّ الواجب كان الجزء الذي وجب اخراجهُ في الزكاة شائعاً فيها كلها غير متميزٍ عنها فكان تعذيبهم بجميع أجزاء المال فيقال لهم على سبيل التوبيخ والمعارضة بضد ما قصدوه من جمع المال ﴿ هذا ما كنزتم ﴾ أي هذا المال الذي جمعتموه ﴿ لأنفسكم ﴾ أي لنفع أنفسكم فكان عينَ مَضرّتها وسبب تعذيبها ﴿ فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ أي فاعرفوا الآن كيف صارت عاقبة المال الذي كنتم تكنزونه في

الدنيا ومنعتم حق الله منه · انتهى *

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴾

اعلم أنه لما كانت مخالطة الأشرار وقرناء السوء لها مدخل عظيم في تغيير العقائد وتبديل الأخلاق المحمودة بالأخلاق المذمومة نهى الله تعالى عباده عن مخالطة كل من يضع الشيء في غير موضعه فقال ﴿ ولا تركنوا ﴾ أي لا تميلوا أدنى ميل بالمحبة والهوى ﴿ الى الذين ظلموا ﴾ أي الذين حدث منهم الظلم ﴿ فتمسكم ﴾ أي فتصيبكم ﴿ النارُ ﴾ بلهيبها وحرها ﴿ وما لكم من دون الله من أولياء ﴾ أي وليس لكم من غير الله أنصارٌ وأعوانٌ يقدرون على منعكم من عذابه ﴿ ثم لا تنصرون ﴾ أي ثم لا ينصركم هو أيضاً لأنه سبق في حكمه أزلاً أن يعذبكم بركونكم وميلكم الى الظلمة · واعلم أن الله تعالى حكم بأن من ركن الى الظلمة لا بدّ أن تمسه النار · والركون الذي نهى الله عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم وتحسين طريقتهم وتزيينها لغيرهم ومشاركتهم في شيء من أبواب الظلم · وأما مخالطتهم لدفع ضررٍ أو لجلب منفعةٍ عاجلة فغير منهيٍّ عنها · لكنها ليست جائزةً إلا

للضرورة وأما من طريق التقوى والورع فهي ممتنعة ويجب الاجتناب عنها بالكلية . لأن الله تعالى قد تكفل بمصالح العباد . وفي قوله تعالى فتمسكم النار اشارة الى أن الظلمة أهل النار بل هم النار أو كالنار . قال تعالى في حقهم ﴿ أولئك ما يأكلون في بطونهم الا النار ﴾ ولا يخفى أن مصاحبة النار لاشك توجب مس النار . وفي هذه الآية دلالة على أن القليل من الميل الى من حدث منه شيء من الظلم يوجب هذا العقاب . فاذا كانت مخالطة من يحدث منه قليل الظلم موجبة للعقاب فما ظنك بمن يميل الى الراسخين في الظلم والعدوان ميلا عظيما ويتهالك على مصاحبتهم ومسامرتهم بالمؤانسة ويسعي كل السعي في التوصل الى معاشرتهم كما عمت به البلوى وكثرت بسببه المصايب في زماننا هذا . انتهى

قال النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ مَنْ أَعَانَ ظَالِماً لِيَدْحَضَ بِبَاطِلِهِ حَقّاً فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللّٰهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ ﴾

وكفى بذلك زجراً ووعيداً شديداً لمن ركن الى الظلمة أو رضي بأعمالهم أو أحبهم . نعوذ بالله من الظلم وأهله ونسأله أن يوفقنا جميعاً للعدل وأن يحشرنا في زمرة أهله . آمين

الباب السابع

﴿ في تفسير ما ورد في سورة النحل وما يليها من السور ﴾

﴿ الى سورة القصص من النواهي ﴾

قَالَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ وَقَالَ اللّٰهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللّٰهِ تَتَّقُونَ * وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللّٰهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ * ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ * لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

اعلم أن الله تعالى نهى عباده في هــذه الآيات عن الشرك به وبينَ لهم فيها أنَّ كلَّ ما سواه تعالي سواء كان من عالم الأرواح أو من عالم الأجسام فهو ملكه ومخلوقٌ له وأنه غنيٌّ عن الكل فقال جل شأنهُ ﴿ وقال الله ﴾ تعالى لجميع عباده المكلفين ﴿ لا تتخذوا

إلهين اثنين ﴾ أي لاتتخذوا أيها الناس معي شريكاً في الألوهية ولا تعبدوا معبودَين لأنكم اذا عبدتم معي غيري فقد جعلتم لي شريكا ولا شريك لي ﴿ انما هو إلهٌ واحدٌ ﴾ أي انما المعبود الهٌ واحد وأنا ذلك الاله المعبود • ثم ان كنتم راهبين وخائفين من شيء ﴿ فاياي فارهبون ﴾ أي فاياي فاتقون وخافوا من عقابي بسبب معصيتكم لي ان عبدتم غيري أو أشركتم في عبادتكم لي شريكاً فأنا المعبودُ الواحدُ ﴿ وله ما في السموات والأرض ﴾ أي وله ماثبت في السموات والأرض من كل شيء ملكاً وخلقاً لا شريك له فيه • فهو الذي خلقكم وهو الذي يرزقكم و بيده حياتكم وموتكم ﴿ وله الدينُ واصباً ﴾ أي وله الطاعة والاخلاص دائماً ثابتاً واجباً ﴿ أفغيرَ اللهِ تتقون ﴾ أي أفيليقُ بكم أيها الناس أنكم تخافون غيرَ الله وترغبون فيه وتحذَرون أن يَسلبكم نعمة الله عليكم • مع أن كل ما سواه عاجزٌ لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فلا تتقوا غير اللهِ وأخلصوا العبادةَ له • فانه ليس لكم من نافع سواه ﴿ وما بكم من نعمة فمن اللهِ ﴾ أي وما يكن بكم أيها الناس في أبدانكم من عافية وصحة وسلامةٍ وفي أموالكم من نماء وكثرة فالله هو المنعم عليكم بذلك لاغيره لأن ذلك لا يمكن الا منه سبحانه وتعالى واعلم أن أفضل النعم نعمة الايمان والاسلام • والنعمةُ اما دينيةٌ وهي معرفةُ الحق لذاته ومعرفة الخير لأجل العمل به • واما دُنيويةٌ نفسانيةٌ و بدنيةٌ أو خارجيةٌ وذلك كالسعادات المالية وغيرها كالاولاد وكلٌ واحد من هذه الاشياء كليٌّ تحته أنواع لا حصرَ لها • وهي كلها من الله

تعالى • قال تعالى ﴿ وان تعدُّوا نعمةَ الله لا تحصوها ﴾ فيجب على العاقل أن لاَ يشكر أحداً الا اللهَ تعالى • فان شكره يزيد النعمة ويذهب النقمة ثم انه تعالى بين تلوُّن حال الانسان بعد استغراقه في بحار نعم الله تعالى فقال ﴿ ثم اذا مسكمُ الضرُّ ﴾ أي ثم اذا أصابكم في أبدانكم سُقمٌ أو شدةٌ من ضيقِ عيشٍ ﴿ فإليه تجأرُون ﴾ أي فالى الله تعالى ترفعون أصواتكم بالدعاء وتستغيثون به ليكشف ذلك عنكم ﴿ ثم اذا كشفَ الضرَّ عنكم ﴾ أي ثم اذا رفع عنكم البلاء ووهب لكم الصحةَ وغيرها من النعم ﴿ اذا فريقٌ منكم بربهم يشركون ﴾ أي اذا جماعةٌ منكم يجعلون لله شريكاً بنسبة النعمة الى غيره وكذا بنسبة الضر الى الغير والإستعانة في رفعه به • وفي الحديث القدسيّ (أنا والجن والانس في نباء عظيم • أخلقُ ويُعبَدُ غيري • وأرْزُقُ ويُشكر غيري) • انتهى وذلك هو كفران النعمة والغفلةُ عن المنعم المشار اليهما بقوله تعالى ﴿ ليكفروا بما آتيناهم ﴾ أي ليجحدوا بما أعطيناهم من نعمة كشف الضرّ عنهم • فكأنهم جعلوا غرضهم من الشرك كفران النعمة وانكار كونها من الله عز وجل • ثم انه تعالى هدَّدَ المنكرين وأعلمهم بنهاية السخط والغضب • عليهم بقوله ﴿ فتمتعوا فسوف تعلمون ﴾ أي فتمتعوا بهذه الحياة الدنيا وزينتها الى أن تُوَفوا آجالكم وتبلغوا الوقت الذي تنتهي به حياتكم • فانكم بعد ذلك ستصيرون الى ربكم فسوف تعلمون عند لقائهِ وبالَ ما كسبتْ أيديكم • وتعرفون سوء عاقبةِ أمركم وتندمون حين لا ينفعكم الندم • انتهى

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾

اعلم أن لكل خُلُقٍ من الأخلاق طرف إفراط . وهو الخروج عن الحد . وطرفَ تفريط . وهو التقصير عن الشيء مع القدرة عليه وهما مذمومان . ولما كان الانفاق يوجد فيه طرفُ التفريط وهو البخل وطرفُ الافراط وهو التبذير . وهما مذمومان نهانا الله عن سلوك واحد منهما وعلمنا أدبَ الانفاق . وهو العدل والتوسط بين هذين الطرفين فقال ﴿ ولا تجعل يدكَ مغلولةً الى عنقك ﴾ أي ولا تجعل يدكَ في انقباضها وبخلها بالانفاق كاليدِ المغلولةِ الممنوعة من الانبساط ﴿ ولا تبسطها كلَّ البسط ﴾ أي ولا تتوسع فى الانفاق توسعاً مفرطاً حتى لا يبقى بيدك شيء . ثم لما نهى سبحانه وتعالى عن طرفي الافراط

والتفريط المذمومين بين عاقبةَ استعمالهما بقوله ﴿ فتقعدَ ﴾ أي فتصيرَ ﴿ ملوماً ﴾ أي موبخاً معنَّفاً عند الله وعند الناس وعند نفسك بسبب البخل ﴿ محسوراً ﴾ أي نادماً على الاسراف ومنقطعاً عن المقاصد بسبب الفقر • ثم انه سبحانه وتعالى بين لنبيه صلى الله عليه وسلم على سبيل التسلية أن الذي يصيبهُ من عدم السعةِ ليس لهوانهِ ونقص قدره عند الله ولا لبخلٍ به عليه فقال ﴿ ان ربكَ ﴾ يا محمد ﴿ يبسطُ ﴾ أي يوسع ﴿ الرزق لمن يشاء ﴾ أن يوسعه عليه ﴿ ويقدر ﴾ أي ويضيق الرزق على من يشاء أن يضيقه عليه وذلك على حسب ماتتعلق به مشيئتهُ التابعةُ للحكمة الأزلية • فليس ما يصيبك من القلة التي تحوجك الى الاعراض عن السائلين أو نفاد ما في يدكَ اذا بسطتها كل البسط الاوفيه مصلحتك ﴿ انه كان بعباده خبيراً بصيراً ﴾ فهو سبحانه وتعالى مع كمال قدرتهِ وسَعةِ جوده يراعي أوسط الحالين اللذين هما الإفراط والتفريط وفي هذه الاية دليل على أنه تعالى هو المتكفل بأرزاق العباد فلهذا قال بعد تلك الآية ﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشيةَ إملاقٍ ﴾ أي خوف فقرٍ ﴿ نحن نرزقهم واياكم ﴾ تقدم بيانه في سورة الانعام • ثم انه تعالى حركَ بهذا الخطاب الرفيع عواطف الشفقة الغريزية في الآباء على الأبناء فانها فطرةٌ لهم بخلاف الابناء وهذا كما قال بعضهم هو السر في توصية الله تعالى الأبناء بالآباء دون عكسهِ وقد تكفل هذا النهي بحفظ نظام العالم وبقاء النوع الانساني واذا كان هذا غاية النهي يجب أن يطاع وأن لا يكون

مقصوراً على السماع ومن أعرض عن محبة الولد فكأنه أعرض عن جزائه تعالى • انتهى

ثم انه تعالى ختم هذه الآية بالمبالغة في النهي عن قتل الأولاد فقال ﴿ ان قتلهم ﴾ أي ان قتل الأولاد ﴿ كان خطأً كبيراً ﴾ أي ذنباً عظيماً • ولما نهى الله سبحانه وتعالى عن قتل الاولاد الذي ينشأ عنه فناء النسل وانقطاعه نهى عباده عن الزنا الذي يؤدي الى مثل ذلك والى اختلاط الانساب فقال ﴿ ولا تقربوا ﴾ أيها العباد ﴿ الزنا ﴾ بمباشرة ما يوقعكم فيه فضلاً عن مباشرته بنفسه ﴿ انه كان فاحشةً ﴾ أى انه كان فعلةً قبيحةً متزايدةً في القبح ﴿ وساء سبيلاً ﴾ أى وبئس طريقاً طريقهُ لأنه يؤدى الى اختلاط الانساب وتضييع الأولاد • وبالجملة فقد أجمعت كل الملل المعتبرة على قبح الزنا ولم يحل فى شريعةٍ من الشرائع القديمة أصلاً لما ينشأ عنه من هيجان الفتن وهتك الأعراض •

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

﴿ إِيَّاكُمْ وَالزِّنَا فَإِنَّ فِيهِ سِتَّ خِصَالٍ ثَلَاثًا فِي الدُّنْيَا وَثَلَاثًا فِي الْآخِرَةِ * فَأَمَّا الَّتِي فِي الدُّنْيَا فَذَهَابُ الْبَهَاءِ وَدَوَامُ الْفَقْرِ وَقِصَرُ الْعُمْرِ * وَأَمَّا الَّتِي فِي الْآخِرَةِ فَسُخْطُ

اللهِ تعالى وَسوءُ الحِسابِ والخلودُ في النَّارِ [1] ﴾ انتهى

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ وَلاَ تَقتلُوا النَّفسَ الَّتي حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فقدْ جعلنا لِوَليِّهِ سلطاناً فلاَ يُسرِفْ في القَتلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً * وَلاَ تقرَبُوا مَالَ اليَتيمِ إلاَّ بالَّتي هِيَ أحسنُ حتَّي يَبلُغَ أشُدَّهُ وَأوفوا بالعَهدِ إنَّ العَهدَ كانَ مسؤُلاً * وَأَوفوا الكَيلَ إِذَا كِلتُمْ وَزِنُوا بالقِسطاسِ المُستَقيمِ ذٰلِكَ خيرٌ وَأَحسَنُ تأويلاً ﴾

لما نهى الله تعالى عباده عن الزنا أتبعه بالنهي عن القتل الذي هو أكبرُ الكبائر بعد الشرك بالله تعالى فقال ﴿ ولا تقتلوا ﴾ أيها العباد ﴿ النفس التي حرَّمَ الله ﴾ قتلها ﴿ الا بالحق ﴾ وتقدم بيان ذلك في سورة الأنعام . واعلم أن الأصل في القتل هو الحرمةُ المغلظةُ ولا يَثبتُ حِله إلا بثلاثةِ أسبابٍ متفقٍ عليها عندجميع الأئمة أو بأسباب

(١) والمراد من الخلود فى النار هنا هو الكناية عن كثرة المكث أو محمولٌ على من استحل الزنا واستمر على ذلك من غير توبة الى الممات

أخرى مختلف فيها عندهم وقد بينوها في كتب الفقه مفصلة فأما الاسباب الثلاثة التى اتفقوا عليها وثبتت في السنة فهي الكفر بعد الايمان والزنا بعد الاحصان وقتل المؤمن عمداً . والحكمة في حرمة القتل من عدة وجوه . الوجه الأول أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (الآدمي بنيان الرب ملعون من هدم بنيان الرب) . الوجه الثاني أن الآدمي مخلوق للاشتغال بالعبادة كما قال تعالى (وماخلقت الجن والانس الاليعبدون ما أريد منهم من رزق وماأريد أن يطعمون) وقال النبي عليه الصلاة والسلام (حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً) . ولا ريب أن الاشتغال بالعبادة لا يتم الا عند عدم المقاتلة بين الناس . الوجه الثالث أن القتل افساد وضرر عظيم ولا يخفى أن الافساد والضرر القليلين ينشأ عنهما فساد في مصالح العالم فكيف بالضرر والفساد العظيمين . ثم ان الله تعالى بين واحداً من أسباب القتل الثلاثة وهو القتل عند القصاص فقال ﴿ ومن قتل مظلوماً ﴾ أي ومن قتل بغير حق يوجب قتله أو يبيحه ﴿ فقد جعلنا لوليه ﴾ أي فقد جعلنا لمن يتولى أمر المقتول من الوارث أو الحاكم عند عدم الوارث ﴿ سلطاناً ﴾ أي تسلطاً واستيلاء على القاتل فيؤاخذه بالقصاص ان لم يعف عنه أو بالدية ان عفى عنه وهذا في القتل العمد وأما القتل خطأ فلا تسلط لولي المقتول على قاتله الا في الدية فقط وهي إما مغلظة أو مخففة على حسب ما تقتضيه جنايته ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ فلا يسرف ﴾ الولي ﴿ في القتل ﴾ أي في أمر القتل

بأن يتجاوزَ الحدَّ المشروعَ فيزيدُ على القتل مثل تمزيق بطن المقتول أو قطع جسمهِ أجزاءً أو يقتل واحداً من أقارب القاتل أو يقتل الاثنين مكان الواحد • كما كانت تفعله الجاهلية • ولا يجوز لغير الوليِّ أن يقتصَّ من القاتل أصلاً • حتى أن القاتل الذي وجب عليه القصاص اذا قتله غير وليِّ المقتول فانه يُقتصُّ منه ويُقتل فيه ولا ينفعه قول وليِّ المقتول أنا أمرتهُ بأن يقتله بدلاً عني ما لم يكن أمره باستيفاء القصاص بحضور جماعةٍ • ثم انه تعالى ختم هذه الآيةَ بتعليل النهي عن القتل فقال ﴿ انه كان منصوراً ﴾ أي ان الولي نصره الله تعالى على القاتل • فأوجب له القصاص من القاتل أو الديةَ • وأمرَ سبحانه وتعالى الحكام بمعونته في استيفاء حقه فلا يطالب فوق حقه ولا يخرج عن دائرة أمر الناصر • ثم ان الله تعالى لما نهى عن اتلاف النفوس أتبعه بالنهي عن اتلاف الأموال لأنها أعزُّ الأشياء بعد النفوس ولما كان اليتيم لصغره وضعفه وكمال عجزهِ يعظمُ ضررُه باتلاف ماله فكان أحق الناس بالنهي عن اتلاف مالهِ • فلهذا خصه الله تعالى بالنهي عن اتلاف ماله فقال ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتي هي أحسن حتى يبلغَ أشده ﴾ تقدم بيانه في سورة الأنعام • ثم انه تعالى ذكر بين هذه النواهي ثلاثةً من الأوامر • ولما كانت مرتبطةً بهذه النواهي لا يمكننا فصلها عنها أحببنا عدم ذكرها في قسم الأوامر وسنذكر تفسيرَها هنا فنقول • الأمر الأول هو قوله تعالى ﴿ وأوفوا بالعهد ﴾ أي وقوموا بمقتضى العهد وحافظوا عليه • سواء جرى بينكم

وبين ربكم أوجرى بينكم وبين بعضكم . والمراد بالعهد كلُّ عقد جرى بين العبد وربه كالايمان والنذور . أوجرى بينه وبين انسان آخر على وفق الشرع وقانونه . وذلك كجميع المعاملات التجارية في الأخذ والإعطاء والمناكحات وغيرها . فكل عقد وعهدٍ جرى بين العبد وربه أو بينه وبين انسان آخر فانه يجب عليه الوفاء به الا اذا دلّ دليلٌ شرعيٌّ على أنه لا يجب الوفاء به . وقد مدحَ الله تعالى الموفين بالعهود في مواضع كثيرةٍ من القرآن . فمنها قوله تعالى (والموفونَ بعهدالله اذا عاهدُوا) وقوله تعالى (والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم على صلواتهم يحافظون أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوسَ هم فيهاخالدون) ونحوذلك من الآيات الدالة على وجوب الوفاءبالعهد وعلى مدح الموفين به . ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ ان العهد ﴾ أي ان صاحبَ العهدِ ﴿ كان مسؤلاً ﴾ عنه فى يوم الحساب عند الله تعالى فالمطلوب من المعاهد أن لا يضيعه ويقوم بحق القيام . والامر الثانى والثالث من الأوامر المذكورة اللذين هما الأمرُ بايفاء الكيل فيما يكالُ وإيفاء الوزنِ فيما يوزنُ مذكورانِ فى قوله تعالى ﴿ وأوفوا ﴾ أى وأتموا أيها العباد ﴿ الكيلَ ﴾ ولا تنقصوه ﴿ اذا كلتم ﴾ أي وقتَ كيلكم للمشترين ﴿ وزنوا بالقسطاس ﴾ أي بالقبانِ وهو الميزانُ الكبيرُ ﴿ المستقيم ﴾ أي العدل الصحيح المستوي الذي لا يميلُ الي أحد الجانبين ﴿ ذلك ﴾ الذي ذُكر من إتمامِ الكيلِ والوزنِ ﴿ خيرٌ ﴾ في الدنيا لأنه أمانةٌ توجب الرَّغبةَ

في معاملة من يعدل فيه وتوجب له الذكر الجميلَ والاطمئنان التام والراحةَ بين الناس ﴿وأحسنُ تأويلا ﴾ أى وأحسن عاقبةً في الآخرة وقد ذكر اللهُ تعالى الوعيدَ الشديدَ في نقصان الكيل والميزان في قوله تعالى (ويلٌ للمطففينَ الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون) واعلم أن نقصان الكيل والوزن قليلٌ . والوعيدَ عليه من الله سبحانه وتعالى شديد . والعار فيه عظيم فيجب على المسلم العاقل أن يحترز منه . ليحصل له الخير الوافر فى الدنيا ويفوز بحسنِ العاقبة فى الآخرة . أما حصول الخير له في الدنيا . فلأنه اذا اشتهر بالاحتراز عن الخيانة وحسن المعاملة والامانة مالت القلوب اليه . وعولَ الناسُ في الأخذ والإعطاء عليه . فينفتح عليه أبواب الخيرات من المكاسب . وأما حسن عاقبته فى الآخرة فانه يحفظ من الوعيدِ الشديد الذي أوعد الله به المائلين عن الحق في الكيل والميزان . ويعطي بدله حسنَ الجزاء الوافر الذي وعدالله به القائمين بالعدل فيهما . وانما عظُمَ الوعيد في نقص الكيلِ والميزان لأن جميع الناس في شدة الاحتياج الى المعاوضات والبيعِ والشراء وقد يكونُ الانسان غافلاً لا يهتدي الى حفظ ماله . فالله سبحانه وتعالى شدّدكل التشديد في النهي عن النقصان حفظاً للأموال على أهلها . ومنعاً من تلطيخ النفس بسبب سرقة ذلك المقدار . قليلاً كان أو كثيراً . فاذا امتثل العبد ما أمره الله به من اتمام الكيل والميزان واجتنبَ ما نهاه عنه من نقصانهما تخلصت نفسه بواسطةِ

ذلك عن الذكر القبيح في الدنيا . وسلمت من العقاب الشديد في الآخرة . فقد رأينا كثيراً من الفقراء لما اشتهروا عندالناس بالأمانة والاحتراز عن الخيانة . أقبلت القلوب عليهم وحصلت الأموالُ الكثيرةُ لديهم فأصبحوا أغنياء في زمن قليل . وحيث حقق الله لهم وعده في الدنيا فلابدَّ أنه تعالى يتفضل عليهم باكرامهم في الآخرة بالثواب العظيم والخلاص من العذاب الأليم . انتهى

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً * وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً * كُلُّ ذٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً * ذٰلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلٰهاً آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً مَدْحُوراً ﴾

اعلم أنه تعالى لما شرح الأوامر الثلاثة عاد بعد ذلك الى ذكر النواهي فنهي عن ثلاثة أشياء . أولها النهي عن قول الرجل مالا يعلم أو اخباره وعمله بحكم لا يكون معلوماً له . وذلك مذكور في قوله تعالى

﴿ ولا تقفُ ما ليس لك به علم ﴾ أي ولا تتبع مالا علم لك به من قول أو فعل . فلا تكن في اعتقاداتك مقلداً فيها . بل اسلكْ طريقَ الحق فيما يتعلق بالإله والأنبياء . والتحليل والتحريم والمعاد ولا تشهدْ الا بما رأتهُ عيناكَ وسمعتهُ أُذُناكَ ووعاه قلبك . فلا تقل سمعتُ ولم تسمع . ورأيتُ ولم ترَ . وعلمتُ ولم تعلم . ولا تذكر أخاك في غيبته أو حضوره بما يسوءه .

قال النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ مَنْ قفا مؤمناً بما ليسَ فيهِ حبسهُ اللهُ (١) في رَدَغةِ الخبالِ حتّي يأتي بالمخرجَ ﴾ أى حتى يتوب

وحاصل معنى ما تقدم أن الله تعالى كأنه يقول ولا تكن في اتباع مالا علم لك به من قول أو فعل كمن يتبع مَسلكاً لا يدري أنهُ يوصله الى مقصده أم لا ﴿ ان السمعَ والبصرَ والفؤاد كلُّ أُولئك ﴾ أي كل واحدٍ من تلك الاعضاء ﴿ كان عنه مسؤلاً ﴾ أى كان كل واحد منها مسؤلاً عن نفسهِ . والمراد أن الله تعالى يخلقُ الحياةَ في تلك الأعضاء . ويخلق فيها العقل والنطقَ . ثم انه تعالى يوجه السؤال اليها . فيقول للسمع هل استعملك صاحبك في الطاعة أو في المعصية

(١) الحبس هنا كناية عما يحصل له في الآخرة من الاهانة والتضييق عليه بأنواع العذاب

وكذا السؤال للبصر والفؤاد . وهذا التفسير ليس ببعيد لأنه ثبت في القرآن أنه تعالى يخلق الحياةَ في جميع الأعضاء . ثم انها تشهد على الانسان . والدليل على ذلك قوله تعالى (يوم تشهدُ عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون) والثاني من هذه النواهي الثلاثة هو النهي عن مشيةِ أهل الكبر . وهذا مذكور في قوله تعالى (ولا تمش في الأرض مرحاً) أي تكبراً واختيالاً وتفاخراً ﴿ انك لن تخرقَ الأرض ﴾ أي انك لن تثقب الأرض بمشيك عليها بأطراف قدميكَ متكبراً ﴿ ولن تبلغ الجبال ﴾ التي هي بعض أجزاء الأرض ﴿ طولاً ﴾ أي علواً حتى يمكنكَ أن تتكبرَ عليها لأن التكبر في الأرض انما يكون بسبب شدة القوة وعظم الجثة وهما مفقودان منك فأنت ضعيف عاجز لا تقدرُ علي خرق الأرض وثقبها . ولا تقدر على أن تصل الى رؤس الجبال طولاً . فلا يليق بك التكبر بل تواضع ولاتتكبرْ فانك خَلْقٌ ضعيفٌ من خلق الله المحصورين بين حجارةٍ وتراب فلا تفعل فعل المقتدر القوي . واعلم أن هذه الآيةَ الكريمة من أهمّ نصائح القرآن الأدبية لأنها ترشد عقول الأذكياء من المسلمين الى الطرق التي يقدرون بها على قهر النفس الأمارة وجذبها من حضيض الكبر الى علوّ التواضع . وبيان ذلك أنهم لو تأملوا في الأرض وفيما تحمله ونظروا فيما يمشي عليها من عظيم الجثة وحقيرها لعلموا أن أعظم انسان في القوة والجثة لا يؤثر قدمهُ فى الأرض حال مشيه عليها أدنى أثر بل يساوى في

التأثير مشي النمل ونحوه من المخلوقات الصغيرة على ظهر الأرض • فكأن الله تعالى يقول ياعبدى اذا كنت مع شدة كبرك وفخرك بالحياة الدنيا وتعاظمك فوق أرضي سواء كنت مغروراً بقوة جسمك أو بقوة جاهك ورتبتك وغناك من الأمور التي تفني في أقرب زمن بفناء جسمك لا تقدر أن لاتؤثر فى الأرض حال مشيك عليها أدنى تأثير فكيف لا تعتبر بذلك ولم تنزجر بل تمشي فوق أرضي بكل كبر وتجبر وافتخار فتظلم من تراه أضعف منك ولم تبال من أحد حال وجودك فوق أرضي كأنك قوي تقدر على خرقها بقدميك عند مشيك عليها متكبراً • ألم تعلم أيها المسكين أنك ضعيف عاجز لافرق بينك وبين أصغر مخلوقاتي • فلو سلطت عليك بعوضة أو نحوها من الحيوانات الضعيفة لا تقدر أنت وجميع الأطباء على مقاومته ودفع ضرره بل يهلكك فى أقرب وقت فكيف لاتستحي من عظمتي وتمشي فوق أرضي متكبراً مفتخراً ولم تفتكر فى كل خطوة من خطواتك خالق هذه الأرض وما أبدع فيها بقدرته من عجائب المخلوقات والنعم المتنوعة والزينة الفاخرة المختلفة فى ظاهرها وما أوجد فى باطنها من الذهب والفضة وغيرهما من المعادن النفيسة والنعم العجيبة المتنوعة التي ينشأ عنها قوام الدنيا وزينتها • فاللائق بك أن تمشي عليها بكل أدب وتفكر فى عجائب صنع خالقها وكمال قدرة موجدها حتى تكون من المقبولين الفائزين عندي ولاتكن مثل فرعون ونمرود وغيرهما من الجهلة الجبابرة الذين أوقعهم الكبر فى هاوية العذاب

فتندم في العاقبة كما ندموا حيث لا ينفع الندم . وقد آن لنا أن نبين حقيقة الكبر وآفته وأسبابه وما ورد في ذمه من الكتاب والسنة فنقول . اعلم أن الكبر خلقٌ دفينٌ في النفس لا يظهر الا بأعمال تصدرُ عن الجوارح . وذلك الخلقُ عبارةٌ عن الفرح والركون الى رؤية النفس مرتفعةً عن غيرها من الخلق حتى إن المتكبر يرى نفسه زائداً عن غيره في صفات الكمال فيرى لنفسه مرتبةً ولغيره مرتبةً . ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره فاذا كملت فيه هذه الاعتقادات الثلاثة حصل له خُلقُ الكبر لأن هذه الاعتقادات الثلاثة تنفخُ فيه فيحصلُ في قلبه استعداد وهزةٌ وفرحٌ وميلٌ الى ما اعتقده وعزٌّ في نفسه . فهذه العزةُ والهزةُ والركون الى ما اعتقده هي خُلقُ الكبر . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض دعائه (أعوذ بك من نفخة الكبرياء) فالانسان كلما رأى نفسه بهذه الحالة وهي الاستعظام تكبر وانتفخ تعززاً . فالكبرُ عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات . وتسمى أيضاً عزةً ونعظماً . ثم ان هذه العزة تقتضي أمراً . وهو أن الانسان مهما عظمَ عنده قدره بالنسبة الى غيره حقر من يراه أقل منه . وأبعده عن نفسه . وترفع عن مجالسته ومؤاكلته . واذا اشتدَّ كبرُه رأى أن ذلك الغير حقه أن يقوم ماثلاً بين يديه . ثم ان كان كبره أشد من ذلك تعاظم عن استخدامه ولم يجعله أهلا للقيام بين يديه . ولا لخدمةِ عتبته . وان كان ذلك الغيرُ ليس أقلَّ منه . بل هو مساوٍ له في الحقيقة أ نفَ

من مُساواته • وتقدم عليه في مضايق الطرق وارتفع عليه فى المحافل وانتظرَ أن يبدأه بالسلام أو الزيارة والاستفهام عن حاله واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه • وان حاجَّه أو ناظرَه أنفَ أن يردَّ عليه • وان وُعظَ استنكف من القبول • وان وَعظَ عنَّف وزجر في النصح • وان رُدَّ عليه شيء من قوله غضب • وان علَّم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتنَّ عليهم واستخدمهم • وينظر الى العامة كأنه ينظر الى الحمير استجهالاً لهم واستحقاراً بهم • وبالجملة فالأعمال التى تصدرُ عن خلق الكبر أكثر من أن تحصى فلا حاجة الى التطويل • فانها مشهورة فهذا هو الكبر • وآفتهُ عظيمةٌ وغائلتهُ هائلةٌ • وبها يهلك الخواص من العباد وقلما يسلم من الكبر العبادُ والزهادُ والعلماء فضلاً عن عوامّ الناس • وكيف لا تعظُمُ آفته وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم (لا يدخل الجنة مَن في قلبه مثقال ذرَّة من الكبر) وانما صار الكبرُ مانعاً من دخول الجنة لأنه يحول بين العبد وبين الأخلاق المحمودة كلها والأخلاقُ المحمودةُ هي أبواب الجنة • والكبر وعزةُ النفس يغلق تلك الأبواب كلها لأن صاحبه لايقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العزة ولا يقدر على التواضع الذي هو رأس أخلاق المتقين • وفيه شيء من العزة • ولا يقدر على ترك الحقد والغضب وفيه العزةُ • ولا يقدر أن يداوم على الصدق وعلى كظم الغيظ وفيه العزةُ ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العزة ولا يقدر على النصح اللين ولا على قبوله

من أحد وفيه العزة ولا يسلم من استحقار الناس ومن الوقوع فى أعراضهم وفيه العزة . وبالجملة ما من خلق ذميم الا وصاحب العزة والكبر مضطر اليه ليحفظ به عزه . وما من خلق محمود الا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه . ولذلك لم يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة منه . وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له . وأكثر الآيات القرآنية التى فيها ذم الكبر والمتكبرين واردة فيه . قال الله تعالى (سَأَصْرِفُ عن آياتيَ الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) قال جريج معناه سأصرف المتكبرين عن أن يفتكروا في آيات الله ويعتبروا بها ولذلك قال المسيح عليه السلام (ان الزرعَ ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا) أي على الحجر كذلك الحكمة تؤثرُ فى قلب المتواضع ولا تؤثر في قلب المتكبر . ألاَ ترونَ أن من شمخ أى ارتفع برأسه الى سقف شحه ومن طأطأ أظله وأكنه . فهذا مثل ضربه المسيح عليه السلام للمتكبرين . وبين فيه أنهم محرومون من الحكمة . ثم اعلم أن الانسان خلق ظلوماً جهولاً . فتارةً يتكبر على الخلق . وتارة يتكبر على الخالق . فالتكبر ثلاثةُ أقسام . القسم الأول التكبر على الله . وهو أفحش أنواع الكبر . وليس له سبب الا شدة الجهل والطغيان . مثل ما وقع من النمرود فانه كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء . وكما يحكى عن كل من ادعى الربوبية . مثل فرعون فانه لشدة تكبره قال أنا ربكم الأعلى لأنه تعاظم عن أن يكون عبد الله

وقد قال تعـالى فيه وفي أمثاله (انَّ الذين يستكبرونَ عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)والقسم الثاني التكبر على الرسل صلوات الله وسلامه عليهـم أجمعين من حيث تعاظم النفس وتعززها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس . وهذا التعزز تارة يصرف صاحبه عن التفكر والنظر بعين البصـيرة فيبقى في ظلمة الجهل بسبب كبره فيمتنع عن الانقياد الى مايدعوه اليـه الرسول وهو ظانٌّ أن له الحق في ذلك الامتناع . وتارةً يكون عارفاً بالحق ولـكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل كما حكي الله عنهم بقوله تعالى (ولئن أطعتم بشراً مثلـكم انكم اذاً لخاسرون) وهذا التـكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وان كان أقل منـه ولـكنه تكبر على قبول أمر الله تعالى والتواضع لرسلهِ . والقسم الثالث التـكبر على غير الرسل من بقية العباد . وهو أن الانسان يستعظم نفسه و يستحقر غيره فيمنع نفسـه من الانقياد له وتدعوه الى الترفع عليه . فيستصغرُه و يتعاظم على مساواته وهذا الـكبر عظيمٌ من وجهين . أحـدهما أن الـكبر والعز والعظمة لا يليق الا بالملك القادر . وأما العبـد الضعيف العاجز المملوك الذي لا يقدر على شيءٍ من أينَ يليق بحاله الـكبر . فمها تكبر العبد فقـد نازَع الله تعالى في صـفةٍ لا تليق الا بجلاله . فما أعظم استحقاقه للمقت والخزيِ والنكال . وما أشـد جراءتهُ على مولاه وما أقبح ما تعاطاه . والى هذا المعنى أشار تعـالى في الحديث القدسي بقوله (العظمةُ إزارِي . والـكبرياء رِدائي . فمن نازعني فيهـما قصمتهُ

ولا أبالي) يعني أن العظمة والكبرياء من الصفات التي لاتليق الا بي والمنازع فيهما منازع في الصفات الخاصة بجلالي . واذا كان الكبر على العباد لا يليق الا به تعالى فمن تكبر عليهم فقد اعتدى عليه تعالى ونازعه في صفاته الخاصة به • وثانيهما أن التكبر على غير الرسل من العباد يدعو الى مخالفة الله تعالى في أوامره •لأن المتكبر اذا سمع الحق من عبد من عبيد الله تعالى تعاظم على قبوله واجتهد في انكاره ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين مع أنهم يتسارعون في الانكار مسارعة المتكبرين وكلما اتضح الحق على لسان واحد منهم ترفع الآخر عن قبوله وتحيل على دفعه وانكاره بما يقدر عليه من التخليط والأباطيل التي هي من أخلاق الكافرين والمنافقين الذين وصفهم الله تعالى بقوله (وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)• فكل من ناظر بقصد الغلبة فقط لا بقصد اغتنام الحق والفوز به • فقد شارك الكفار والمنافقين في هذا الخلق وامتنعت نفسه من قبول الوعظ كما قال تعالى (واذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالاثم) ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين حين سأله ثابت بن قيس بن شماس فقال اني امرؤ قد حبب الي من الجمال ما ترى . أفمن الكبر هو فقال صلى الله عليه وسلم (لا ولكن الكبر من بطر) أي من رد الحق (وغمص) أى واستحقر الناس وهم عباد الله أمثاله أو خير منه انتهى فاستحقار الناس هو الآفة الأولى • ورد الحق هو الآفة الثانية• فكل

من رأى أنه خيرٌ من أخيه واحتقر أخاه ونظر اليه بعين الاستصغار أورَدَّ الحق وهو يعرفه فقد تكبر فيما بينه وبين الخلق . ومن أنفَ من أن يخضع لله تعالى ويتواضع له بطاعته واتباع رسله فقدتكبر فيما بينــه وبين الله ورسله . اذا علمت هذا ونظرت فيه بعين البصيرة عرفتَ أن الـكبر من المهلـكات وأنه لايخلو واحدٌ من الناس عن شيء منه . ولا يزول بمجرد التمني بل لابد من المعالجة واستعمال الأدوية القاطعة له . وسنبين ذلك فيما سيأتي من النواهي الواردة في سورة لقمان ان شاء الله تعالى . ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ كلُّ ذلك ﴾ الذي ذكر من الأوامر والنواهي ﴿ كان سيئه ﴾ الذي نهى الله عنه ﴿ عند ربك ﴾ يامحمد ﴿ مكروهاً ﴾ أي مبغوضاً غير مرضيٍّ فيجب الانتهاء عنه ﴿ذلك﴾ الذي تقدم من التكاليف المفصلة ﴿ مما أوحي﴾ أي مماأنزله ﴿ اليك ربكَ ﴾ بطريق الوحي ﴿ من الحكمة ﴾ التي ترجع الى الأمر بالتوحيد وأنواع الطاعات والخيرات والاعراض عن الدنيا والاقبال على الآخرة . ويجوز أن يكون معنى الحـكمة عبارة عن معرفة الحق لذاته والخير لأجـل العمل به . واعلم أن الأحكام المذكورة في هذه الآيات من الشرائع التي وجبت مراعاتها في جميع الأديان والملل . ولم تقبل النسخ والابطال أصلاً . فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآيات كانت في ألواح موسى عليه الصلاة والسلام أولها (لاتجعل مع الله إلهاً آخر) قال تعالى (وكتبنا له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لـكل شيء)

ثم انه تعالى لما فصل أعمال البر ختمها بأشرفها الذي هو التوحيد لذاته تعالى والنهي عن الاشراك به الذي هو النهي الثالث من النواهي الثلاثة التي أشرنا اليها *

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا ﴾

أي ملوماً من جهة نفسك ومن جهة غيرك (مدحوراً) أي مبعداً عن رحمة الله تعالى

ولقد جعل الله سبحانه وتعالى فاتحة هذه التكاليف النهي عن الشرك وكذا خاتمتها . وذلك لأن التوحيد رأس كل حكمة وملاكها ومن فقده لا ينفعه شيء من العلوم وان بلغ أقصى الغاية فيها . ثم ان هذا الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم في الظاهر فقط ولكنه في الحقيقة عام لغيره من المكلفين لأن هذا الخطاب لا يليق بالنبي صلى الله عليه وسلم . لأن الله تعالى قد عصمه من الوقوع في شيء من هذه النواهي وحفظه من كل نقص وأفرغ عليه جميع الكمالات *

اللهم اعصمنا من ارتكاب الشهوات ووفقنا الى القيام بالطاعات وأوردنا حوض نبيك سيد السادات وشفعه فينا يوم العرض عليك يامجيب الدعوات آمين *

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى * وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾

اعلم أن الله تعالى نهى نبيه صلى الله عليه وسلم ونهى جميع أمته التابعين له عن النظر الى الزخارف الدنيوية والميل اليها • وبين له أنها ابتلاء ومحن لأهل الدنيا وأن ماعنده تعالى من النعم الحقيقية والمعارف الأخروية والأنوار الروحانية أفضل وأدوم من هذه الزخارف الفانية فقال ﴿ ولا تمدن عينيك ﴾ أى ولا تطل نظر عينيك بطريق الرغبة والميل ﴿ إلى ماامتعنا ﴾ أي الى الذي لذذنا ﴿ به ﴾ من أنواع زخارف الدنيا كالمال الكثير والأولاد والجاه والأبنية العظيمة للمساكن والأثاثات المزخرفة الفاخرة وأنواع الزينات الدنيوية الفانية والبهجة والجمال المؤقت وما أشبه ذلك ﴿ أزواجاً منهم ﴾ أي أصنافاً من أشخاص الكفرة وغيرهم ممن حجبوا عن رؤيتي وتفكر عظمتنا وأعطيناهم ﴿ زهرةَ الحياةِ الدنيا ﴾ أي ماتقدم ذكره من زينتها وبهجتها

﴿ لنفتنهم فيه ﴾ أي لنعذبهم في الآخرة بسبب ماامتحناهم به من هذه الزخارف والزينة الدنيوية ﴿ورزقُ ربك﴾ أي وما رزقك به ربك من الاسلام والنبوة والصحة والعلم والفضل والثواب فى الآخرة ﴿خيرٌ﴾ مما منحهم به في الدنيا ﴿وأبقى﴾ أي وأدوم لأنه مأمونُ الغائلة والزوال بخلاف ما منحوه من الزخارف الفانية • وفي هذه الآية الكريمة تنبيهٌ لأهل البصيرة الكاملين في الايمان على أنه يجب الاعراض عن التلذذ بما يدرك من المناظر الحسنة وبما يسمع من الأصوات المطربة التى تشغله عن التفكر في حكم الله تعالى وغير ذلك من الملابس الفاخرة ونحوها من الاشياء التى تشغل القلب عن الله تعالى فان قوم قارون لما نظروا الى زينته وبهجته بسبب أمواله قالوا بتحسر (ياليتَ لنا مثل ما أُوتي قارونُ انه لذو حظ عظيم)فواجههم أهل العلم والايمان كما حكي الله عنهم بقولهم لهم على سبيل التوبيخ (ويلكم ثوابُ الله خيرٌ لمن آمنَ وعمل صالحاً) ولقد تشدد العلماء المتقون في وجوب غضّ النظر عن أبنية وملابس الكفار والعصاة واختراعاتهم العجيبة الفاخرة وغير ذلك • لأنهم اتخذوا هذه الاشياء ليظهروا بها في أعين الناس الذين لا قدرةَ لهم على اتخاذ مثلها فاذا نظروا الى حسن أبنيتهم وحسن لباسهم وغيره من زينة غناهم صغرت نفوسهم وانكسرت قلوبهم وظنوا أنهم عند الله تعالى خيرٌ منهم فيتذللون لهم وينظرون الى مافي أيديهم ونقع في قلوبهم الهيبةُ من جهتهم فيضربون عليهم خيام السلطة وتقوى شوكتهم فيهم حتى أنهم يطيعونهم في كل أمر

ونهي ٍ • ور بماقدموا طاعتهم على طاعةِ الكبير المتعال • مع أن هؤلاء الضعفاء لو كانوا أهل بصيرة وتأملوا أدنى تأمل لعرفوا أن هؤلاء الذين يدعون الكبرياء عبيد مثلهم • وغاية الأمر أن الله تعالى مدهم بهذه النعم لحكمة يعلمها في الأزل ِ • ونحن لا يمكننا أن نعلمها • فالعاقل لا ينظر الى زينةِ الاغنياء الفاخرة • وانما ينظر الى ما يؤلُ اليه حال الانسان بعد موتهِ من العظام الناخرة • فليس المطلوب هوحسن الأبنية والملابس • وانما المطلوب هوحسن السيرة والسريرة والاعمال الحسنة المرضية • انتهى

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَلَٰكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ ﴾

وقال أبو الدرداء • الدنيا دارُ من لا دارَ له • ومالُ من لا مال له • ولها يجمعُ من لا عقل له • وقال عيسى عليه السلام لا تتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم لها عبيداً • واعلم أن سبب نزول هذه الآية الكريمة ما روى أنه نزل ضيف بالنبي صلى الله عليه وسلم فبعث أبا رافع الى يهودىٍ يستقرضهُ • فقال اليهودي لا أقرضهُ الا برهنٍ • فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إني لأمينٌ في السماء وإني

لأمينٌ في الأرض) ثم قال صلى الله عليه وسلم لأبي رافع إحمل اليه درعيَ الحديد • فأنزل الله هذه الآية • ثم انه تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يأمر التابعين له من أمته بالصلاة بعد ما أمره بها ليستعينوا بها على ضررهم ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يلتفتوا لما اختص به أرباب الثروة من كثرة الأموال فقال ﴿ وأمر ﴾ يامحمد ﴿ أهلك ﴾ أي أهل دينك أو أقاربك ﴿ بالصلاة ﴾ وكما تأمرهم بهـا فداوم أنت أيضاً ﴿ واصطبر عليها ﴾ أي وحافظ عليها غير مشتغل بأمر المعاش ليقتدوا بك في المحافظة عليها •فان الوعظَ بلسان الفعل أتم من الوعظ بلسان القول ﴿ لا نسئلكَ ﴾ أي لا نكلفك ﴿ رزقاً ﴾ كما يريد الملوك خراجاً من رعيتهم • وكما تريد السادةُ خراجاً من عبيدهم بل ﴿ نحن نرزقك ﴾ وانما أمرناك بالصلاة لأجل انتفاعك بثوابهـا لا لأجل أننا ننتفع بها • ويجوز أن يكون معناه لا نسئلك رزقاً لنفسك ولا لأهلك بل نحن نرزقك واياهم • فلا تهتم بأمر الرزق والمعيشة • وفرّغْ بالك لأمر الآخرة فان من كان في عمل الله كان الله في عمله ﴿ والعاقبة ﴾ المقبولة الجميلة ﴿ للتقوى ﴾ أي لأهل التقوى وكان بعض السلف الصالح اذا أصاب أهله ضرر قال لهم قوموا فصلوا بهذا أمر الله رسوله ثم يتلو هذه الآية وكان عروة بن الزبير رضي الله عنه اذا رأى ماعند السلاطين من زينة الحياة الدنيا قرأ (ولا تمدنَّ عينيك) الى آخر الآية المتقدمة ثم ينادي الصلاةَ الصلاةَ رحمكم الله • وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية يذهب الى فاطمة وعلي رضي الله عنهما

كلّ صباح ويقول الصلاة واستمرَّ على ذلك شهراً • وروي أنه عليه الصلاة والسلام كان اذا أصابه ضرٌّ أمرهم بالصلاة وتلا هذه الآية وحيث كان المقصود من هاتين الآيتين يرجع الى الترغيب في زهد الدنيا ومحبة الآخرة فلنتكلم على بيان حقيقة الزهد وفضله فنقول • اعلم أن الزهد في الدنيا مقامٌ شريف من مقامات السالكين • وهو عبارة عن انصراف رغبة النفس عن الشيء الى ماهو خير منه ويشرط في الشيء الذى رغبت عنه النفس ومالت الى غيره أن يكون أمراً مرغوباً فيه بوجه من الوجوه فمن رغب عن شيء لم يكن مطلوباً لاحد لا يسمى زاهداً لأن تارك الحجر والتراب ونحوهما لا يسمى زاهداً • وانما الذى يسمى زاهداً هومن ترك الدراهم والدنانير لأن التراب والحجر لا نظن فيهما رغبة • وشرطُ الشيء المرغوب فيه أن يكون عند الراغب مع موافقته للشرع خيراً من الذي رغبت عنه نفسهُ حتى تكون رغبته فيه أقوى من رغبته في الأول قوة زائدة • وبيان ذلك أن البائع لا يقدم على البيع الا والثمن خير له من الشيء الذى يبيعه فيكون حال البائع بالنسبة الى الشيء الذى باشرَ بيعهُ زهداً فيه وبالنسبة الى عنه رغبة فيه وحباً فاذاً كلٌ من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا وكلٌ من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضاً زاهدٌ في الآخرة ولكن جرت العادة بتخصيص الزهد بمن يزهد في الدنيا فقط • فالذى يرغب عن كل ماسوى الله تعالى حتى عن الجنة ونعيمها ولا يحب الا الله تعالى فهو الزاهد المطلق والذي يرغب عن كل حظ ينال في الدنيا ولم

يزهد في حظوظ الآخرة بل طمع في الحور والقصور والانهار والفواكه فهو أيضاً زاهد ولكنه أقل من الأول . والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذى يترك المال دون الجاه . أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجمل في الزينة فانه لا يستحق كمال الزهد . بل درجتهُ في الزهاد كدرجة من يتوب عن بعض المعاصى فانه لا يعد كاملا في درجات التائبين . الا أن زهده يعد صحيحاً كما أن التوبة عن بعض المعاضي صحيحةٌ . فاذاً يكون الزهد عبارة عن ترك العبد للدنيا عدولاً عنها الى الآخرة . أوهو الإعراض عن غير الله تعالى رغبةً وحباً في الله تعالى من غير التفات الى شيء من نعيم الآخرة أصلاً . وهذه هي الدرجة العليا . ويشترطُ في في الزاهد أن يكون محباً لما زهد فيه . ولكنه لم يتركه الا رغبة في الله أوفيما عنده من نعيم الآخرة وأن يكون عالماً بأن ماتركه من نعيم الدنيا حقير بالنسبة لما رغب فيه من جانب الله سبحانه وتعالى كعلم التاجر بأن العوض خير من المبيع فيرغب فيه واذا لم يتحقق منه هذا العلم لم يتصور أن رغبته تزول عن المبيع فذلك حال من عرف حق المعرفة أن ماعند الله باق (وأن الآخرة خيرٌ وأبقى) فلا يتصور منه حب والتفات الى الدنيا وزينتها وبيان ذلك أن كل عاقل يعرف أن الجواهر خير من الثلج مثلاً وأبقى منه فلا يعسرُ على مالك الثلج بيعهُ بالجواهر . فهكذا مثال الدنيا والآخرة . فان الدنيا كالثلج الموضوع في الشمس لا يزال في الذوبان حتى ينقطع

والآخرة كالجوهر الذى لافناء له فبقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة تقوى الرغبة في بيع الدنيا بالآخرة حتى إن من قوي يقينهُ في ذلك يبيع نفسه وماله كما قال تعالى (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) ثم بين تعالى أن تجارتهم رابحةٌ فقال بعد ماتقدم (فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوزُ العظيم) فالذى يحتاج اليه الزاهد هو معرفة هذا القدر فقط وهو العلم اليقيني بأن الآخرة خيرٌ وأبقى) وقد يعلم ذلك بعض الناس وخصوصاً العلماء ولكن لا قدرة له على ترك الدنيا بسبب ضعف يقينه أو بسبب تسلط الشهوة وغلبتها عليه حتى يصير مقهوراً في يد الشيطان أو بسبب اغتراره بالمواعيد الشيطانية يوماً بعد يوم في التسويف حتى يختطفه الموت ولم يبق بعده الا التحسر على مافات وبالجملة فالعمل الذي يصدُر عن حال الزهد هو ترك واحد لأنه بيعٌ واستبدال بالذي هو أدنى للذي هو خير فكما أن العمل الذي يصدر من عقد البيع هو ترك المبيع واخراجهُ عن اليد وأخذ العوض بدله . فكذلك الزهد يوجب ترك المزهود فيه بالكلية . وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلائقها . فحينئذٍ يخرج من القلب حبها ويدخل فيه حب الطاعات فاذا وصل العبد الى هذه الدرجة فينبغي له أن يخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف كل جارحة من الجوارح في وظيفة من وظائف الطاعات وان لم يفعل ذلك كان كمن سلّم المبيع ولم يأخذ الثمن . وأما اذا وفى بهذه الشروط في الأخذ والترك

فليستبشر ببيعه الذي بايع به فان الذي بايعه بهذا البيع وفيٌّ بالعهد وما دام العبد ممسكا للدنيا لا يصحُّ زُهده أصلاً . فعلامة الرغبة في الدنيا الامساك . وعلامة الزهد الاخراج . فان أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون بعضها الآخر فأنت زاهد فيما أخرجته فقط ولست زاهداً زهداً كاملاً . وان لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم يتصور منك الزهد لأن الذي لم يقدر عليه الشخص لم يكن قادراً على تركه وربما يطمعك الشيطان بغروره ويخيل اليك أن الدنيا وان لم تأتك فأنت زاهد فيها فلا ينبغي أن تتمسك بحبل غروره من غير أن تتوثق وتختبر نفسك بموثق عهد من الله تعالى فانك اذا لم تجرب حال قدرتك فلا تثق بقوتك على الترك عندها . فكثيراً من الناس مَن يظن بنفسه كراهةَ المعاصي عند تعذرها عليه فلما يتيسرُ له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق يقع فيها . واذا كان هذا غرور النفس في الأمور المحرمة فإياك أن تثق بها في الأمور المباحة . والعهد الموثق الذي تأخذه عليها أن تُجرِّبها مرةً بعد مرة في ترك الدنيا في حال القدرة عليها فاذا وفت بوعدها على الدوام فلا بأس أن تثق بها وثوقاً ضرورياً ولكن تكون من تغيرها على حذر فانها سريعة النقض للعهد قريبةُ الرجوع الى مقتضى الطبع . وبالجملة فلا أمان منها الاّ اذا استمرّت على الترك للدنيا وزينتها عند القدرة عليها . واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذلهُ على سبيل السخاء والفتوّة ولا على سبيل استمالة القلوب فان ذلك كله من محاسن العادات ولا

مدخل له في شيء من العبادات . وانما الزهد أن تترك الدنيا لعلمك بأنها حقيرة بالنسبة الى نفاسة الآخرة . وأما أنواع الترك فانها تتصور أيضاً من غير المؤمن الذي لا يصدق بالآخرة لأن ذلك قد يكون مروءة وسخاء وحسن خُلُقٍ ولكن لا يكون زُهداً لأن حسن الذكر وميلَ القلوب ليس من العبادة بل هو من الحظوظ الدنيوية العاجلة . وانما الترك الذى يُعد زهداً حقيقياً أن يترك العبد الدنيا حين إقبالها عليه بنعيمها من غير مكدر وهو قادر على التنعم بها من غير نقصان جاهٍ فيتركها خوفاً مَن أن يأنسَ بها فيكون آنساً بغير الله ومحباً لما سوى الله أو يتركها طمعاً في ثواب الله في الآخرة فأعرض عن أشربة الدنيا طمعاً فى أشربة الجنة وترك التمتع بالنساء والجوارى طمعاً في الحور العين وترك التفرج في البساتين طمعاً في بساتين الجنة وأشجارها وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعاً في زينة الجنة وترك كل لذة في الدنيا طمعاً في لذات الآخرة وخوفاً من أن يكتب من الذين يقال لهم (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) فقدم ماوعده الله به فى الجنة على ما تيسر له من نعيم الدنيا وكان يقدر على التلذذ به من غير كدر لعلمهِ أن مافي الآخرة خيرٌ وأبقى وأن ما سوى ذلك فهو عرضٌ دنيويٌ لا بقاء له ولا فائدة له أيضاً فى الآخرة أصلا . وقد ورد في الكتاب والسنة ما يدل على فضل الزهد وشرفهِ بآيات كثيرة وأحاديث أكثر منها . فمن الآيات التى وردت في فضل الزهد قوله تعالى (مَن كان يريدُ حرثَ الآخرةِ نزد له في حرثه

ومن كان يريد حرثَ الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب) وقال تعالى (ولا تمدنَّ عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم) الى آخر الآية التي تقدم تفسيرها • ومن الآحاديث قوله صلى الله عليه وسلم (من أصبح وهمهُ الدنيا شتت الله عليه أمره • وفرق عليه ضيعته • وجعل فقره بين عينيه • ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له • ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه • وحفظَ له ضيعته • وجعل غناه في قلبه • وأتته الدنيا وهي راغمة) وقال صلي الله عليه وسلم (اذا رأيتم العبد وقد أعطي صمتاً وزهداً في الدنيا • فاقتربوا منه • فانه يلقي الحكمة) وقال تعالى (ومن يؤت الحكمةَ فقد أُوتيَ خيراً كثيراً) ولذلك قيل من زَهد في الدنيا أربعين يوماً أجرى الله ينابيع الحكمةِ في قلبه • وأنطقَ بها لسانهُ • وروى أن عائشةَ رضى الله عنها قالت قلت يا رسول الله ألا نستطعم الله فيطعمك • قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع • فقال (ياعائشة والذي نفسي بيده لوسألتُ ربي أن يجري معي جبال الدنيا ذهباً لأجراها حيث شئت من الأرض ولكنى اخترت جوع الدنيا على شبعها • وفقر الدنيا على غناها • وحزنَ الدنيا على فرحها ياعائشة ان الدنيا لا تنبغي لمحمد ولا لآل محمد • ياعائشة ان الله لم يرضَ لأُولى العزم من الرسل الا الصبر على مكروه الدنيا والصبر علي محبوبها ثم أراد الله تعالى آن يكلفني ما كلفهم فقال (فاصبر كما صبر أُولوا العزم من الرسل) والله مالى بُدٌّ من طاعته • واني والله لأصبرنَّ كما صبروا بجهدى • ولا قوة الا بالله) وقال ابن عباس

رضى الله عنهما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم يمشي وجبريل معه فصعد على الصفا فقال له صلى الله عليه وسلم (ياجبريل والذى بعثك بالحق ماأمسى لآل محمد كفٌّ سويق ولا سفةُ دقيقٍ) فلم يكن كلامــه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفظعته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أأمرَ اللهُ القيامةَ أن تقوم) قال جبريل لا ولكن هذا اسرافيل عليه السلام قد نزل اليك حين سمع كلامك • فأتاه اسرافيل فقال ان اللهَ عز وجل سمع ما ذكرت فبعثنى بمفاتيح الأرض وأمرنى أن أُعرض عليك ان أحببت أن أُسـير معك جبــال تِهامةَ زُمرّداً وياقوتاً وذهباً وفضة فعلتُ • وان شئتَ نبياً مَلـكا وان شئتَ نبياً عبداً • فأومأ اليه جبريل أن تواضعْ لله • فقال صلى الله عليه وسلم (نبياً عبداً ثلاث مرات) وقال صلى الله عليه وسلم (اذا أراد الله بعبد خيراً زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة و بصره بعيوب نفسهِ) وقال صلى الله عليه وسلم (مَن اشتاقَ الى الجنة سارع الى الخيرات ومن خاف من النار لهــا عن الشــهوات • ومن ترقب الموت تركَ اللذات • ومن زَهد في الدنيا هانت عليــه المصيبات) وذكر جميع الاخبار التى وردت في فضل الزهدِ وذم الدنيا لا يمكن لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ما بعثهمُ الله تعالى الا ليصرفوا الناس عن الدنيا الى الآخرة وأكثر كلامهم مع الخلق راجع اليه وفيما ذكرناه كفاية والله المستعان•ثم ان الزهدَ على درجاتٍ ثلاثٍ • الدرجةُ الأولى أن يزهد الانسان في الدنيا وهو فيها راغب وقلبهُ اليها

مائل ونفسهُ اليها ملتفتةٌ ولكنه يجاهدها ويكفها . وهذه هي الدرجة السفلى لأن صاحبها على خطر فانه يخاف عليه من أن تغلبه نفسه وتجذبه شهوته فيرجع الى الدنيا والاستراحة اليها في قليل أو كثير . الدرجة الثانية أن الانسانَ يترك الدنيا اختياراً لاستحقاره لها بالنسبة الي ماطمع فيه عند الله تعالى ولكن هذا الزاهد يكون ملتفتاً الى زُهده ناظراً اليه بعين الكمال فيقرب من أن يكون معجباً بنفسه وبزهده ويظن أنه ترك شيئاً له قدرٌ عظيمٌ لأجل ماهو أعظم منه وهذه أيضاً درجةُ نقصانٍ في الزهد. الدرجة الثالثة أن يزهد الانسان في الدنيا اختياراً ويزهد في زهده فلايرى له قدراً عظيما حيث يعتقد أنه لم يترك شيئاً له قيمة لأنه عرف أن ذلك شيء يستوي مع العدم فيكون كمن ترك حجرًا وأخذ جوهرة فلايرى أن ذلك الحجر يصلح أن يكون معاوضة للجوهرة ولا يخفى أن الدنيا بالنسبة الى الأنس بقربه تعالى ونعيم الآخرة أخسّ من الحجر بالنسبة الى الجوهرة فهذه هي الدرجةُ العليا في الزهد وسببها كمال المعرفة . ومثل هذا الزاهد آمن على نفسه من خطر الالتفات الى الدنيا كما أن من يبيع الحجر بالجوهرة آمنٌ من طلب الاقالة في البيع ثم انه قد يظن في تارك المال أنه زاهد وليس كذلك لأن ترك المال واظهار الخشونة سهل على من كان يحب المدح بالزهد فكم من الرهبانيين من ردوا أنفسهم كل يوم الى قدرٍ يسير من الطعام ولازموا ديرا لا بابَ له ولم يكن مقصدهم من ذلك الا معرفة أحوالهم للناس ونظرهم اليهم ومدحهم لهم فهذا لا يدل على

الزهد أصلا بل لا بد من الزهد في المال والجاه جميعاً فيكون الزهد كاملا في جميع حظوظ الدنيا بل قد يدعي جماعة الزهد مع لُبس الأصواف الفاخرة والثياب الرفيعة وينسبون أنفسهم الى كمال العلم ويجعلون هذا اللباس وسيلة الى احترام الناس لهم لئلا ينظروا اليهم بالعين التي ينظرون بها الى الفقراء فيحتقرونهم بالعطية كما تعطي المساكين ثم يدّعون أنهم من أهل الزهد والعلم الذين تمسكوا بالكتاب والسنة مع أنهم خارجون عن ذلك وانما يتشبهون بغيرهم لأنهم اذا طولبوا بالحقائق وأُلجؤا الى المضايق عجزوا عن اقامة الحجة وانكشف حالهم وظهر أنهم من أكلة الدنيا بالدين وأنهم من الذين لم يعتنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهذيب أخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم فغلبتهم فادعوها حالاً لهم فهم مائلون الى الدنيا متبعون للهوى • و ينبغي للزاهد أن يكون باطنهُ مشتملا على ثلاث علامات • العلامة الأولى أن لا يفرح بموجودٍ ولا يحزن على مفقود • كما قال تعالى (لكيلاَ تأسوْا على مافاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم) بل ينبغي أن يكون متصفاً بضد ذلك وهو أن يحزن بوجود المال و يفرح بفقده • العلامةُ الثانية أن يستوي عنده من يذمهُ ومن يمدحهُ • فالأولْ علامة الزهد في المال • والثاني علامة الزهد في الجاه • العلامة الثالثة أن يكون أُنسهُ بالله تعالى ويكون الغالب على قلبه حلاوةَ الطاعة • وكلٌّ من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره • فنسأله سبحانه وتعالى أن يرزقنا منه نصيباً

وأن يبعد عنا العوائق الدنيوية بجاه من اتخذه في الدارين حبيباً • آمين • انتهى *

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ * وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ * لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾

اعلم أنه لما كانت الخلوةُ طريقاً الى التهمة ويجد بها الشيطان سبيلاً الى وقوع الشخص في المعصية بين الله لعباده أنهم لا يدخلون بيوت غيرهم إلاّ بعد الاستئذان حَذَراً مما يترتب على الدخول من غير إذنٍ بسبب مخالطة الرجال بالنساء ودخولهم عليهن في أوقات

الخلوات وعلمهم الآداب الجميلة والأفعال المرضية التى تؤدي الى سعادة الدارين فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم ﴾ أي لا تدخلوا بيوتاً غير البيوت التى أنتم ساكنون فيها سواء كانت ملكاً أو مؤجرةً أو معارة لكم ﴿ حتى تستأنسوا ﴾ أى حتى تستأذنوا من يملك الاذن من أصحابها ﴿ وتسلموا على أهلها ﴾ عند الاستئذان وكيفية التسليم والاستئذان أن يقول الشخص السلامُ عليكم أأدخل ثلاث مرات ان لم يؤذن له في الأولى والثانية فان أذن له أحد من أهل البيت العقلاء في الدخول دخل وان لم يأذن له أحد رجع ولا يدخل • واعلم أن الاستئذان ثلاث مرات من أحسن الآداب وأجملها لأن أهل البيت في المرة الأولى ربما يمنعهم بعض الأشغال من الإذن • وفي المرة الثانية ربما كان عندهم ما يقتضي المنع من الاستئذان • فاذا لم يؤذن له في الثالثة استدلّ بعدم الاذن علي أن هناك مانع ثابت فيرجع • ولهذا قالت العلماء يستحب فى الاستئذان أن لا يكون متصلا بل لا بدّ أن يكون بين كلّ مرة وبين الأخري زمنٌ يفصل بينهما وان لم يفصل بينهما بزمن بل استئذنَ ثلاث مرات متواليةٍ كانت كلها في حكم مرةٍ واحدةٍ • والدليل على أن عدد الاستئذان ثلاث مرات • ماروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال (الاستئذانُ ثلاث فالأولى يستنصتون • والثانية يستصلحون • والثالثةُ يأذنون أو يردون) *

قال النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا * ولا تؤمنوا حتى تحابوا * أفلا أدلكم على عمل إذا عملتموه تحاببتم * قالوا بلى يا رسول الله * قال أفشوا السلام بينكم ﴾

وعن أبي سعيد الخدري أنه قال كنت جالساً في مجلس من مجالس الأنصار فجاء أبو موسى الأشعري فزعاً فقلنا له ما أفزعك فقال أمرني عمر أن آتيه فأتيته فاستأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت ثم أتيته ثانياً فوجدته ينتظرني وقد أنكر عليَّ فقال لى ما منعك أن تأتيني فقلت له قد جئت فاستأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي بالدخول وقد قال عليه الصلاة والسلام (اذا استئذنَ أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع) فقال لى عمر لتأتينى على هذا الحديث بالبينة أولاً عاقبنك • فقال كبير المجلس لا يقوم معك الا أصغر القوم • فقام أبوسعيد فشهد له عند عمر أن هذا الحديث قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر لأبى موسى إني لم أتهمك ولكني خشيت أن يتقولَ الناس على

رسول الله صلى الله عليه وسلم • وأما قرع الباب بعنف كما عليه أهل زماننا الآن والتصييح على صاحب البيت فهو منهي عنه لأنه مخالف للآداب وكذا كل ما يؤدي الى الكراهية وينبئ عن الثقل فهو منهي عنه أيضاً • وكيفية الوقوف على الباب عند الاستئذان أن لا يستقبله المستأذن بوجهه • بل يقف في ركنه الأيمن أو الأيسر • لما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم كان اذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكنه يقف من ركنه الأيمن او الأيسر فيقول السلام عليكم • فان كان للباب ستر كانت كراهة استقباله أخف من عدم وجود ستر • ثم ان الحكمة في شرع الاستئذان قبل الدخول هي أن الداخل من غير إذن ربما يطلع على عورات أهل البيت أو تسبق عينه الى ما لا يحل النظر اليه ويطلع على الأحوال التي تخفيها الناس في العادة • وعلى كل حال فالدخول من غير إذن غير جائز أصلاً لأنه تصرف في ملك الغير فلا بد أن يكون برضاه وان لم يكن برضاه فانه يشبه الغصب والتغلب وقد نهى الله عنهما ولهذا قال الله سبحانه وتعالى ﴿ ذلكم ﴾ الذي شرعته لكم من الاستئذان مع التسليم ﴿ خير لكم ﴾ من أن تدخلوا بغتة من غير إذن أو من غير تسليم فتكونوا متمسكين بتحية الجاهلية لأن الرجل منهم كان اذا أراد أن يدخل بيتاً غير بيته يقول حييتم صباحاً اذا كان أول النهار • أو حييتم مساءً اذا كان آخره • ثم يدخل فربما أصاب

الرجل مع امرأته في لحاف واحد . فنهى الله تعالى عن ذلك وعلم عباده الأدب الحسن في الدخول على الناس . وانما بين الله تعالى لكم هذه الأحكام ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أي لكي تذكروا وتتعظوا وتعملوا بها . فان لم يجد المستأذن أحداً في البيت أصلاً أولم يجد مَن يعتبر إذنه شرعاً بل وجد الصبيان مثلا فلا يجوز له الدخول وهذا هو المراد من قوله تعالى ﴿ فان لم تجدوا فيها ﴾ أي في بيوت غيركم ﴿ أحداً ﴾ أصلاً أو لم تجدوا من يملك الاذن بل وجدتم الصبيان والنساء مثلا ﴿ فلا تدخلوها حتى يؤذنَ لكم ﴾ أى حتى تجدوا مَن يأذن لكم أو مَن يعتبر إذنه . وان وجد فيها من يملك الإذن فان أذن له فى الدخول دخل وان لم يأذن له بل قال ارجع رجع . وهذا هو معنى قوله تعالى ﴿ وان قيل لكم ﴾ من جهة أهل البيت ﴿ ارجعوا فارجعوا ﴾ ولا تلحوا بتكرير الاستئذان ولا تصروا على الانتظار حتى يأتي الاذنْ فان ذلك مما يجلب الكراهة في قلوب الناس ويقدح في المروءة قدحاً عظيما فلا يليق بكم الا الرجوع فـ ﴿ هو ﴾ أي الرجوع ﴿ أزكى ﴾ أي أطيب ﴿ لكم ﴾ وأطهر مما لا يخلو عنه الالحاح في الإذن والوقوف على الأبواب من دنس الدناءة والخسة وذلك لأن الدخول كما أنه قد يكرههُ صاحب الدار فكذلك الوقوف على الباب قد يكرهه أيضاً فلذلك كان الأولى والأطهر للمستأذن اذ لم يؤذن له

في الدخول أن يرجع ولا يقف على البـاب دفعاً للإيذاء وبُعداً من الريبة ﴿ والله بما تعملون عليم ﴾ فيعلم كل ماتفعلونه من خيرٍ أو شرٍ فيجازيكم عليه • وفي هذه الجملة الشريفة نوع زجرٍ للمكلف عما نهى عنه فيجب عليه أن يحتاط كيف يدخل ولأى غرض يدخل وكيف يخرج واعلم أن رسول الشخص يقوم مقام إذنه • فاذا أرسل انسان خادمه الي آخرٍ يدعوه الى الحضور عنده كان ذلك اذناً له في الدخول لما روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (اذا دُعي أحدكم فجاء مع الرسول فان ذلك له إذنٌ) • فدل هذا الحديث على أن الدعاء يُعد إذناً للداخل اذا حضر مع رسول الداعي فلا يحتاج ثانياً الى اذن • وقال بعض العلماء ان من قد جرت العادة له باباحة الدخول فهو غير محتاج الى الاستئذان واتفق جمهور الأئمة على أن اذن الصبي والرقيق والمرأة معتبرٌ • وكذلك يعتبر اخبار هؤلاء المذكورين فى الهدايا بأن يأتى الرقيق أوالصبي بهدية لشخص ويقول له هذه الهدية لك من عند سيدي مثلا فيقبلها منه لأجل الضرورة • والأصح أن الاستئذان على المحارم مطلوبٌ لما روى أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم أأستئذنُ على أُمي فقال له صلى الله عليه وسلم (نعم) فقال الرجل ليس لها خادم غيري أأستئذنُ عليها كلما دخلت عليها فقال عليه الصلاة والسلام (أتحب أن تراها عريانة) فقال الرجل لا • فقال له عليه الصلاة والسلام (فاستئذن) واعلم أن ترك الاستئذان علي المحارم وان كان غير جائز الاّ أنه أخفٌ من ترك الاستئذان على الاجانب

لأن المحرم يجوز له النظر الى شعرها وصدرها وساقها ونحو ذلك من الاعضاء التي لاتعد عورةً بالنسبة له بخلاف الأجنبيات . وانما كان الاستئذان على المحارم مطلوباً لأن المحرم ربما كانت مشتغلةً في بعض الأحوال بأمر تكره اطّلاع غيرها عليه فكان الاستئذان عاماً في جميع المحارم فلا يدخل الرجل على الزوجة والأمة الا بإذن . وأما اذا عرض في بيت مايوجب هتك الستر من حريق أو هجوم سارق أو ظهور منكر يجب انكاره وازالتهُ فلا يجب الاستئذان في دخول هذا البيت . فهذا مايتعلق بالاستئذان الذى شرعه الله تعالى فى هذه الآية الكريمة وأما السلام الذي شرعه الله تعالى فيها أيضاً فهو من سنة المسلمين التى أمرهم الله تعالى بها وأمان لهم وهو تحية الله تعالى لأهل الجنة وتحيتهم لبعضهم قال تعالى (تحيتهم يوم يلقونه سلام) وقال تعالى (دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام) وهو أيضاً يجلب المودة وينفي الغل والحقد من الصدور . وقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال (لما خلقَ الله آدم عليه السلام ونفخ فيه الروح عطس فقال الحمد لله فحمد الله باذن الله . فقال له ربه يرحمك ربك يا آدم . اذهب الى هؤلاء الملائكة وهم ملأٌ منهم جُلوسٌ فقل السلام عليكم فلما فعل ذلك رجع الى ربه فقال هذه تحيتك وتحية ذريتك) وعن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (حق المسلم على المسلم ستٌ . يسلم عليه اذا لقيه . ويجيبه اذا دعاه

وينصح له بالغيب • ويشمتهُ اذا عطس • ويعوده اذا مرض • ويشهد جنازته اذا مات) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إنْ سَرَّكم أن يُسلّ الغل من صدوركم فأفشوا السلام بينكم) فيسنُّ لكل مسلم أن يبدأ أخاه بالسلام قبل الكلام وأن يصافحه عند السلام لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال (من بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه حتى يبدأ بالسلام) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذا دخلتم بيوتكم فسلموا على أهلها فان الشيطان اذا سلم أحدكم لم يدخل بيته) وقال أنسٌ رضي الله عنه خدمت النبي صلى الله عليه وسلم ثماني حُجج فقال لى ياأنس أسبغ الوضوء يُزَدْ في عمرك • وسلم على من لقيته من أمتى تكثر حسناتك • واذا دخلت منزلك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك•

وقال صلى الله عليه وسلم (ان الملائكة تعجب من المسلم يمر على المسلم ولا يسلم عليه) والأحاديث الواردة فى فضل السلام والحث علي افشائه أكثر من أن تحصى فاذا كان الله تعالى قد حثنا على افشاء السلام في مواضع كثيرة من كتابه العزيز • ورسوله صلى الله عليه وسلم أكثر من الترغيب فيه والحث عليه فما لنا نرى اخواننا المسلمين المصريين تركوا هذه السنة الشريفةَ ونبذوها وراء ظهورهم حتى أنه لم يتمسك بها الا القليل منهم ولم يرضوا لأنفسهم ترك هذه السنة بل ابتدعوا بدلها بدعةً متنوعة فى التحية فبعضهم يحيي أخاه بإشارة اليد و بعضهم يقلد بعض النصارى واليهود فى تحيتهم التى هي قولهم نهارك

سعيد أو ليلتك سعيدة ، والله انها لتحيات أسوء من تحيات الجاهلية ومن العجيب أن أكثرهم يحفظ كتاب الله أو بعضاً منه ويقرأ في كتب الحديث المشتملة على الأحاديث الواردة في فضل السلام والحث عليه ولم يتمسك بهذه السنة أصلا ولا يرى لها قيمة ، ثم يدعي أنه من العلماء العاملين فاذا نصحه أخوه المسلم بالتمسك بسنة الله ورسوله اشمأزت نفسه وربما قابل النصح بالإساءة وبنى على ذلك غلاً وحقداً في صدره ، وهذا كله ناشيء من الكبر والجهل بالحق وعمى البصيرة عن نور الايمان (فمن يُرِدِ اللهُ أن يهديَهُ يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يَصَّعَدُ في السماء ، كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون ، وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) ولما ذكر الله تعالى حكم البيوت المسكونة ذكر بعده حكم البيوت التي هي غير مسكونة فقال ﴿ ليس عليكم ﴾ أيها المؤمنون ﴿ جناح ﴾ أي اثم ﴿ أن تدخلوا ﴾ بغير استئذان ﴿ بيوتاً غير مسكونةٍ ﴾ أي غير موضوعة لسكنى قوم مخصوصين فقط ، بل موضوعة لينتفع بها من يحتاج اليها من الناس من غير أن يتخذها مسكناً كالمدارس والخانات والحمامات والحوانيت فانها معدةٌ لمصالح الناس كافةً كما يدل عليه قوله تعالى في وصف تلك البيوت ﴿ فيها متاعٌ لكم ﴾ أي فيها حق تمتعٍ وانتفاعٍ لكم يعني أنه لا حرج عليكم في دخول البيوت التي بُنيت لمصالح الناس جميعاً ، كالحمامات والأسواق ونحوها ولا يجب عليكم الاستئذان عند الدخول

فيها لأن فيها حق انتفاع لكم كالتحفظ من الحر والبرد والبيع والشراء والاغتسال وغير ذلك مما يليق بحال تلك البيوت وداخليها فلا مانع من دخولها بغير استئذان ممن يدخلها قبلكم ولا ممن يتولى أمرها ويقوم بتدبيرها من قوام المدارس والخانات وأصحاب الحوانيت وقوام الحمامات ونحوهم ﴿ والله يعلم ماتبدون ﴾ أي ما تظهرون ﴿ وما تكتمون ﴾ أي وما تخفونه من أموركم • وفي ذلك وعيد لمن يدخل مدخلا من هذه المداخل لفساد أو اطلاع على عورات الناس • نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لصالح الأعمال وأن يحول حالنا الى أحسن حال • انه الكريم المتعال • آمين

الباب الثامن

﴿ في تفسير ما ورد في سورة العنكبوت ﴾

﴿ وفيما بعدها الى سورة الفتح من النواهي ﴾

قَالَ اللّٰهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ * وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ

إِلَيْكُمْ * وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

اعلم أن الله تعالى بين لنا في هذه الآية الكريمة طريقةً أدبيةً نسلكها عند إرشاد أهل الكتاب • وهي مجادلتهم بالطرق المستحسنة التي هي مقابلةُ خشونتهم باللين • ومقابلةُ غضبهم بالحلم • ومقابلةُ العجلة منهم بالتأني عليهم فقال ﴿ ولا تجادلوا ﴾ أي ولا تناظروا أيها المؤمنون بالله وبرسوله ﴿ أهلَ الكتاب ﴾ من اليهود والنصارى ﴿ الاَّ بالتي ﴾ أي الاَّ بالخصلة التي ﴿ هي أحسن ﴾ وذلك لا يكون الا بطريق الانصاف والرفق والجميل من القول وهو الدعاء الى الله تعالى بآياته الباهرات والتنبيه على حُججه القاطعة • ويكون هذا الجدال صادراً منكم على وجه لا يدل على الضعف ولا يؤدي الى النفور بل يدل على القوة وحسن المعاملة والنصيحة الحسنة المقبولة ﴿ الا الذين ظلموا منهم ﴾ بمزيد الانكار والعناد أو باثبات الولد لله وقولهم ان اللهَ ثالث ثلاثةٍ ونحو ذلك من الأباطيل المنافية للعقل والفكر السليم فانه يجب حينئذٍ المدافعة بما يليقُ بحالهم ان علمتم فيهم استعداداً لقبول النصيحة بعد ما يتبين لهم من الحق • وان علمتم أن المجادلةَ لا تزيدهم الا اعتداءً وعناداً فحينئذٍ لا تجادلوهم لأنهم لا يرجي منهم قبول الحق والإذعانُ له فخلوا بينهم وبين باطلهم ﴿ وقولوا آمنا بالذي أُنزل الينا ﴾ من القرآن ﴿ وأُنزل ﴾ أي وبالذي أُنزل ﴿ اليكم ﴾ من التوراة والانجيل ﴿ وإلهنا والهكم واحد ﴾ لا شريك له في

الألوهية ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ أي منقادون ومطيعون لأوامره ومجتنبون لما نهي عنه * واعلم أن الحكمة في النهي عن مجادلة أهل الكتاب الا بالطريقة التى هي أحسن هي أنهم ليسوا محجوبين عن الحق بل يعرفونه وانما انكارهم له عناداً وجدالاً فهم أهل استعداد لقبول الهداية لا أهل خذلان وقهر وانما ضلوا عن مقصدهم الذي هو طريق الحق لموانع آزلية لا يعلم حقيقتها الا الله وعادات فاسدة وجدوها من آبائهم وظواهر شيطانية اكتسبوها من ممارسة الرهبان لهم وبثها في قلوبهم فواجب علينا بمقتضى الحكمة الإلهية أن ندعوهم الى المقصد الأعلى الذي هو التوحيد كما أمرنا تعالى أن نقول لهم ﴿ والهنا والهكم واحد ﴾ ووجب علينا أيضاً أن نحثهم على ما استقام من الطريق ووافق الحق كالانقياد والاستسلام للمعبود بحق كما أمرنا تعالى أن نقول لهم ﴿ ونحن له مسلمون ﴾ ليتحقق لهم أنكم علي الحق متوجهون الى المقصد الأعلي سالكون في طريقته الحسنى فتطمئن قلوبهم • ووجب علينا أيضاً أن نلاطفهم فى بيان كيفية سلوك الطريق الذي يوصلهم الى ماهو حق بالاتباع وان ماهم عليه باطل كما أمرنا الله تعالى بذلك في قوله ﴿ وقولوا آمنا بالذي أنزل الينا وأنزل اليكم ﴾ فحين مانظهر لهم أننا مشاركون لهم في الاعتقاد التوحيدي يحصل لهم الأنس وتزول عنهم الوحشة وينشرح صدرهم لقبول الحق فيهتدون الى سلوك طريق الرشاد الا الذين عميت قلوبهم بما كانوا يكسبون فبطل استعدادهم وحجبوا عن ربهم وهم الذين

ظلموا منهم وما وقع الظلم الاعلي أنفسهم بسبب ابطال استعداداتهم ونقص حقوقها من الكمال بتكديرها وتسويدها ومنعها عن القبول بكثرة ارتكاب الفضول فانهم أهل القهر لا يؤثر فيهم الا القهرُ ولا تؤثرُ فيهم الملاطفةُ أصلاً لأن اللطفَ والقهرَ ضدان لايجتمعان وهذا سرٌ من أسرار الله الغامضة ولا يدرك حقيقته الا من أشرقت على قلبه شموس الحكمة فاستنارت بصيرته واتسعت معرفتهُ وعَلِمَ أن كتاب الله تعالى مطويٌّ علي أسرارٍ خفيةٍ واشاراتٍ رقيقةٍ فكل من أجهدَ نفسه ابتغاء مرضات من أنزل هذا الكتاب العزيز لا يحرم من هذه الأسرار فان فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم انتهى

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

اعلم أن اعتقاد أهل الشرك في غاية الفساد ولم يوافقهم على شيء منه حكيمٌ من الحكماء الأقدمين الذين عولوا في عقيدتهم على العقل فما حكمَ العقل بحسنهِ عدّوه حسناً وما حكمَ العقل بقبحه عدّوه قبيحاً ، وقد كانت عقولهم وأنفسهم صافيةً بالرياضة لا يحجبها

شيء حتى كان بعضهم يسمع حركة الفلك . وبعضهم أدرك ماجاءت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الحكمة كلقمان الذي أخبر الله عنه بقوله (ولقد آتينا لقمان الحكمة) وقد عاش ألف سنة وأدرك داود عليه الصلاة والسلام . واتفق أكثر الجمهور علي أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً وكان عبداً أسود فرزقه الله العتق ورضي قوله ووصيته وحكاها في القرآن وجعلها من الآيات التي تتلى فقال ﴿ واذ ﴾ أي وآتينا لقمان الحكمة حين جعلناه شاكراً لله وحين جعلناه واعظاً لغيره اذ ﴿ قال لقمان لابنه وهو يعظه ﴾ أي وهو يذكره بالله ﴿ يا بني لا تشرك بالله ﴾ وقد كان ابنه كافراً فما زال يعظه حتى أسلم وهذا دأب الحكماء لأنهم يعرفون بحكمتهم أن علو مرتبة الانسان لا تتم الا اذا كان كاملاً في نفسه مكملا لغيره ولهذا لم يترك لقمان ولده مشركاً بل اجتهد في نصيحته ووعظه حتى نقله من الطريق المعوج الى الطريق المستقيم ولما نهاه عن الشرك علل النهي بقوله ﴿ ان الشرك لظلم عظيم ﴾ لأنه ذنب لا يغفره الله تعالى كما قال (ان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء) ثم قال الله سبحانه وتعالى مخبراً عن تمام وصية لقمان لولده

﴿ تابع لما قبله ﴾

﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي

صخرةٍ أو في السموات أو في الأرض يأتِ بها الله إنَّ الله لطيفٌ خبيرٌ ﴾

اعلم أن خفاء الشيء يكون إما لغاية صغره وإما لاحتجابه عن الأبصار وإما لكونه بعيداً واما لكونه فى ظلمةٍ • فبين لقمان لولده أن الخصلةَ من الاحسان أوالاساءة اذا خفيت بسببٍ من هذه الأسباب المذكورة فانها لا تخفى على الله سبحانه وتعالى بل لابدَّ أن يحضرها يوم القيامة ويحاسب عليها كما قال الله تعالى مخبراً عن وصيته لولده بذلك ﴿ يابنيَّ انها ﴾ أي ان الخصلةَ من الاحسان أوالاساءةِ ﴿ ان تكُ مثقالَ حبةٍ من خردل ﴾ أي ان تكن الخصلةُ من الاحسانِ أوالاساءةِ في الصغر مثلَ حبةِ الخردلِ • وهذه اشارةٌ الى ماخفيَ بسبب صِغرهِ ﴿ فتكن في صخرةٍ ﴾ أي فتكن تلك الخصلة المتناهية فى الصغر في أخفى مكانٍ وهو جوف الصخرة • وهذه اشارة أيضاً الى ماخفيَ بسبب حجبه عن الأبصار ﴿ أو ﴾ تكن ﴿ في ﴾ موضعٍ آخر من ﴿ السموات ﴾ وهذه اشارةٌ الى ماخفيَ بسبب بعده ﴿ أو ﴾ تكن ﴿ في ﴾ موضع آخر من ﴿ الأرض ﴾ وهذه اشارةٌ الى ماخفيَ في بطن الأرض بسبب الظلمةِ • فكأنه تعالى يقول ان الخصلةَ من الاحسانِ أوالاساءةِ ان خفيت بأي سبب من الأسباب ﴿ يأت بها اللهُ ﴾ أي يحضرها ويحاسبُ عليها فـ ﴿ ان اللهَ لطيفٌ ﴾ يصل علمه الى كل خفيٍ وقدرته نافذة فيه ﴿ خبيرٌ ﴾ ببواطن الأمور

وظواهرها. ثم قال الله سبحانه وتعالى مخبراً عن بقية وصية لقمان لابنه

﴿ تابع لما قبله أيضاً ﴾

﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

اعلم أنه لما منع ولده من الشرك وحثه على التوحيد الذي هو أول مايجب على الانسان في ضمن النهي عن الشرك وخوفه بكمال علم الله تعالى وقدرته حثه أيضاً على مكارم الأخلاق والعادات . وأول ما حثه عليه منها اقامةُ الصلاة التي هي أكمل العبادات وفيها تعظيم المعبود الحقّ ليكملَ ولده من حيث العمل كما كملَ من حيث الاعتقاد فقال مستميلاً له ﴿ يابنيّ أقم الصلاةَ ﴾ تكميلاً لنفسك فان الصلاة عِماد الدين وعِصام اليقين وأصل التقربات وسراجُ الطاعات . واعلم أن الصلاةَ لا تكون صالحةً لزاد الآخرة الا اذا كان أداؤها مع الخشوع وحضور القلب فان الغافل الذي يستغرق جميع صلاته بالوساوس وأفكار الدنيا كيف تصح صلاتهُ وكيف يعتقد أنه بتلك الصلاة أدّى ما فرضه الله عليه مع أنه متلبسٌ بها وفكرهُ مستغرقٌ فيما فعله وفيما سيفعله في المستقبل حتى أن بعضَ الغافلين يدخل فى صلاته ثم لا يشتغل الا فيما يحتال به على أخذ أموال الناس بالباطل معتقداً أنه صلى وبرئت ذمته مع أنه لم يفز من صلاته بخيرٍ أصلاً بل

خرج منها آثماً مُصراً على معصية الله تعالى واقعاً في الضلال المبين لقوله صلى الله عليه وسلم (انما الصلاة تمسكنٌ وتواضعٌ) وقال صلى الله عليه وسلم (كم من قائمٍ حظهُ من صلاته التعبُ والنصبُ) وما أراد صلى الله عليه وسلم بذلك القائم الا الغافل في صلاته المتفكر في الأمور الدنيوية في أثنائها • واعلم أن الذي يجب أن يستحضره المصلي في قلبه عند كل ركنٍ وشرطٍ من أعمال الصلاة أمرٌ مهمٌ لا تقع الصلاة موقع القبول الا به فان كنت من المريدين للآخرة فالحق اللازم عليك أن لا تغفل أولاً عن التنبيهات التي في شروط الصلاة وأركانها • أما الشروط المتقدمة على الصلاة فهي الأذانُ والطهارةُ وستر العورة واستقبال القبلة والانتصاب قائماً والنيةُ • فاذا سمعت نداء المؤذن فأحضر في قلبك هولَ النداء يوم القيامة واعزم في ظاهرك و باطنك على الاجابة والمسارعة فان المسارعين الى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر فاعرض قلبك على هذا النداء فان وجدته مملوءاً بالفرح والاستبشار مشحوناً بالرغبة الى المسارعة والابتدار فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء • وأما الطهارةُ فاذا أتيت بها في مكان صلاتك وثوبك و بدنك فلا تغفل عن الاتيان بها في قلبك فاجتهد في تطهيره بالتوبة والندم على مافرَط منك في الماضي وتصميم العزم على الترك في المستقبل فطهر بها باطنك فانه موقع نظر معبودك • وأما ستر العورة فمعناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق فان ظاهر بدنك موقع نظرهم فاذا كان هذا حالك مع

الخلق في عورات بدنك وفضائح ظاهرك فكيف حالك في عورات
باطنك وفضائح سرائرك التي لم يطلع عليها الا ربك سبحانه وتعالى ٠
فاللائق حينئذ بك أن تحضر تلك الفضائح ببالك وأن تطالب نفسك
بسترها متيقناً أنه لا يسترك عن الله ساتر وهذه الفضائح لا يكفرها
الا الندم والحياء والخوف من الله تعالى فاذا استحضرتها في قلبك
انبعثت فيه جنود الحياء والخوف فتضرب الذلة والمسكنة على نفسك
وتوقع الخجل في قلبك وتقوم بين يدي الله عزوجل قيام العبد
المذنب المسيء الآبق الذى ندم فرجع الى مولاه ناكساً رأسه من
الحياء والخوف منه وأما استقبال القبلة فهو صرف ظاهر وجهك عن
سائر الجهات الى جهة بيت الله تعالى فلا تظن أن صرف وجهك
الى بيت الله هو المطلوب فقط بل المطلوب منك هو صرف القلب
عن سائر الأمور والتوجه الى أمر الله عز وجل لأنه لا مطلوب منك
سواه وانما جعلت هذه الظواهر محركة للبواطن ومسكنة للجوارح
بالاثبات في جهة واحدة حتى لا تبغي على القلب فانها اذا بغت وظلمت
في حركاتها والتفاتها الى جهاتها جرت القلب وانقلبت به عن الله
عز وجل فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك منصرفين عن غيره تعالى
الى حضرته فكما أن الوجه لا يتوجه الى جهة البيت الا بالانصراف
عن غيرها من بقية الجهات فكذلك القلب لا ينصرف الى الله تعالى
الا بالتفرغ عما سواه

قال النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ إذا قامَ العبدُ إلى صلاتهِ فكانَ هواهُ ووجههُ وقلبهُ إلى اللهِ عزّ وجلّ إنصرفَ كيومٍ ولدتهُ أمهُ ﴾

وأما الاعتدال قائماً فانما هو حضورٌ ووقوفٌ بالشخص والقلب بين يدي الله عز وجل فليكن رأسك الذى هو أرفع أعضائك مُطرِقاً مطأطئاً متنكساً تنبيهاً علي الزام القلب التواضع والتذلل والتبري عن الترؤس والتكبر متذكراً خطر القيام بين يدي الله عز وجل فى هول الموقف عند العرض للسؤال ولتكن في هذه الحالة عالماً أنك واقفٌ بين يدي أحكم الحاكمين وأنه مطلعٌ عليك فقم بين يديه مثل قيامك بين يديْ بعض ملوك الزمان ان كنت عاجزاً عن معرفة كُنهِ جلاله بل قدر فى جميع صلاتك آنك ملاحظٌ بمراقبةِ عين رجل صالح متبصر من قومك أو ممن ترغب أن يعرفك بالصلاح فانك في هذه الحالة تسكن جميع جوارحك وأطرافك مع الخشوع التام خائفاً أن ينسبك ذلك العاجزُ المسكين الي قلة الخشوع وعدم الصلاح واذا أحسست من نفسك بالخشية عند ملاحظة عبد مسكينٍ فعاتب نفسك وقل لها انك تدّعين معرفةَ الله تعالى وحبه فكيف لاتستحين من جرائتك عليه مع توقيرك عبداً من عبيده أفتخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق آن يُخشى ولذلك لما قال أبوهريرة للنبي صلى الله

عليه وسلم كيف الحياء من الله • قال له صلى الله عليه وسلم (تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من قومك) وأما النيةُ فهي أن تعزم على اجابةِ الله عز وجل في امتثال أمره بالصلاة واتمامها والكف عن نواقضها ومفسداتها واخلاص جميع ذلك لوجه الله تعالى رجاءَ لثوابه وخوفاً من عقابه وطلباً للقرب منه وشكراً لنعمته عليك باذنه لك في مناجاته مع سوء أدبك وكثرة عصيانك وعظّم في نفسك قدر مناجاته وانظرْ مَن تناجي وكيف تناجي وبماذا تناجي وعند هذا ينبغي أن يعرقَ جبينك من الخجل وترتعد فرائصك من الهيبة و يصفر وجهك من الخوف • وأما التكبير فانه اذا نطق به لسانك يجب أن لا يكذبه قلبك فان كان في قلبك شيء أكبر من الله تعالى فالله يشهد انك لكاذب وان كان الكلام صدقاً لأن المنافقين لما قالوا بلسانهم للنبي صلى الله عليه وسلم كما حكي الله عنهم (انك لرسولُ الله) ولم يقولوا ذلك بقلبهم ردّ الله عليهم بقوله تعالى (واللهُ يشهدُ ان المنافقين لكاذبون) فان كان هواك أغلب عليك من أمره تعالى فأنت له في الطاعة أطوع منك لله تعالى فتكون قد اتخذت هواكَ إلهاً لك وكبرته فيقرُب أن يكون قولك الله أكبر كلاماً باللسان المجرد عن مساعدة القلب وما أعظم الخطرَ في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسنُ الظن بكرم الله تعالى وعفوهِ وأما دعاء الاستفتاح الذي يكون بعد التكبير قبل الفاتحة فأول كلماته قولك (وجهتُ وجهيَ للذى فطرَ السموات والأرضَ) فليس المراد بالوجه وجهك الظاهر لأنك انما وجهته

الى جهة القبلة والله تعالى منزه من أن يكون في جهة من الجهات حتى تُقبل بوجه بدنك عليه وانما المراد بالوجه في هذا الدعاء وجه القلب لأنه هو الذى يمكنك أن تتوجه به الى فاطر السموات والأرض فانظر الي قلبك هل هو متوجه الى غاياته وهمة في البيت والسوق متبع للشهوات أو هو مقبل على فاطر الأرض والسموات فاحذر أن يكون قولك وجهت وجهيَ للذي فطرَ السموات والأرض قولاً بمجرد اللسان فقط فتكون قد افتتحت مناجاتك بالكذب والاختلاق بل اجتهد فى أن يكون قولك هذا مُصاحباً لانصراف الوجه الى الله تعالى ولن ينصرف الوجه الى الله تعالى الا بانصرافه عما سواه فاجتهد في صرفه اليه عند هذا القول بل على الدوام وان عجزت عنه على الدوام فليكن هذا القول صادقاً • وثاني كلمات هذا الدعاء قولك (حنيفاً مسلماً) فينبغي أن يخطر ببالك عند التلفظ بهذه الكلمة أن المسلم هو الذي سَلِم المسلمون من لسانه ويدهِ فان لم تكن كذلك كنت كاذباً فاجتهد في أن تعزم عليه فى الاستقبال وتندم على ما سبقَ من العصيان • وثالث كلمات هذا الدعاء قولك (وما أنا من المشركين) فاذا قلت هذه الكلمة فكن حذِراً من الشرك الخفيِّ فان قوله تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادةِ ربهِ أحداً) نزل فيمن يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس له بتلك العادة فكن خائفاً من هذا الشرك خَجلاً من أن تصف نفسك بأنك لست من المشركين والحال انك لست بريئاً من هذا الشرك الخفي • وبقية هذا الدعاء قولك

(ان صلاتي ونسكي ومحيايَ ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أُمرتُ وأنا من المسلمين) فاذا قلت محيايَ ومماتي لله فاعلم أن هذا قول عبدٍ مفقودٍ لنفسه موجودٍ لسيده فان صدرَ هذا القول ممن رضاه وغضبهُ وقيامه وقعوده ورغبته في الحياة ورهبته من الموت لأُمور الدنيا وتعلقه بها فانه لم يكن موافقاً لحال هذا العبد المخلص في قوله محياي ومماتي لله • واذاقلت أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم فاعلم أنه عدوك مترصدٌ لصرف قلبك عن الله عز وجل حسداً لك على ما وصلتَ اليه من مناجاتك لله عز وجل وسجودك له وهو لم يصل الى شيءٍ من ذلك بل طُرد ولعن بسبب سجدة واحدةٍ تركها ولم يُوفق لها • ثم انه لاتتم استعاذتك بالله من الشيطان الا اذا تركت ما تحبه أنت واستبدلته بما يحبه الله تعالى لا بمجرد قولك فان من قصده سَبُعٌ أو عدو ليفترسه أو ليقتله فقال له أعوذ منك بهذا الحصن الحصين ثم لم ينتقل الى ما استعاذ به من الحصن بل بقي ثابتاً في مكانه فان هذا التعوذ لم ينفعه فكذلك مَن يتبع الشهوات التي يحبها الشيطان ويكرهها الرحمن فان مجرد التعوذ باللسان لم ينفعه بل لا بدّ أن يكون تعوذه باللسان مقترناً بالعزم على التعوذ بحصن الله تعالى من شر الشيطان وحصنُه تعالى هو لااله الا الله لأنه وردَ في الحديث القدسي (لا إله الا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي) ولا يتحصن بهذا الحصن الا من كان معبوده الله تعالى وترك اتباع الشهوات وأما من اتخذَ إلهه هواه فهو في ميدان الشيطان لافي حصن الرحمن • واعلم

أن من مكايده أن يشغلك في صلاتك بذكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات ليمنعك عن فهم ما تقرأه فكل ما يشغلك عن فهم معانى ما تقرأه فهو وسواس لأن حركة اللسان ليست مقصودة وانما المقصود هو المعاني • وأما القراءة في الصلاة فالناس فيها على ثلاث حالات رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل وهي درجات أصحاب الدنيا • ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمع من غيره وهي درجات أصحاب اليمين • ورجل يسبق قلبه الي المعاني أولاً ثم يخدم القلب فيترجم تلك المعاني وهي درجات المقربين الذين جعلوا لسانهم ترجماناً تابعاً للقلب ولا يتبعه القلب • وتفصيل ترجمة المعاني أنك اذا قلت (بسم الله الرحمن الرحيم) فانو به التبرك لابتداء ما تقرأه من كلام الله تعالى واعتقد أن معنى البسملة كل أمر لا يكون الا بالله تعالى وأن المراد بالاسم المسمى • واذا كان كل أمر لا يتم الا بالله تعالى فلا شك أن يكون الحمد لله • فاذا قلت (الحمد لله رب العالمين) فاعتقد أن معناه كل شكر لله لأن كل نعمة على العبد فهي منه • ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غيره تعالى بشكر معتقداً أنه هو المنعم عليه وليس مسخراً من الله تعالى فان في تسميته وتحميده اشراكاً بالله على حسب التفاته الى غير الله تعالى واذا قلت (الرحمن الرحيم) فاستحضر في قلبك جميع أنواع لطفه لتنكشف لك رحمته فيقوي بها رجاؤك ثم اذا قلت (مالك يوم الدين) فاستحضر التعظيم والخوف منه تعالى بقلبك مهابة واجلالاً للذات العلية مع الخشوع والتواضع فأما العظمة

فلأنه لا مالك الا له . وأما الخوف فبسبب هول يوم الجزاء والحساب
الذي هو مالكه . ثم جدد الاخلاص بقولك (اياك نعبد) وجدد
العجز والاحتياج والتبري من الحول والقوة بقولك (واياك نستعين)
واعتقد أنه ماتيسرت لك طاعته الا باعانته وأن له المنة عليك حيث
وفقك لعبادته واستخدمك لطاعته وجعلك أهلاً لمناجاته ولو حرمك
التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين . ثم اذا فرغت من
التعوذ والتسمية والتحميد ومن اظهار الاحتياج اليه والاعانة به في
كل أمر فعين سؤالك له ولا تطلب منه الا أهم حاجاتك فقل
(اهدنا الصراط المستقيم) الذي يوصلنا الى النعيم المقيم وزده شرحاً
وتفصيلا بقولك (صراط الذين أنعمت عليهم) وأفضت عليهم
نعمة الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين (غير
المغضوب عليهم ولا الضالين) من الكفار والزائغين . ثم قل آمين
ملتمساً منه تعالى الاجابة . فاذا تلوت الفاتحة على هذه الصفة كنت
من الذين أنعم الله عليهم . وكما ينبغي لك أن تفهم ماتقرأه من الفاتحة في
الصلاة فكذلك ينبغي لك أيضاً أن تفهم معنى ما تقرأه من السور
بعد الفاتحة فلا تغفل عن فهم مافيها من أمره تعالى ونهيه ووعده
ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر مننه واحسانه . فاستحضر بقلبك
لكل واحد من هذه الأمور حقه . فالعزم حق الأمر والنهي
. والرجاء حق الوعد . والخوف حق الوعيد . والاتعاظ حق الموعظة
والاعتبار حق أخبار الأنبياء . والشكر حق ذكر الله المنة والاحسان

وقد كان أكثر الصحابة والتابعين اذا سمعوا آية تتضمن واحداً
من هذه الأمور فبعضهم يموت فى الحال وبعضهم تأخذه الدهشة
وبعضهم يرتعد كسعفة الجريد فهؤلاء أقوام عرفوا الله تعالى حق
المعرفة فحق لهم أن تحترق قلوبهم بوعد سيدهم ووعيده فانهم معتقدون
أن كل انسان عبد مذنب ذليل بين يدي جبار قاهر • وادراك هذه
المعانى يكون بحسب درجات الفهم التى تكون زيادتها بقدر وفور العلم
وصفاء القلب ودرجات ذلك لا تنحصر والصلاة مفتاح القلوب وفيها
تنكشف أسرار الكلمات فهذا حق قراءة القرآن فى الصلاة وهو حق
الأذكار والتسبيحات فيها أيضاً • وأما القيام فيها ودوامه حال القراءة
فانه تنبيه للمصلى على اقامة القلب مع الله تعالى على صفة واحدة من
الحضور • فقد قال صلى الله عليه وسلم (ان الله عز وجل مقبل على
المصلى مالم يلتفت) أي ناظر له بعين الرضا والرحمة فكما يجب حفظ
العين والرأس عن الالتفات الى الجهات فكذلك يجب حفظ القلب
عن الالتفات الى غير الصلاة فاذا التفت فلبك الى غيرها فذكره
باطلاع الله عليه وعرفه بأن التهاون بالمناجى عند غفلة المناجي قبيح
ليعود اليه والزم الخشوع بالقلب فان الخلاص عن الالتفات ظاهراً
وباطناً ثمرة الخشوع وكلما خشع الباطن خشع الظاهر • فقد روي
أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عند رؤيته رجلاً يعبث بلحيته
في الصلاة (أما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه فان الرعية بحكم الراعى)
وأراد بالراعي القلب • وبالرعية الجوارح • وأما الركوع والسجود

فينبغي أن تجدد عندهما ذكر كبريائه تعالى وعظمته مستأنفاً بركوعك ذلاً لجلاله تعالى وتواضعاً لعظمته واجتهد فى ترقيق قلبك وتجديد خشوعك معتقداً ذلك وعزة مولاك وعلوه واستعن على ذلك بلسانك فسبح ربك واشهد له بالعظمة وأنه أعظم من كل عظيم وكرر ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار • ثم ترتفع من ركوعك راجياً أنه تعالى راحم لك ومؤكداً لهذا الرجاء فى نفسك قائلا فى رفعك من الركوع سمع الله لمن حمده أي أجاب لمن شكره ثم تتبع ذلك بالشكر الذى ينشأ عنه مزيد النعمة فتقول ربنا لك الحمد ثم تهوى الى السجود وهو أعلى درجات التواضع والتذلل فتمكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب وان أمكنك أن تباشر السجود على الأرض الطاهرة من غير حائل بينها و بين وجهك فافعل ذلك فانه أجلب للخشوع ودال على شدة الذل واذا وضعت نفسك موضع الذل فاعتقد أنك وضعتها فى موضعها ورددت الفرع الى أصله لأنك من التراب خلقت بواسطة خلق آدم عليه السلام منه واليه تعود فجدد عند السجود عظمة الله على قلبك وقل سبحان ربي الأعلى وأكد بالتكرار ثلاث مرات فان المرة الواحدة ضعيفة فى التأثير فان رق قلبك فتيقن صدق رجائك فى رحمة الله فان رحمته تعالى تتسارع الى الضعف والذل لا الى التكبر والتعاظم فارفع رأسك من السجود الأول مكبراً وسائلاً حاجتك بما أردت من الدعاء ثم أكد التواضع والتذلل بتكرار السجود ثانياً • وأما التشهد

فاذا جلست له فاجلسْ متأدباً واعتقد بأن جميع ما تتقرب به من الصلوات والطيبات التى هي الأخلاق الطاهرة لايليق أن تكون الا لله و بأن الملك لله وهو معنى التحيات الى آخره • ثم استحضر في قلبك النبي صلى الله عليه وسلم وشخصه الكريم قائلاً السلام عليك أيها النبي ورحمةُ الله و بركاتهُ • ولتكن مؤملاً أملاً صادقاً في أنه صلى الله عليه وسلم يردعليك هذه التحية بماهو أوفيَ منها لأنها تبلغهُ كما ورد في الأخبار ثم تسلم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين • ثم ترجو أن يرد الله تعالى عليك سلاماً وافياً بعدد عباده الصالحين • ثم تشهد له بالوحدانية ولنبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة مجدداً عهد الله تعالى باعادة كلمتى الشهادة ومتحصناً بها • ثم ادع الله تعالى في آخر صلاتك بالدعاء الواردِ مع التواضع والتضرع والابتهال وصدق الرجاء للاجابة وأدخل معك في الدعاء أبويك وجميع المؤمنين واقصد بسلامك التسليم على الملائكة والحاضرين وانوِ ختم الصلاة به واشكر الله سبحانه وتعالى على توفيقه لك لاتمام هذه الطاعة وتوهم أنك مودع للدنيا بصلاتك هذه وأنك ربما لا تعيش لمثلها في المستقبل ثم اتهم نفسك بالتقصير في الصلاة مستحضراً في قلبك الخوف والحياء من الله تعالى حَذَراً • من عدم قبول صلاتك بسبب ذنب ظاهرٍ أو باطنٍ يستوجب المقت فترد صلاتك في وجهك وترجو مع ذلك أن يقبلها الله تعالى بفضله وكرمهِ فقد كان السلف الصالح اذا فرغوا من صلاتهم مكثوا زماناً طويلاً كأن بهم مرضاً • من شدة التفكر

والخوف من التقصير وعدم القبول • فهذا تفسير صلاة الخاشعين (الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم على صلواتهم يحافظون) والذين هم على صلاتهم دائمون • والذين هم يناجون الله على قدر طاقتهم في العبودية • فعلى العاقل أن يعرض نفسه على هذه الصلاة فيفرح بالقدر الذي يسره الله له منها على الوجه المرضي ويتحسر على ما يفوته منها ويجتهد في مداواة ذلك خوفاً من أن يقع في صلاة الغافلين التي لا ينشأ عنها في الآخرة الا الخطر العظيم والعذاب الاليم الا أن تسبق رحمة الله تعالى فانها واسعة وكرمه فائض • واعلم أن تخلص الصلاة عن الآفات واخلاصها لوجه الله تعالى وأداءها بما ذكرناه من الشروط الباطنة التي هي الخشوع والتعظيم والحياء سبب لحصول أنوار في القلب وتكون تلك الأنوار مفاتيح علوم المكاشفة • فأولياء الله المكاشفون لملكوت السموات والأرض وأسرار الربوبية لا يكاشفون حق المكاشفة الا في الصلاة ولا سيما في السجود لأن العبد يتقرب من ربه سبحانه وتعالى بالسجود ولذلك قال جلت قدرته (فاسجد واقترب) وكل مصل تكون مكاشفته على قدر صفاء قلبه عن كدورات الدنيا ويختلف ذلك بالقوة والضعف والكثرة والقلة والجلاء والخفاء • حتى أن بعضهم ينكشف له الشيء بعينه وحقيقته • و بعضهم ينكشف له الشيء بمثاله كما انكشفت لبعضهم الدنيا في صورة جيفة وانكشف له الشيطان في صورة كلب واقف عليها يدعو الناس اليها • ثم ان ماينكشف لهم من الأسرار مختلف أيضاً فبعضهم ينكشف له سر

من صفاته تعالى وجلاله و بعضهم ينكشف له سرٌّ من أفعاله تعالى
و بعضهم ينكشف له بعض دقائق علوم المعاملة . ويكون لتعيين تلك
المعاني المنكشفة أسبابٌ خفيةٌ في كل وقت لا تنحصر . وأشدّها
مناسبةً هو الهمة لأنها اذا كانت مصروفةً الى شيء معين كان
ذلك الشيء أولى بالانكشاف . ولما كانت هذه الأمور لا تتراءى
للمكاشف الا اذا كانت مرآة قلبه صقيلةً صافية وكانت مرآة أكثر
القلوب صدئةً احتجبت عنها الهداية لا لبخل من جهة المنعم
بالهداية بل لخبثٍ متراكمٍ صَدَئه على مَصب الهداية فتسارعت
الألسن الى انكار مثل ذلك لأن الطبع مجبولٌ على انكار غير
الحاضر ولو كان للجنين عقلٌ وهو في بطن أمه لأنكر إمكان وجود
الانسان في متسع الهواء بظهر الأرض ولو كان للطفل أدنى تمييز
لأنكر ما يدّعيه العقلاء من الادراكات المتعلقة بملكوت السموات
والأرض وهكذا الانسان في كل طور يكاد أن ينكر ما بعده وقد
خُلق الانسان أطواراً فلا يليق أن ينكر كل واحدٍ ما فوق درجته
ولكن ظهر في زماننا هذا أقوام يدّعون المعرفة وهم بعيدون عنها .
فأنكروا كرامات الأولياء بل وأنكروا الولاية رأساً وطلبوا الدليل
على ذلك من جهة المجادلة والمباحثة المشوشة ولم يطلبوه من جهة
تصفية القلوب عما سوى الله تعالى فحجبوا عن المكاشفة وصاروا

في بعدٍ عنها ومن لم يكن من أهل المكاشفة فلا يمكنه أن يؤمن بالغيب ويصدق به الا بالتجربة ومن أين لهم التجربة وقد أصبحت قلوبهم مملوءةً بالانكار والسعي فيما يُبطل السُبلَ الموصلةَ الى الهدايةِ وانكارِ حال الولاية • ومن أنكر درجةَ الولاية لابدَّ أن ينكر درجة النبوة • ولو كان هؤلاء القوم يؤدون الصلاةَ على الوجه المرضيّ لانكشفت لهم هذه الأسرار وسطعت على قلوبهم تلك الأنوار • انتهى * ثم قال لقمانُ في وصيته لولده بعد أن أوصاه باقامة الصلاة كما حكي الله عنه

﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾

لتكملَ بهما غيرك وتوصله الى الأخلاق الفاضلةِ كما كملتَ ووصلتَ أنت اليها * واعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الركن الاعظم في الدين ومن أجله بعثَ الله النبيين أجمعين • ولو أهمل العلم والعمل به لتعطلت النبوة واضمحلت الديانةُ وفشت الضلالة وشاعت الجهالة وسرى الفساد واتسع الخرق وخَربت البلاد وهلك العباد ولم يشعروا بالهلاك الا يوم التناد وقد اندرس من هذا الركن الذي هو قطب دائرة الدين العلم والعمل به وانمحقت بالكلية حقيقته فاستولت على القلوب مداهنةُ الخلق واضمحلت عنها مراقبةُ الخالق واسترسل

الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم • وعز علي بساط
الارض وجود مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومةُ لائم حتى صار
العالم في هـذا الزمان معرضاً عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
بل ربما يوافق على فعل المنكر في بعض الأحيان وهوما اذا كان
صدور المنكرات من رئيس حكومة سياسيةٍ أو من غنيٍ وجيه يترقب
منه نعمةً (فانا لله وانا اليه راجعون) فمن سعي في تجديد هذه السنة
الدائرة ناهضاً بأعبائها ومتشمراً في إحيائها فانه يكون مقدماً عند الله
على غيره من الخلق بسبب احيائهِ سنةً أفضى الزمان الى إماتتها
ومتقرباً الى الله تعالى بقربةٍ تقصرُ جميع القرب عن الترقي الى درجتها
وهانحن نشرح علم هذه السنة مفصلا عسى الله أن يوفقنا وعلماء الدين
للقيام باحيائها فنقول • اعـلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
واجبان على كل مسلمٍ يمكنهُ أن يقوم بهما واهمالها واضاعتهما مذمومان
وفضائل العمل بهما كثيرةٌ • ويدل على ذلك بعد اجماع الأمة عليه
واشاراتِ العقول السليمة اليه آيات كثيرةٌ وأخبار أكثر منها • فمن
الآيات قوله تعـالى (ولتكن منكم أمةٌ يدعون الى الخير ويأمرون
بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) فدلت هذه الآية
الكريمةُ على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان وأن
الفلاح مختصٌ بهما وأرشدتنا الى أن القيام بهما فرض كفايةٍ لا فرض
عين فاذا قام به البعض في ناحيةٍ سقطَ عن الآخرين لأنه تعالى
لم يقل كونوا كلكم آمرين بالمعروف وناهين عن المنكر بل قال تعالى

(ولتكن منكم أمة) فحينئذ متى قام بهما واحدٌ أو جماعة من أهل جهة
سقطَ الحرجُ عن الآخرين واختصَّ الفلاح الكامل الذي أخبر
الله عنه في الآية بالقائمين بهما وأما ان تأخر عنه جميع الخلق عمَّ الحرجُ
كلَ القادرين على القيام بهما من غير شك ومنها قوله تعالى (والمؤمنون
والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
ويقيمون الصلاة) فقد مدح الله المؤمنين في هذه الآية بأنهم يأمرون
بالمعروف وينهون عن المنكر . فالذي يترك الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر فكأنه خارجٌ عن المؤمنين الذين مدحهم الله تعالى في
هذه الآية . ومنها قوله تعالى مادحاً لهذه الأمة (كنتم خير أمة
أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) فبين تعالى في
هذه الآية أن هذه الأمة خيرُ الناس بسبب الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر . وهذا يدل على أفضليتهما وقد أخبر الله تعالى في آياتٍ
كثيرة عن بني اسرائيل أنهم هلكوا بسبب تركهم الأمر بالمعروف
والنهي عن المنكر ولم ينجُ منهم الا من قام بهما . وأخبرَ أيضاً عن
الذين كفروا منهم بأنهم لُعنوا على لسان داود وعيسى بن مريم بسبب
تركهم النهيَ عن المنكر . وهذا تشديدٌ عظيمٌ يدل على وجوب
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى أن من تركهما مع القدرة صار
آثماً واستحق العذاب من الله تعالى في الآخرة . وأما الأخبار فمنها ماروي
عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها أيها الناس
انكم تقرؤن هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها (يا أيها الذين

آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ اذا اهتديتم الى الله مرجعكم جميعاً) واني سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (مامن قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل الايوشكُ أن يعمهم الله بعذاب من عنـــده) وروي أن أبا ثعلبةَ سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تفسير قوله تعالى (لا يضرُّكم من ضل اذا اهتديتم) فقال له صلى الله عليه وسلم (ياأبا ثعلبةَ) مُرْ بالمعروف وانهَ عن المنكر فاذا رأيتَ شُحاً مطاعاً وهوًى متبَعاً ودُنيا مؤثرة واعجاب كل ذي رأي برأيهِ فعليك بنفسك ودَع عنك العوام ان من ورائكم فتناً كقطعِ الليل المظلم للمتمسك فيها بمثل الذي أنتم عليه أجرُ خمسين منكم) فقيل له صلى الله عليه وسلم بل منهم يارسول الله قال (لا بل منكم لأنكم تجدون على الخير أعواناً)

قال النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ لَتأمُرُنَّ بالمعرُوفِ ولَتنهَوُنَّ عنِ المنكرِ * أوْ لَيُسلِّطنَّ اللهُ عليكُمْ شِرَارَكُمْ * ثمَّ يَدْعُوا خيارُكُمْ فلاَ يُستجابُ لهُمْ ﴾

فدل هذا الحديث على أنهم ان تركوا الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر تسقط مهابتهم من أعين الأشرار فلا يخافونهم بل ينظرون

اليهم بعين الاحتقار . ثم اذا دعي الواحد منهم لا تُقبل دعوته . وقال صلى الله عليه وسلم (إياكم والجلوسَ على الطرقات) قالوا مالنا بُدٌّ انما هي مجالسنا نتحدث فيها قال (فاذا أبيتم الاذلك فأعطوا الطريقَ حقهــا) قالوا وما حق الطريق قال (غضُّ البصر وكف الأذى وردُّ السلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وقال صلى الله عليه وسلم (كلامُ ابنِ آدم كلهُ عليه لا له الا أمراً بمعروفٍ أو نهياً عن منكرٍ أو ذكراً لله تعالى) وقال صلي الله عليه وسلم (كيف أنتم اذا طغى نساؤكم وفسقَ شبانكم وتركتم جهادَكم) فقالوا وان ذلك لكائن يارسول الله قال (نعم والذي نفسي بيدهِ وأشدُّ منه سيكون) قالوا وماأشد منه يارسول الله قال (كيف أنتم اذا لم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر) قالوا وكائنٌ ذلك يا رسول الله قال (نعم والذي نفسي بيدهِ وأشد منه سيكون) قالوا وما أشد منه يارسول الله . قال (كيف أنتم اذارأيتم المعروف منكراً والمنكرَ معروفاً) قالواوكائن ذلك يارسول الله قال (نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون) قالوا وما أشدمنهيارسول الله قال (كيف أنتم اذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف) قالوا وكائن ذلك يارسول الله قال (نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون يقول الله تعالى بي حلفتُ لأُتيحنَّ لهم فتنةً يصير الحكيم فيها حيران) وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لاتقفنَّ عند رجلٍ يقتل مظلوماً فان اللعنة تنزل علي من حضره ولم يدفع عنه ولاتقفن عندرجلٍ يضرب

مظلوماً فان اللعنة تنزل على من حضره ولم يدفع عنه) ثم قال ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا ينبغي لامرئ شهد مقاماً فيه حقٌ الا تكلم به فانه لن يقدم أجله ولن يحرمه رزقاً هوله) فدل هذا الحديث على أنه لا يجوز الدخول في بيوت الظلمة والفسقة وأنه لا يجوز الحضور في المجالس التي يشاهد الانسان فيها المنكر ولا يمكنه أن يزيله فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في الحديث المذكور (ان اللعنة تنزل علي من حضرَ) ودل أيضاً على أنه لا يجوز للانسان أن يشاهد المنكر من غير حاجة ثم اذا لامه أحد على ذلك يعتذر بأنه عاجزٌ عن تغيير هذا المنكر ولهذا اختار جماعةٌ من السلف الصالح العزلةَ عن الناس لما شاهدوا فعل المنكرات في الاسواق والأعياد والمجالس وعجزوا عن تغييرها • وهذا يقتضي لزوم الهجرِ للخلقِ • ولذلك قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ماساحَ السواح وخلوا بيوتهم وأولادَهم الا بمثل مانزل بنا حين رأوا الشرَّ قد ظهرَ والخير قد اندرسَ ورأوا أنه لا يقبل ممن تكلم ورأوا الفتنَ ولم يأمنوا أن تعتريَهم وأن ينزل العذاب بأولئك القوم فــلا يسلمون منه فرأوا أن مجاوَرة السباع وأكل البقول خيرٌ من مجاورة هؤلاء في نعيمهم • ثم قرأ قوله تعالى (ففروا الى الله اني لكم منه نذير مبين) وقال بعد ذلك ففرَّ قومٌ فلولا ماجعل الله جل ثناؤه في النبوة من السر لقلنا ماهم بأفضلَ من هؤلاء فيما بلغنا أن الملائكةَ عليهم السلام لتتلقاهم وتُصافحهم والسحاب والسباع تمر بأحدهم فيناديها فتجيبهُ ويسألها أين

أُمرت فتخبره وليس بنبيٍ" انتهى كلام عمر بن عبد العزيز • واعلم أنه لا يجب على القائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر القيام بهما الا اذا اجتمع فيه ثلاثة شروط • الشرط الأول أن يكون مكلفاً أي بالغاً عاقلاً • الشرط الثاني أن يكون مسلماً مؤمناً بوحدانية الله تعالى عالماً عاملاً بعلمه تقياً صالحاً فلا وجوب على الكافر المنكر لوحدانية الله تعالى لأن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نُصرةٌ للدين فلا يكون من أهلها من هو جاحدٌ لأصل الدين وعدوٌّ له • الشرط الثالث أن يكون قادراً على تغيير المنكر • وأما العاجزُ فلا يجب عليه الانكار إلا بقلبه لأن كل من أحب الله تعالى يكره معاصيه وينكرها • فالقائم بهذين الامرين له أربعة أحوال • الحالةُ الأولى أن يعلم أنه لا ينفع كلامهُ بل يُؤذي ان تكلم فلا يجب عليه القيام بهذين الأمرين بل ربما يحرُمُ فى بعض المواضع . لكنه في هذه الحالة يلزمهُ أن لا يحضُرَ موضع المنكر الذي عجز عن تغيبره ويعتزِل في بيته حتى لا يشاهده ولا يخرج الالحاجةٍ مهمة أولواجب ولا يلزمهُ أن يخرج من تلك البلدة • الحالةُ الثانيةُ أن يعلمَ أن المنكر يزول بقوله وفعله ولا يصيبهُ مكروهٌ فيجب عليه الانكار • وهذه هي القدرةُ المطلقة • الحالةُ الثالثة أنه لا يفيد انكاره ولكنه لا يخاف مكروهاً فلا يجب عليه الانكار لعدم فائدته • ولكنه يستحب لإظهار شعائر الاسلام وتذكير الناس بأمر الدين . الحالةُ الرابعةُ عكسُ الثالثة وهو أن يعلم المنكر أنه يصاب بمكروه . ولكن يتغير المنكر بفعله كأن يقدر على

رمي زجاجة الفاسق بحجر فيكسرها ويريق الخمر ولكن يعلم أنه يرجع اليه فيضرب رأسه . فهذا الانكار ليس بواجب وليس بحرام بل هو مستحب وأدلته طويلة مذكورة في كتاب احياء علوم الدين للغزالي . ثم ان المنكر الذي تجب ازالته له أربعة شروط . الشرط الأول أن يكون ذلك الشئ منهياً عنه في الشرع . وهذا شامل للصغائر والكبائر . فمن رأى صبياً يشرب الخمر أو غيره من المسكرات فيجب عليه أن يريق خمره ويمنعه لأن هذا داخل في المنكرات في الشرع وان كان لا يسمى معصية في حق الصبي وانما الشرع نهى عنه حذراً من أن يتعود الصبي الفسق فلا يتركه بعد بلوغه . الشرط الثاني في وجوب الازالة أن يكون المنكر موجوداً في حال النهي عنه . وأما النهي عن المنكر الذي سيوجد كما اذا علم الناهي من حال شخص أنه عازم على الشرب مثلاً في ليلته فلا يكون مطلوباً الا بالوعظ لا بالازالة . الشرط الثالث أن يكون المنكر ظاهراً للمنكر من غير تجسس . فكل من ستر معصية في بيته وأغلق بابه فانه لا يجوز للمنكر أن يتجسس عليه لأن الله تعالى نهي عن التجسس بقوله (ولا تجسسوا) وقد روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أتى بيت رجل من غير الباب فرآه على حالة مكروهة في الشرع فأنكر عليه . فقال له الرجل يا أمير المؤمنين ان كنت قد عصيتُ الله من وجهٍ واحد فأنت قد عصيته من ثلاثة وجوه . فقال له عمر وما هي . فقال له الرجل قد قال الله تعالى (ولا تجسسوا) وأنت قد تجسستَ . وقال تعالى (وأتوا البيوت

من أبوابها) وقد تسورتَ من السطح وقال تعالى (لاتدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها) وأنت ماسلمتَ فتركه عمر وشرطَ عليه التوبة • ثم لما أصبح عمر رضي الله عنه صعد المنبر وشاورَ الصحابةَ رضي الله عنهم فسألهم عن الامام هل إذا شاهد بنفسه منكراً حاصلاً في شخصٍ فهل له اقامةُ الحد فيه • فقال له الامام علي رضي الله عنه ان ذلك منوطٌ بعدلين فلا يكفي فيه واحد فكل من أغلق باب بيتهِ وتستر بحيطانه فلا يجوز الدخول عليه بغير إذنه لاستكشاف المعصية الا أن يكون ذلك المنهيُّ عنه ظاهراً في البيت ظهوراً يعرفهُ مَن هو خارج عنه كأصوات المزامير والأوتار اذا ارتفعت بحيث جاوزَ ذلك حيطان البيت فكل من سمعها جازَ له دخول البيت وكسر الملاهي وكذا اذا ارتفعت أصوات السكارى بالكلمات المألوفة بينهم بحيث يسمعها أهل الشوارع فهذا اظهار يوجب الدخول في البيت من غير استئذان لإزالة تلك المنكرات • وقد يستر بعض الفساق زجاجة الخمر في ثيابه فاذا رؤيَ فاسق وتحت ثيابه شيءٌ من المنكرات لم يجز أن يستكشف عنه مالم يظهر ذلك بعلامةٍ خاصةٍ فان فسقه لايدل على أن الذي معه خمرٌ لأن الفاسق محتاج أيضاً الى الخل وغيره فلا يجوز أن يستدل بإخفائه على أنه خمرٌ • فيقال في الدليل انه لو كان حلالاً لما أخفاه لأن الأغراض في الاخفاء كثيرة فلا يكون دليلاً على الخمر • واذا كانت رائحة الخمر فائحة فان الانكار حينئذ جائزٌ على الأصح لأن هذه علامة تفيد الظن والظن كالعلم

في أمثال هذه الأمور وكل ما ظهرت دلالتهُ فهو غير مستورٍ بل هو مكشوفٌ وقد أُمرنا بأن نستر ما ستره الله وأن ننكرَ على كل من ظهرت عليه علامة من علامات الفسق وظهور العلامات على المنكر له درجاتٌ • فتارةً تظهر لنا بحاسة البصر • وتارة بحاسة السمع • وتارة بحاسة الشم • وتارة بحاسة اللمس • ولا يمكن أن نخصص ذلك بحاسة البصر لأن المراد هو العلم بالمنكرات أو الظن بها وهذه الحواس أيضاً تفيد العلم والظن • فحينئذ لايجوز للمنكر أن يكسر ماتحت الثوب من زجاجة الخمر الا اذا علم أنه خمر وليس له أن يقول أرني ما معك لأعلم مافيه لأن هذا تجسس ومبني التجسس طلب الامارات المعرفة والتفحص عن أحوال الشيء فالأمارات التي تحصل بها المعرفة ان حصلت وأورثت العلم أوالظن بالمنكر جاز العمل بمقتضاها وأما البحث عن الأمارات المعرفة فليس بجائز أصلاً • الشرط الرابع في وجوب الإزالة أن يكون العلم بكونه منكراً بغير اجتهاد بل يكون قد اتفق الأئمة على أنه منكر فكل ماهو في محل الاجتهاد المختلف فيه لايجب انكاره فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله الضبّ والضبُعَ وما تركت عليه التسمية عند الذبح بناءً على عدم حل ذلك في مذهبه وليس للشافعي أن ينكر على الحنفي تناوله ميراث ذوي الارحام بناءً على عدم حل ذلك في مذهبه فهذه الأمور ونحوها مما اختلفت فيها الأئمة لا يجب الانكار عليها • وأما انكار الشخص على غيره الموافق له في المذهب فانه واجب فلو رأى الشافعي شافعياً آخر ينكح بلاولي

من غير تقليد للمذهب الحنفي فالأصح أن له الانكار عليه وعلى كل حال فإزالة المنكر واجبة على كل من علمه وقدر على إزالته بالشروط المذكورة فان الآيات والأخبار التي أوردناها تدل على أن كل من رأى منكراً فسكت عليه فانه يكون عاصياً • فكل من قدر على دفع منكر فله أن يغيره على التدريج بيده و بسلاحه و بنفسه و بأعوانه •

قال النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُنْكِرْهُ أي فليغيره بِيَدِهِ • فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ • فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ﴾

جعلنا الله من القادرين على تغيير المنكرات بالحسنات • وحشرنا في زمرتهم ووفقنا لسلوك طريقتهم بجاه سيد السادات صاحب المعجزات • آمين • ثم قال الله تعالى حاكياً بقية وصية لقمان لولده ﴿ واصبرْ على ما أصابك ﴾ من الشدائد والمحن • لاسيما فيما أُمرت به ف ﴿ ان ذلك ﴾ الذي ذكر في هذه الوصية ﴿ من عزم الأُمور ﴾ أي مما عزمه اللهُ تعالى وقطعه على عباده من الأُمور قطع ايجابٍ وإلزامٍ

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ * وَٱقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾

اعلم أن لقمان عليه السلام لما أوصى ولده بأن يكون كاملاً في نفسه مكملاً لغيره خاف عليه أن يتكبر على الغير بسبب كونه مكملاً له أو يتبختر في النفس بسبب كونه كاملاً في نفسه فنهاه عن ذلك كله كما حكاه الله عنه بقوله ﴿ ولا تصعر خدك للناس ﴾ أي ولا تمل وجهك حين ما تقبل على الناس بصفحته وشقه كعادة المتكبرين بل أقبل عليهم اقبالاً حسناً بكل وجهك متواضعاً ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ﴾ أي فرحاً أي حال كونك ذا فرح وسرور ﴿ ان الله لا يحب كل مختال فخور ﴾ أي ان الله لا يرضى عن كل مختال وهو الذي يمشي على الأرض لأجل الفرح والنشاط ليعرّف الناس عظمة نفسه لا لأجل مصلحة دينية أو دنيوية ﴿ فخور ﴾ أي من كان مفتخراً معجباً متكبراً في نفسه مقبلا على الناس بشقّ وجهه لا بكله • وقد ذكرنا في سورة الاسراء حقيقة الكبر • وبيّنا ماورد في ذمه من الكتاب والسنة • حتى طال بنا الكلام هنالك فأحلنا بيان ما يعالج به الكبر على تفسير هذه الآية الكريمة • فلنشرع في بيانه تنجيزاً لهذا الوعد وتتميما للفائدة فنقول • اعلم أنا قد ذكرنا فيما تقدم أن الكبر من المهلكات وان إزالته فرض عين وأنه لا يزول الا بالمعالجة واستعمال

الأدوية القاطعة له • و بيان ذلك أن الانسان اذا عرف نفسه وعرف ربه تعالى قلعت شجرة الكبر من مغرسها من قلبه فانه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل وتيقن أنه لا يليق به الا التواضع والمذلة واذا عرف ربه حق المعرفة علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء الا به سبحانه وتعالى • أما معرفته لربه وعظمته ومجده • فقد بيناها في سورة البقرة من قسم الأوامر • وأما معرفته لنفسه فالقول فيها يطول ولكنا نذكر من ذلك طرفاً يسيراً ينفع في جلب التواضع والمذلة ويكفيه أن يعرف فى ذلك معنى آية واحدة من كتاب الله تعالى • فان في القرآن علم الأولين والآخرين لمن فتحت بصيرته • وهي قوله تعالى (قُتِلَ الانسان ما أكفره من أي شيء خلقهُ من نطفةٍ خلقهُ فقدره ثم السبيل يسره ثم أماتهُ فأقبره ثم اذا شاء أنشره) فقد أشارت هذه الآية الكريمة الى أول خلق الانسان والى آخر أمره والى وسطه فلينظر الانسان في ذلك ليفهم معنى هذه الآية • أما أول خلقهِ فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً وقد كان في حيز العدم • بل لم يكن لعدمه أول وأي شيء أخس وأقل من العدم ثم خلقه الله من أرذل الأشياء ثم من أقذرها لأنه خلقه من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم من علقةٍ ثم من مضغةٍ ثم جعله عظما ثم كسا العظم لحماً • فما صار الانسان شيئاً مذكوراً الا وهو على أخس الصفات لأنه تعالى خلقه جماداً ميتاً لا يسمع ولا يبصر • ولا يحس ولا يتحرك ولا ينطق ولا يبطش ولا يدرك ولا يعلم

فبدأ بموته قبل حياته . وبضعفه قبل قوته . وبجهله قبل علمه . وبعماه قبل بصره وبصممه قبل سمعه . وبكمه قبل نطقه . وبضلالته قبل هداه وبفقره قبل غناه . وبعجزه قبل قدرته . فهذا معنى قوله تعالى (من أى شيءٍ خلقه من نطفة خلقه فقدره) ثم انه تعالى امتنّ عليه بقوله (ثم السبيل يسره) وهذا اشارة الى ما تيسر له في مدة حياته الى الموت ومعناه أنه تعالى أحياه بعد أن كان جماداً ميتاً تراباً أولا ونطفة ثانياً وأسمعه بعد أن كان أصم وبصّره بعد أن كان فاقداً للبصر وقواه بعد الضعف وعلمه بعد الجهل وخلق له الاعضاء مع مافيها من العجائب بعد الفقد لها وأغناه بعد الفقر وأشبعه بعد الجوع وكساه بعد العري وهداه بعد الضلال . فانظر كيف دبره وصوره . والى السبيل كيف يسره . والى طغيان الانسان ما أكفره . والى جهله كيف أظهره . وانظر الى نعمة الله عليه كيف نقله من تلك الذلّة والخسة والقذارة الى هذه الرفعة والكرامة . وانما خلقه من التراب بواسطة خلقه لآدم منه . والنطفة القذرة بعد العدم المحض ليعرّفه خسة ذاته فيعرف به نفسه . وانما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربهُ ويعلم بها عظمته وجلاله ويتيقن أنهُ لا يليق الكبرياء الا به تعالى ثم انه تعالى جعل من الانسان الزوجين الذكر والأنثى ليدوم وجوده بالتناسل كما حصل وجوده أولاً بالاختراع . ولكنه سلط عليه فى دوام وجوده الأمراض الهائلة والأسقامَ العظيمةَ والآفات المختلفةَ والطباع المتضادّةَ من الصفراء والبلغم والسودائي

والدم حتى أن بعض أجزائه يهدم بعضه الآخر سواء رضي أو سخط فيجوع كرهاً ويعطش كرهاً ويمرض كرهاً ويموت كرهاً • لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ولا خيراً ولا شراً • يريد أن يعلم الشيء فيجهله ويريد أن يذكر الشيء فينساه ويشتهي الشيء وربما يكون هلاكه فيه ويكره الشيء وربما تكون حياتهُ فيه ويستلذ الأطعمةَ وهي تهلكه • ويستبشع الأدوية وهي تنفعه • ولا يأمن في ليله ولا نهاره أن تختطف رُوحهُ ويُسلب جميع مايهواه في دنياه فهو مضطرٌ ذليل عبد مملوكٌ لا يقدر على شيء لنفسه ولا على شيء لغيره • فأي شيء أذل منه لو عرف نفسه • فكيف يليقُ الكبر به لولا جهله • فهذا أوسط أحواله وأما آخر أمره ونهايةُ حاله فهو الموت الذى أشار الله تعالى اليه بقوله جل شأنهُ (ثم أماته فأقبره ثم اذا شاء أنشره) ومعناه أنهُ تُسلب روحهُ وسمعهُ وبصره وعلمه وقدرته وحسه وادراكه وحركته فيعود جماداً كما كان أول مرة لا يبقى منه الا شكل أعضائه وصورته فلا حس ولا حركةَ فيه • ثم يوضع في التراب فيصير جيفةً مُنتنةَ قذرة كما كان في الأول نطفةً مذرة • ثم تبلى أعضاؤه وتتفتت أجزاؤهُ ويأكلهُ الدود • فيبتدئ بحدقتيه فيقلعهما وبخديه فيقلعهما أيضاً وبسائر أجزائه فيأكل جميعها • ثم انه حين يكون جيفةً يهرب منه الحيوان ويستقذره كلُّ انسان ويهرب منه لكراهة رائحته • فلو اطلع عليه الباكون على فقده حين يصير جيفة لما استطاعوا أن ينظروا اليه نظرة واحدةً وكانوا يتمنون مفارقته • ثم يعود الى أخس أحواله

كما كان تراباً يعمل منه الكيزان ويعمر منه البنيان فيصير مفقوداً بعد أن كان موجوداً ويا ليته يبقى كذلك وما أحسنه لو ترك تراباً بل يحييه الله تعالى بعد طول البلى ليقاسي شديد البلاء فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة ويبعث الى أهوال القيامة فينظر الى قيامة قائمة وسماء مشققة مخرقة وأرض مبدلة وجبال مسيرة ونجوم منكدرة وشمس منكسفة • وأحوال مظلمة • وملائكة غلاظ شداد • وجهنم تزفر • وجنة ينظر اليها المجرم فيتحسر • ويرى صحائف منشورة فيقال له اقرأ كتابك فيقول وما هو فيقال له كان قد وكل بك ملكان في حياتك التي كنت تفرح بها وتتكبر بنعيمها وتفتخر بأسبابها وهذان الملكان الموكلان بك رقيبان عليك يكتبان ما كنت تنطق به أو تعمله من قليل وكثير وأكل وشرب وقيام وقعود وأنت قد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك • فهلم الى الحساب واستعد للجواب أو تساق الى دار العذاب • فينقطع قلبه فزعاً من هول هذا الخطاب قبل أن تنتشر الصحيفة ويشاهد ما فيها من مخازيه فاذا شاهده قال متحسراً (يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها) فهذا آخر أمره • وهو معنى قوله تعالى (ثم اذا شاء أنشره) فاذا كان هذا حال الانسان فلأي شيء يتكبر ويتعاظم • وكيف يليق به أن يفرح لحظة واحدة فضلاً عن التفاخر والتكبر الدائمين • وقد ظهر له أول حاله ووسطه ولو ظهر له آخره والعياذ بالله تعالى لربما اختار أن يكون كلباً أو خنزيراً ليصير مع البهائم تراباً

وتمنى أن لا يكون انساناً يسمع خطاباً أو يلقى عذاباً • ثم ان كان الانسان عند الله مستحقاً للعذاب بسبب ما ارتكبه في الدنيا من مخالفة أمره تعالى وأذية عباده بأكل حقوقهم أو نحوه فان الخنزير أشرف منه وأطيب وأرفع لأن الخنزير أوله التراب وآخره التراب • فهو بعيد عن الحساب والعذاب • فالخلق لا يهربون من الكلب والخنزير وأما العبد المذنب فانه لو رآه أهل الدنيا وهو يعذب في النار لصعقوا من وحاشة خلقته وقبح صورته ولو شموا رائحته لماتوا من نتنه • ولو وقعت قطرة من الشراب الذي يُسقى في الآخرة منه في بحار الدنيا لصار ماءها أنتن من الجيفة • فمن كان هذا حاله في الآخرة كيف يفرح ويتعاظم وكيف يتكبر ويتجبر وكيف يرى نفسه شيئاً حتى يعتقد له فضلا • فهذا هو العلاج العلمي القاطع لأصل الكبر وأما العلاج العملي فهو التواضع لله بفعل الطاعات ولجميع الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين • وأحسنهم خُلُقاً وأشدهم تواضعاً سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فانه كان يأكل على الأرض ويقول انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد • فكل من أراد السلامة من آفة الكبر وأحس من نفسه أنها تميل الى الترفع على الناس ينبغي له أن يداوم على التواضع فلعل الله أن يخلصه عن هذه الرذيلة • ومهما حدثته نفسه بالخلاص عن الكبر فعليه أن يمتحن نفسه بأمور أربعة • أولها أن يجرب نفسه فى المناظرة مع خصم حتى يظهر أنه هل يغضب لظهور الحق على يد غيره وهل يشتهي الاستعلاء أولاً • ثانيها أن يقدم

الأقران على نفسه في المحافل . ثالثها أن يحمل حاجته الى بيتـه من طعام وغيره ويتعاطى الأعمال فى بيته مع خادمه ويأكل معه فان هذا كله من السنة ومن جملة ذلك اجابةُ دعوةُ الفقراء والخروج معهم الى الأسواق وحمل حاجاتهم معهم • رابعها أن يلبس الثيابَ البذلةَ في المحافل • قال عليه الصلاة والسلام (من اعتقلَ البعير ولبسَ الصوف فقد برئ من الـكبر) وقال صلى الله عليه وسلم (من حمل حاجته الى بيته فقد برئ من الـكبر) ثم انه لما كان التوسط في جميع الآداب والأخلاق مطلوباً أمرَ لقمان ولده بالقصد أي بالتوسط فى المشي بين السرعةِ والابطاء و بغضّ الصوت حين التكلم كما حكاه الله عنه فقال ﴿ واقصد ﴾ أي وتوسط ﴿ فى مشيك ﴾ بين السرعةِ والبطء بعـد التباعد فيه عن الفرح • فقد روي أن النبي صلى الله عليـه وسلم قال (سرعةُ المشي تذهب بهاء المؤمن) ﴿واغضُض ﴾ أي وانقص ﴿من صوتك ﴾ واقصر منه فـ ﴿ ان أنكر ﴾ أى انّ أوحش ﴿الأصوات لصوت الحمير ﴾ وهذا تحذير منهُ تعالى للمكلفين من رفع الصوت وتنفيرٌ عنه على أبلغ وجه وتنبيه منه تعـالى علي أن الافراط في رفع الصوت من غير ضرورة ولا فائدة مكروهٌ عند الله تعالى كراهة شديدة • وأما اذا كان لضرورة كنداء البعيد أو لفائدة كتعليم من لا يسمع فانهُ غير مكروه بل هو مطلوب انتهى • واعلم أننا أطلنا الـكلام في تفسير هذه الوصية لأنها جامعةٌ لسائر الأخلاق الفاضلة . فمن تأمل فيها وفيما ذكرناه من تفسيرها علم حق اليقين أنها مشتملة على كثير من الآيات التى مرّ

رسول الله صلى الله عليه وسلم نسبتهُ الى مالا يجوز عليه كقولهم شاعرٌ ساحرٌ كاهن مجنونٌ ٠ ويدخل فيها أيضاً تنقيصهُ عليه الصلاة والسلام بعدم العصمة أو بنسبة نسائه الى فاحشة أو بأذية أهل بيته أو نحو ذلك ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات ﴾ أى والذين يفعلون بالمؤمنين والمؤمنات ما يتأذَّوْنَ به من قول كالقذفِ والسب أوفعل كالضرب وأكل الحقوق ونحوهما من كل مانهى الله عنه في حق أهل الاسلام ٠ واعلم أن أذى الله ورسوله لا يكون الاَّ بغير حق وأما أذى المؤمنين والمؤمنات فمنه ما يكون بحق كحدّ الزنا ونحوه ومنه ما يكون بغير حق فلهذا بين الله تعالى أن أذيتهم التى يترتب عليها العذاب هي التى تكون ﴿ بغير ما اكتسبوا ﴾ أي بغير جناية يستحقون بها الأذية وأما اذا صدر عن أحدهم ذنبٌ فانه يجوز إيذاؤه على الوجه المحدود في الشرع ٠ ثم بين الله تعالى مايترتب على الإيذاء بغير حق من الوعيد بقوله ﴿ فقد احتملوا بهتاناً ﴾ أي زوراً وكذباً ﴿ واثماً مبيناً ﴾ أي ذنباً ظاهراً بيناً ٠ فكأنه تعالى يقول والذين يفعلون الأذى بالمؤمنين والمؤمنات فقد ارتكبوا زوراً ٠ وهو اشارةٌ الى الأذى بالقول ٠ وذنباً ظاهراً بيناً بسبب الأذى بالفعل ٠ نسأله سبحانه وتعالى أن يكف عنا أذيةَ الأشرار ٠ وأن لايجعلنا سبباً فى أذى الأخيار ٠ بجاه النبي المختار ٠

﴿ الباب التاسع في تفسير ماورد في سورة الحجرات ﴾
﴿ الى آخر القرآن الكريم من النواهي ﴾

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ * وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ * وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ * وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾

اعلم أن الله تعالى بين في هذه الآية الكريمة مايجب أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن وذلك أن المؤمن مع المؤمن إما أن يكون حاضراً معه وإما أن يكون غائباً عنه فان كان حاضراً فلا ينبغي لأخيه المؤمن أن يسخر منه ويستهزئ به فلا ينظر اليه بالاهانة والمذلة بل يلتفت اليه بكل تعظيم وان كان غائباً عنه فلا ينبغي أن يذكره بما يكرهه من العيوب وان كانت فيه بل لايذكره إلا بخير وقد بيناذلك في هذه السورة من قسم الأوامر . وقد نهى الله تعالى عباده المؤمنين

عن ثلاثة أمور . أحدها السخريةُ والاستهزاء . وهي أن لا ينظر الانسان الى أخيه بعين الاجلال ولا يلتفت اليه مع التعظيم بل يسقطه عن درجته من غير أن يذكر مافيه من العيوب . وثانيها اللمز وهو أن يذكر الشخص غيره بما فيه من العيب في غيبته وهذا أقل من الأول لأنه في الأول لم يلتفت اليه الا بعين التحقير . حتى أنه من شدة حقارته وصغره في عينه لم يرضَ بأن يذكره أحدٌ غيره في المجلس الذي هو جالس فيه وانما جعله حقيراً لا يغضب له ولا عليه بخلاف الثاني فانه جعله من المغضوب عليه فقط وثالثها النبز وهو أن يدعوه بالأسماء القبيحة وان لم يكن قد تسمى بها وهذه كلها حرام ورد الكتاب والسنة بالنهي عنها والوعيد على من يرتكب واحدا منها . وقد ذكرها الله تعالى على هذا الترتيب فقال ﴿ يا أيها الذين آمنوا ﴾ أي صدقوا بالله ورسوله [1] ﴿ لا يسخر ﴾ أي لا يهزأ ﴿ قومٌ ﴾ منكم مؤمنون ﴿ من قومٍ ﴾ آخرين مؤمنين منكم أيضاً ﴿ عسى أن يكونوا ﴾ أي المهزوء بهم ﴿ خيرًا منهم ﴾ أى من المستهزئين ﴿ ولا ﴾ يسخرْ ﴿ نساءٌ ﴾ مؤمنات ﴿ من نساءٍ ﴾ مؤمنات ﴿ عسى أن يكنَّ خيرا منهنَّ ﴾ أى عسى أن يكون النساء المسخورُ والمستهزءُ بهن ﴿ خيرًا ﴾ من النساء الهازئات الساخرات . فان الخيرية موجودة في الفريقين

---

(١) والحكمة فى كون الله سبحانه وتعالى خص المؤمنين بالخطاب مع أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة أيضاً لأنهم هم الذين يمتثلون الأوامر والنواهي بخلاف الكفار فهم لا يمتثلون ولا ينتفعون

فليس المدار على ما يظهر للناس من الأشكال والصور والأحوال التى يدور عليها أمر السخرية والاستهزاء في الغالب كالفقر ونحوه بل انما المدار على الأمور الكامنة الخفية في القلوب فلا يليق بالمؤمن أن يستحقر غيره من المؤمنين فربما كان أحق منه بالخيرية عند الله تعالى فيكون ظالما لنفسه بتحقير من وقره الله سبحانهُ وتعالى وباستصغار من عظمهُ الله تعالى

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ وَلَا تَحَسَّسُوا

أي ولا تستمعوا لحديث القوم من اخوانكم المؤمنين في اعراض الناس (ولا تجسسوا) أي ولا تبحثوا على عوراتهم (ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله اخواناً كما أمركم المسلم أخو المسلم) لا يظلمهُ ولا يخذله ولا يحقره التقوي ههنا. التقوى ههنا ويشير الى صدره . بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم كلُّ المسلم على المسلم حرامٌ دمهُ وعرضهُ ومالهُ . ان الله لا ينظر الى أجسادكم ولا الى صوركم وأعمالكم . ولكن ينظرُ الى قلوبكم) وقال عليه الصلاة والسلام (ان المستهزئين بالناس يُفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال له هلم هلم فيجيء بكربه وغمه فاذا أتاه أغلق دونه . فما يزال كذلك حتى أن الرجلَ ليفتح له الباب فيقال هلم هلم فلا يأتيه) انتهى

ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ ولا تلمزوا أنفسكم ﴾ أي ولا يعب بعضكم بعضاً ولا يطعن بعضكم فى عرض بعض فنهى الله عباده المؤمنين عن الطعن والعيب باللسان أو بالاشارة في حق اخوانهم المؤمنين • وانما جعل الله تعالى اللامز الطاعن في حق أخيه لامزاً وطاعناً في شأن نفسه لأن المؤمنين كنفس واحدة فيما يلزم بعضهم على بعض من تحسين أمره والسعي في صلاحه ومحبته الخير له

قال النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ اَلْمُؤْمِنُونَ كَالْجَسَدِ الْوَاحِدِ * إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ وَاحِدٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ جَسَدِهِ بِالْحُمَّى (١) وَالسَّهَرِ ﴾

وهذا اللمز شامل لسب الانسان شخصاً غيره والعيب عليه فى غيبته أوفي حضوره • وكما ورد الكتاب بالنهي عن السب وردت السنة بالنهي عنه أيضاً • وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (ما أكفر رجل رجلاً الا باء أحدهما بها • فان كان كافراً والا كفر (٢) بتكفيره) وقال عليه الصلاة والسلام (لاتسبوا الأموات

(١) وقصده صلى الله عليه وسلم من الحمي كل شيء يؤلم ويؤذى الجسد • والمراد بالسهر عدم النوم • وهو عذاب آخر للجسد

(٢) والمراد بالكفر هنا الاثم الكبير • وليس المراد حقيقة الكفر كانكار وحدانية الله تعالى وأنبيائه ورسله

فانهم قد أفضوا الى ماقدموا) وقال عليه الصلاة والسلام (من الكبائر شتم الرجل والديه) قيل يارسول الله وهل يشتم الرجل والديه قال (نعم يَسبُّ أبا الرجل فيسبُّ أباه ويسبُّ أمهُ فيسبُّ أمه) ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ ولا تنابزُوا بالألقاب ﴾ أي ولا يدع أحدكم صاحبه بما يكرهه من الألقاب الدالة على الذم والسوء كقول الرجل لصاحبه فاسق • زاني • كلب • خنزير • ونحو ذلك • فلا يجوز لأحد من المسلمين أن يدعوَ أخاه بما يكرهه من الأسماء والصفات المذكورة وغيرها لأن هذا سبٌّ وقد ذكرنا بعض ماورد في الكتاب والسنة من النهي عن سب الغير مطلقاً • ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ بئسَ الاسمُ الفسوقُ بعدالايمانِ ﴾ أي بئس الذكرُ المرتفع بين المؤمنين أن يذكروا بعضهم بالفسق بعد دخولهم في الايمان أو اشتهارهم به والمراد بهذه الجملة ارشاد المؤمنين ودلالتهم على أن التنابز أي التقاذف بألقاب السوء فسقٌ وفحشٌ والجمع بينه وبين الايمان قبيح شرعاً وعقلا لأن الايمان أشرف الصفات والفسق أخس الصفات فحينئذٍ ينبغي لمن اتصف بالأشرفِ أن يتحاشا عن الأخس الأرذلِ فكأنه تعالى يقول ياأيها العباد المؤمنون بي وبرسولي لايستهزء بعضكم ببعض ولا يطعن بعضكم في شأن بعض ولا يدع أحدكم أخاه باسمٍ يكرهه أو بصفةٍ يكرهها • ومن فعل مانهينا عنه وتجاسرَ وتجارأ على معصيتنا بعد إيمانه فهو فاسقٌ بئس الاسمُ الفسوق بعد الايمان ﴿ ومن لم يتب ﴾ منكم عما نهيناعنه ﴿ فأولئك همُ الظالمون ﴾ الذين ظلموا أنفسهم بسبب

وضع المعصية موضع الطاعة وتعريض أنفسهم للعذاب • سلمنا الله منه في يوم الحساب • آمين

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ * الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ * وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ * وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا * ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ * فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا * فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا * ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

رويَ أن خولةَ بنت ثعلبةَ امرأة أوس بن الصامت رآها

زوجها المذكور وهي تصلي وكانت حسنة الجسم وكان به لممٌ أي إلمام بالنساء وشدة حرص عليهنّ فلما سلمتْ من صلاتها راودها عن نفسها فأبت فغضب وكان به حدة وخفة فظاهر منها أي فقال لها أنت عليَّ كظهر أمي . فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت له ان أوساً تزوجني وأنا شابةٌ مرغوبٌ فيّ . فلما كبرَ سني وكثر ولدي جعلني كأمهِ . وان لي صبيةً صغاراً ان ضممتهم اليه ضاعوا وان ضممتهم اليّ جاعوا . فقال لها عليه الصلاة والسلام (حَرُمتِ عليه) فقالت يا رسول الله ما ذكر طلاقاً . فقال لها ثانياً حَرُمتِ عليه . فقالت أشكو الى الله فاقتي ووجدي . وجعلَتْ تُراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكلما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم حَرُمت عليهِ هتفتْ وشكت الى الله تعالى . ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع هذه المرأة المجادلة كانا في توقعٍ ورجاء من الله تعالى أن يسمع مجادلتها وشكواها وأن ينزل الله تعالى حكم هذه الحادثة ويفرج عنها كربها . وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال لها عند استفتائها عن هذه الحادثة (ماعندي في أمركِ شيء) فما زالت ترفع رأسها الى السماء وتقول اللهم انى أشكو اليك . فأنزل علي لسان نبيك حتى أجاب الله دعاءها . وأنزل هذه الآيات الاربعة وبين فيها حكم الظهار . وهو أنه حرام وتلزمُ فيه الكفارة الآتي بيانها فقال ﴿ قد سمع ﴾ أى قد أجاب ﴿ الله ﴾ تعالى ﴿ قول ﴾ أي دعاء المرأة ﴿ التى تجادلك ﴾ أي تراجعك الكلام ﴿ في ﴾ شأن ﴿ زوجها ﴾ وفيما صدر عنه في حقها من

الظهار ﴿ وتشتكي ﴾ أي وتتضرعُ ﴿ الى الله تعالى بالدعاء • ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ والله يسمع تحاوُرَكما ﴾ أي والله يعلم تراجعكما في الكلام فـ ﴿ ان الله سميعٌ ﴾ أي يسمع كلام من يناديه ﴿ بصيرٌ ﴾ يبصر من يتضرع اليه • وفي هذه الآية دليلٌ على أن من انقطع رجاؤُه عن الخلق ولم يعتمد في مهماته على أحدٍ سوى الخالق كفاه الله كل مهماته • وقد أحببنا أن نبين معنى الظهار وما يتعلق به قبل الشروع في تفسير الآيات الثلاثة ليسهل فهمها وتتم الفائدةُ بذلك فنقول اعلم أن الظهار هو أن يقول الرجل لامرأته أنتِ عليَّ كظهر أمي • ومعناه ظهرك عليَّ كظهر أمي أي علوّي وركوبي عليك حرامٌ علي كعلوّ أمي • ثم ان المظاهر لم يقصد بهذا القول الا التحريم قطعاً • فان وصله بالطلاق بأن تلفظَ بالطلاق عقب التلفظ بالظهار فقد تمم ما شرع فيه من ايقاع التحريم ولا تجب عليه الكفارة وأما اذا لم يصل هذا القول بالطلاق بل سكتَ بعد التلفظ به زماناً يمكنه أن يطلق المرأة فيه فان ذلك يدل على أنه ندمَ على ماوقع منه ابتداءً من التحريم • فحينئذ تجب عليه الكفارة • ثم انه لا يجوز للمظاهر أن يستمتع بالمرأة بوجهٍ من وجوه الاستمتاع حتى يكفر • فيحرم عليه جميع ضروب الاستمتاعات حتى المس باليد • لما رويَ أن رجلاً ظاهرَ من امرأتهِ ثم واقعها قبل أن يكفر فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك فقال (اعتزلها حتى تكفر) فاذا واقعها قبل أن يكفر فالأصح عند أكثر الائمة أنه لم يجب عليه الا كفارةٌ واحدةٌ • ثم

أنه لا يجوز للمرأة التي ظاهرَ منها الزوج أن تمكنه من نفسها حتى يكفر • فان تهاونَ الزوجان في هذا الأمر قبل الكفارة فيجب على الامام أن يحول بينهما ويجبر الزوج على التكفير ولو بالضرب لأنه مادام ممتنعاً عن التكفير لا يحل له التمتع بالمرأة كما ذكرنا • فيكون في ترك التكفير اضرارٌ بالمرأة وامتناع من إيفاء حقها • فلهذا يجبره الامام عليه حتى يوفيها حقها وهو الجماع • ولا شيءٌ من الكفارات يجبر الشخص ويحبس عليه الا كفارة الظهار • وذلك لدفع ضرر المرأة المذكور وكل من صح طلاقه يصح ظهاره • ولا يصح ظهار المرأة عن زوجها • والظهارُ لا يصح الا من الزوجة ولا يصح من الأجنبية • واعلم أن الظهار كان من أشد طلاق الجاهلية • فلهذا وبخ الله تعالى العرب عليه أولاً في الآية الأولى • ثم بين ثانياً حكم الظهار في الآيتين بعدها فقال ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ﴾ أي الذين يحرمون منكم نساءهم على أنفسهم كتحريم الله عليهم ظهور أمهاتهم ﴿ ما هن أمهاتهم ﴾ أي ما نساؤهم اللائي ظاهروا منهن بأمهاتهم على الحقيقة بل هن حلالٌ لهم • فتحريمهن على أنفسهم كذب محض ﴿ انْ أمهاتهم الا اللائي ولدنهم ﴾ أي ما أمهاتهم الا النساء اللاتي ولدنهم • فلا تُشبه بهنَّ في الحرمة الا من ألحقها الشرع بهن من المرضعات وأزواج النبي عليه الصلاة والسلام فان الشرع أدخلهن في حكم الأمهات الحقيقيات • وأما الزوجات فلا يشبهن الأم في شيء أصلاً ﴿ وانهم ﴾ أي وان الرجال المظاهرين من نسائهم ﴿ ليقولون منكراً ﴾ عند الشرع والعقل

والطبع ﴿ من القول ﴾ الذي لاتعرف صحته ﴿ وزوراً ﴾ أي ومحرفاً عن الحق ﴿ وان الله لعفوٌ ﴾ أي لذو عفو وصفح عن ذنوب عباده اذا تابوا منها وأنابوا ورجعوا الى الله ﴿ غفورٌ ﴾ لهم فلا يعاقبهم عليها بعد التوبة • ثم انه تعالى لما بين كون الظهار منكراً بطريق التشريع الكلي شرع في تفصيل حكمه فقال ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ﴾ أي والذين يقولون ذلك القول المنكر ﴿ ثم يعودون لما قالوا ﴾ أي ثم يرجعون لتحليل ما حرموا على أنفسهم بما أحله الله لهم من الامساك للمرأة والعزم على التمتع بها ﴿ فتحرير رقبة ﴾ أي فيجب عليهم في ذلك الكفارة وهي عتق رقيق أو رقيقة ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ أي من قبل أن يستمتع كل من المظاهر والمظاهر منها بالآخر سواء كان التمتع جماعاً أو لمساً أو نظراً الى محل الوطء بشهوة ونحو ذلك من أنواع الاستمتاع • فان وقع شيء من ذلك قبل التكفير فان المظاهر يجب عليه أن يستغفر ولا يرجع الى الاستمتاع حتي يكفر ﴿ ذلكم ﴾ الذي ذكرناه من هذا الحكم ﴿ توعظون به ﴾ أي تزجرون به عن ارتكاب المنكر المذكور • فان الغرامات مزاجرُ عن تعاطي الجنايات ﴿ والله بما تعملون ﴾ من الأعمال التي من جملتها التكفير وما يوجبهُ من جنايةِ الظهار ﴿ خبير ﴾ أي عالم بظواهرها و باطنها ومجازيكم بها • فحافظوا علي حدود ما شرعه الله ولا تخلوا بشيء منه ﴿ فمن لم يجد ﴾ منكم الرقيق أو الرقيقة اما بسبب فقدهما أصلا واما بسبب العجز عن شرائهِ ﴿ فصيامُ ﴾ أي فيجب عليه صيام ﴿ شهرين متتابعين ﴾ الافصل

بينهما بافطار الا لعذر من جهة الله تعالى كمرض شديد ﴿ من قبل أن يتماسا ﴾ أي من قبل أن يستمتع كلٌّ من الزوجين بصاحبه ليلاً أو نهاراً عمداً أو خطأً ﴿ فمن لم يستطع ﴾ الصيام بسبب من الأسباب التي تمنعه من القدرة عليه كضعف شديد أو نحوه ﴿ فاطعام ﴾ أي فيجب عليه اطعام ﴿ ستينَ مسكيناً ﴾ ومقدار مايأخذه كلٌّ مسكين من طعام الكفارة هو مدٌّ واعلم أن كفارة الظهار مرتبةٌ على ما في الآيتين من الترتيب فيجب أولا العتقُ فان لم يمكن فيجب الصوم • فان لم يمكن فيجب الاطعام • ولا ينتقل من واحدة الى مابعدها الا بعد العجز الشرعي عما قبلها ولا يخرج الكفارة الاَّ مما يكون زائداً عن حاجةِ نفقته ونفقة عياله وكسوتهم وعن المسكنِ من أجرته وما يحتاج اليه من فرش ونحوه • ولو كانت عنده رأس مال يتجر فيها وكان ربحها وافياً بكفايته من غير مزيد ولو باعها لصار حاله كحال المساكين فانه لا يكلف بيعها وصرفها في الكفارة • ثم قال الله سبحانه وتعالى ﴿ذلك﴾ الذي بيناه من تعليم الأحكام والتنبيه عليها ﴿ لتؤمنوا ﴾ أي لأجل أن تؤمنوا ﴿ بالله ورسوله ﴾ وتعملوا بشرائعه التي شرعها لكم وتتركوا ما كنتم عليه في جاهليتكم ﴿ وتلك ﴾ الأحكامُ المذكورةُ ﴿ حدود اللهِ ﴾ التي لا يجوز تعديها ﴿ وللكافرين ﴾ الذين لا يعملون بها ﴿ عذابٌ أليم ﴾ أي عذاب مؤلم جزاءً لهم على انكار هذه الحدود التي شرعها الله تعالى وأمرهم بالعمل بها • اللهم اجعلنا ممن وفقتهم للعمل بشريعتك والقيام بحقوق عبوديتك يارب العالمين • آمين

قال الله سبحانه وتعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾

اعلم أن الله تعالى حث المؤمنين في هذه الآية الكريمة على ذكر الله تعالى في كل أحوالهم بحيث لا يشغلهم عنه التصرف في الأموال والسرور بالاولاد لأن كل ماسوى الله تعالى حقير بالنسبة لما عنده تعالى من الفضل التام والسعادة الأبدية . وأيضاً فان من تصرف فى شيء من الأموال أو صرف زمانه في اللهو مع الأولاد . فان فعله هذا منسوب في الحقيقة لله وباعانة الله وفى ملك الله . فعلى كل عاقل أن يعتقد أن كل شيء منه واليه . ولا يشتغل الا بذكره وطاعته . حتى ينتظم في سلك المؤمنين الذين خاطبهم ربهم بقوله تعالى ﴿ ياأيها الذين آمنوا لاتلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ﴾ أي لا يشغلكم

الاهتمام بتدبير أمور أموالكم وأولادكم والاعتناء بمصالحها والتمتع بها عن الاشتغال بذكر الله تعالى من الصلاة وسائر العبادات المستحقة لله تعالى ان كنتم صادقين في الايمان لأن الصدق فيه يؤدي الى غلبة محبة الله على محبة كل شيء . فلا تكن محبة الاولاد ومحبة الدنيا غالبةً في قلوبكم على محبة الله بسبب شدة التعلق بهم وبالأموال فتحتجبوا بهم عنه فتصيروا الى النار فتخسروا ما أعده الله لكم من النعيم الدائم بسبب اضاعته فيما يفني سريعاً وهذا معنى قوله تعالى ﴿ ومن يفعل ذلك ﴾ أي يفعل التلهي بالدنيا عن الدين ﴿ فأولئك هم الخاسرون﴾ أي الكاملون في الخسران حيث باعو العظيمَ الباقيَ بالحقير الفاني ثم انه تعالى حثهم على الانفاق فقال ﴿ وأنفقوا ﴾ أيها المؤمنون ﴿ مما رزقنا كم ﴾ أي من بعض ما أعطينا كم تفضلا منا من غير أن يكون حصوله من جهتكم وادخروه للآخرة ﴿ من قبلِ أن يأتيَ أحدَ كم الموتُ﴾ أي من قبلِ أن يشاهدَ أحدكم دلائلَ الموتِ ويعاين أماراتهِ ﴿ فيقول ﴾ عند تيقنهِ بحلوله وتحققه أنه لا تُقبل توبتهُ ولا ينفعه عملٌ سائلاً من الله تعالى التأخير في الأجل لتَدارُك ما فات وهو محال ﴿ ربِّ ﴾ أي يارب ﴿ لولا أخرتني ﴾ أي هلاَّ أمهلتني ﴿ الى أجل قريب ﴾ أي زمان قصير ﴿ فأصدّقَ وأكن من الصالحين ﴾ فالعاقل هو الذي يجعل حظه انفاق الأموال في الطاعة وقت صحته والاحتياج اليها مع طيب النفس واخلاص النية . فان الانفاق لا ينفع الا عند الصحة والاخلاص وطهارة القلب من الرياء . وأما عند حضور الموت

فلا ينفعهُ انفاقهُ لأن المال ليس له حينئذ بل هو للورثة وليس له الا التحسر والندم وتمني التأخير في الأجل بالجهل • لأنه لو كان صادقاً في دعوى الايمان وموقناً بالآخرة لتيقن أن الموتَ ضروريٌّ وأنه مقدرٌ في وقت معين قدره الله فيه بحكمته فلا يمكن تأخره كما قال تعالى ﴿ ولن يؤخرَ ﴾ أي ولن يمهلَ ﴿ اللهُ نفساً اذا جاء أجلها ﴾ أي آخر عمرها ﴿ والله خبير بما تعملون ﴾ من خير أو شر فيجازيكم على الخير خيراً وعلى الشر شراً • فسارعوا في الخيرات واستعدوا لما هو آت •

قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

اعلم أن أمرَ وشأنَ المكيالِ والميزانِ شيءٌ عظيم . وذلك لأن جميع الخلق محتاجون الى المعاملات • وهي مبنية على أمر المكيال والميزان فلهذا السبب عظم اللهُ أمره في مواضع كثيرة من الكتاب العزيز • ووردت فيه أخبار كثيرة من السنة • فمن الآيات قوله تعالى (والسماء رفعها ووضعَ الميزان ألاَّ تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) ومن السنة ماروي أن أهل المدينة كانوا

تجاراً يبخسون وينقصون الكيلَ والميزان • فلما نزلت هذه الآية الكريمة خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم • ثم قال عليه الصلاة والسلام (خمسٌ بخمسٍ) فقيل له يارسول الله وماخمسٌ بخمسٍ • فقال صلى الله عليه وسلم (مانقضَ قومٌ العهد الاّ سلط الله عليهم عدوّهم • وما حكموا بغير ما أنزل الله الاّ فشا فيهم الفقر • وما ظهرت فيهم الفاحشةُ الا فشا فيهم الموتُ • ولا طففوا الكيل الا مُنعوا النبات وأُخذوا بالسنين • ولا مَنعوا الزكاةَ الاَّ حُبس عنهم المطر) وقد ذم الله تعالى في هذه الاية الكريمة الباخسين الناقصين للكيل والميزان وهم الذين قدموا الحياةَ الزائلة على الحياة الباقية • وتهالكوا في الحرص على استيفاء أسبابها حتى انصفوا بأخس الصفات وهو التطفيفُ • وبين تعالى فيهذه الآية أيضاً ماسيلقونه من الخزي والعذاب الشديد في الآخرة فقال ﴿ ويلٌ ﴾ أي شدة شر وعذاب أليم أعدهما الله تعالى ﴿ للمطففين ﴾ أي للباخسين والناقصين حقوق العباد في الكيلِ والوزن ﴿ الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾ أي الذين اذا أخذوا بالكيل من الناس حقوقهم بحكم الشراء ونحوه يأخذونه وافياً وافراً ﴿ واذا كالوهم أو وزنوهم ﴾ أي واذا كالوا للناس أو وزنوا لهم للبيع ونحوه ﴿ يخسرون ﴾ أي ينقصون حقوقهم • واعلم أنه اتفق أكثر العلماء على أن قليل البخس في الكيل والميزان وكثيره يوجب الوعيد الذي أعده الله تعالى للباخسين • حتى أن بعضهم بالغ في المسئلة فعدّ العزم على البخس من الكبائر • وقال القشيريُّ امام

الصوفية لفظُ المطففين يشملُ التطفيف في الكيل والوزن • وفي اظهار العيب واخفائه وفي طلب الانصاف والانتصاف • ويدخل فيه أيضاً من لم يرض لأخيه المسلم مايرضاه لنفسه • لأنه ليس بمنصف والذي يرى عيبَ الناس ولايرى عيب نفسه • فهو من مشمولات هذه الجملة وكذا من طلب حق نفسه من الناس ولا يعطيهم حقوقهم كما يطالب لنفسه منهم • فانه من مشمولات هذه الجملة أيضاً • ويحكي أن اعرابياً قال لعبد الملك بن مروان ان المطففَ قد توجه عليه الوعيدُ العظيم الذي سمعتَ به • فما ظنك بنفسك وأنت تأخذ أموال المسلمين بلا كيل ووزن • ثم ان الله تعالى زاد في توبيخهم بقوله ﴿ ألا يظنُّ ﴾ أي ألا يعلم ﴿ أولئك ﴾ الموصوفون بهذه الرذيلة البعيدون عن رتبة الاعتبار بل عن درجة الانسانية ﴿ أنهم مبعوثون ﴾ بعد الموت ﴿ ليوم عظيم ﴾ هائل لا يتصور قدر عظمه وعظم مافيه من الأهوال • وأنهم محاسبون فيه على مقدار الذرة والخردلةِ فان من يظن أنه مبعوث لذلك اليوم وأنه محاسبٌ فيه على كل شيء ولو ظناً ضعيفاً مصاحباً للشك والوهم لا يمكنهُ أن يتجاسرَ على أمثال تلك القبائح • فكيف بمن يتيقنه ﴿ يوم يقوم الناس ﴾ عن مراقدِ أبدانهم ﴿ لرب ﴾ أي لحكم رب ﴿ العالمين ﴾ وقضائه وهو يوم القيامة الذي تظهر فيه الفضائح وتنكشف القبائح • ويفرُّ الوالد من ولده والاخ من أخيه • يوم لا ينفع فيه مالٌ ولا بنون الا من أتى اللهَ بقلب سليمٍ • وقد أردنا أن نقبضَ عنانَ القلم • فنقتصر على على هذا القدر من تفسير ماورد من الأوامر والنواهي القرآنية • واعلم

أن القرآن بحرٌ ليس له ساحل . ولا يصل الى نهاية جوا هر معانيــه واصل .وغاية ما أردناه من تأليف هذا الـكتاب انما هو تفسير كلِّ آيةٍ تأمر بالأخلاق الفاضلة أو تنهى عن ضدها . وقد التزمنا في تفسيرها الالفاظَ السهلةَ حتى يصل الى فهمها كلُّ قاصر . وينتفع بها كل متبصرٍ مع أنه لو نظر القاريُّ في كتابنا هذا بعين بصيرتهِ . لعلم علم اليقين أن ما ذكرناه في تفســير الآيات التى انتخبناها من الـكتاب العزيز هوالعمدةُ في الدين .والمقصد الأسنى لطالبي اليقين ولأجل تمام الفائدةِ نختم هذا الـكتاب بتفسير سورة التكاثر لما فيها من الزجر والتهديد فنقول و بالله التوفيق .

قَالَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

﴿ أَلْهَاكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

اعلم أن أهل الصلاح والتقوى جعلوا السعادة الدنيوية الفانيةوسيلة الى اكتساب السعادةالنفسانية الباقية .فينبغي للعاقل أن يكون سعيهُ

في تحصيل تلك السعادة • ولا يكون ذلك الا بالعلم والعمل • فالتفاخر بالمال والجاه والأعوان والأقارب يمنع الانسان من تحصيل هذه المرتبة التى هي أشرف المراتب • فلهذا السبب ذمّ الله تعالى المشتغلين بهذه الأشياء فقال ﴿ ألهاكمُ ﴾ أي أشغلكم ﴿ التكاثرُ ﴾ أي التغالب بكثرة الأموال والأولاد وعلوّ الجاه والأقربين والتفاخر بها ﴿ حتى زُرتمُ المقابرَ ﴾ أي الى أن متّمْ وقُبرتم مضيعين أعماركم في طلب الدنيا معرضين عما يهمكم من السعي لآخرتكم ويدخل في ذلك من يمنع الحقوق المالية وهي الزكاة حتى آخر عمره ثم يقول أوصيتُ لفلان بكذا ولفلان بكذا

قال النبي صلى الله عليه وسلم

﴿ يا ابْنَ آدمَ تقولُ مالي مالي • وهلْ لكَ منْ مالكَ إلاَّ ما أكلتَ فأفنيتَ • أوْ لبستَ فأبليتَ • أوْ تصدَّقتَ فأمضيتَ ﴾

ثم قرأ صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابرَ) واعلم أن التكاثر والتفاخر في العلم والطاعة والأخلاق الحميدة ليس بمذموم • بل هو مندوب اذا كان الغرض منه أن يقتدي غيره به أو أن نظهر شكر ربه بلسانه • وانما التكاثر المذموم هو الذي يكون

الباعث عليه الاستكبار وحب الجاه والافتخار بما ليس فيه سعادةٌ حقيقية أبديةٌ لأن السعادةَ الحقيقيةَ لا تكون الا فيما يعين على العلم والعمل من الأمور الخارجية أو يرجع اليها • ثم ان الله تعالى نبه على العاقل أنه لا يجعل معظم همه مقصوراً على الدنيا • فان عاقبةَ ذلك وخيمةٌ فقال على سبيل الرَّدعِ والزجر ﴿ كلاً سوفَ تعلمونَ ﴾ سوء عاقبة ما أنتم عليه من التفاخر وطلب الكثرة في الدنيا اذا عاينتم في الآخرة ما يحاسب عليه أهل التكاثر في عرصات القيامة • ثم انه تعالى كرر هذه الجملة تأكيداً لهذا الوعيد وتشديداً للنهي عن التكاثر فقال ﴿ ثم كلاً سوف تعلمون كلاً لو تعلمون ﴾ أيها الناس مالكم عند الله وما عليكم اذا نُشرَ ديوانُ العمل الذي لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً الاّ أحصاها ﴿ علم اليقين ﴾ الذي يرتفع فيه الشك وتنكشف به الحقيقة لشغلكم ذلك عن غيره • ثم انه تعالى ذكر جواب قسم محذوف أكدَ به الوعيد وشدد به التهديد وأوضح به ما أنذر به العباد بعد أن كان مُبهماً على سبيل التفخيم والتهويل فقال ﴿ لترَون ﴾ أي والله لترَونَّ ﴿ الجحيم ﴾ في دار القبر • لأنه يُعرض على كل آدمي مقعده في النار • فان كان سعيداً عرض عليه ويُبشر بزواله • وان كان شقياً عرض عليه وقُرر له ﴿ ثم لترونها ﴾ أي ثم لترونَّ الجحيمَ من قريب في الموقف الموعود اذا وصلتم الى شفيرها ﴿ عين اليقين ﴾ أي رؤية بالمشاهدة • فان علم المشاهدة أقصى مراتب اليقين ﴿ ثم لتسألن ﴾ أيها المشغولون بالتفاخر الدنيويِّ عن الآخرة ﴿ يومئذ ﴾ أي يوم القيامة

﴿عن النعيم﴾ الذي ألهاكم وأشغلكم الالتذاذ به عن الدين وتكاليفه فان الخطاب في هذه السورة مخصوص بمن عكف همته على استيفاء اللذات • ولم يعش الا ليأكل الطيب ويلبس اللين ويقطع أوقاته باللهو والطرب لا يعبأ بالعلم والعمل • ولا يحمل نفسه مشاقهما • وأما من تمتع بنعمة الله تعالى وتقوى بها على طاعته وكان مشتغلا بالشكر عليها فهو بمعزل بعيد عن هذا التهديد • ولا يحزنه الفزع الأكبر بل هو من الذين سبقت لهم الحسنى من الله تعالى بالنعيم الدائم والعز المقيم • فيامن سبقه القوم وتخلف بالشهوات يامن قطع زمانه في التسويف • أي تأخير العمل بالطاعة واستبدله بالبطالة يامن قساقلبه بالمعاصي وجمدت عينه عن العبرات يامن شابت ذوائبه وهو مقيم على الزلات • كم تبارزون بالمعاصي من يعلم خفيات السرائر (ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر)

قال النبي صلى الله عليه وسلم

﴿مَنْ اكْتَسَبَ مَالا مِنْ حَرَامٍ فَتَصَدَّقَ بِهِ أَوْ وَصَلَ بِهِ رَحِمًا أَوْ أَنْفَقَهُ فِي اللهِ تَعَالَى • جُمِعَ ذٰلِكَ كُلُّهُ وَقُذِفَ بِهِ فِي جَهَنَّمَ﴾

وقال عليه الصلاة والسلام (أيها الناس • ان أحدكم لن يموت حتى يستكمل رزقه • فلا تستبطؤا الرزق • واتقوا الله وأجملوا في

الطلب • فخذوا ما أحل الله تعالى وذروا ماحرم الله تعالى) فيا عجباً كلما بسط لك المولى بساط النعم قابلته بالعصيان • كم ناداك يا عبدي تترك مجالستي وتجالس الشيطان • كم أتعطف عليك بالنعم وأنا المنعم المنان • ياعبـدي أحب أن أوصلك وتحب البعاد عنى والهجران • ماحيلتك اذا حل عليك غضبي وفرَّ منك الأهل والعشائرُ (ألها كم التكاثرُ حتى زرتمُ المقابرْ) (اخواني) أما آنَ للمسافر أن يعدلسفره الزاد • أما آنَ لذي المعاصي أن يتوب قبل المعاد • كيف تغفلون عن يوم لا ينفع فيه أهلٌ ولا أولاد • فالى متي هذه الغفلة والى متى هذا الرقاد • ألم تعلموا أن جزاء الأعمال بالميزان عسيرْ وأن الوقوف بين يدي المولى بظلم المعاصي خطير • فالى متى هذا التكاسل والعمر قصير وبين أيديكم الصراط والحساب • وأهوال من سكرات الموت صعاب ويوم تنقطع فيه الأرحام والانساب • فيا من قادتهم الشهوات الى ظلمات الحفائر • يامن دنسَ الحرام البواطن منهم والظواهر • يامن أعماهم الهوى فعميت منهم البصائر • (ألها كم التكاثرُ حتى زرتم المقابر)

(شعرٌ)

مَا احْتِيَالِي وَأَمْرُ رَبِّي عَصَيْتُ
حِينَ تُبْدِي صَحَائِفِي مَا جَنَيْتُ
مَا احْتِيَالِي إِذَا وَقَفْتُ ذَلِيلاً
قَدْ نَهَانِي وَمَا رَآنِي انْتَهَيْتُ

غنياً عن العبادِ جميعاً

وعليماً بكلِّ ما قد سعيتُ

ليسَ لي حجّةٌ ولاَ ليَ عذرٌ

فاْعفُ عنْ زلّتي وما قدْ أتيتْ

إلهي ماأعظم حسرتي أذكرُ غيري بالموعظةِ وأنا الغافل . مولاي ما أشد مصيبتي . أنبهُ غيري وأنا النائم المتكاسل . سيدي ماأعجب قصتي أدلُّ غيري وأنا الحائر . إلهي جد بالعفو على مذكر متكلف . وسامع لاحكامك وعن العمل بها متخلف . إلهي ان لم يكن كلامي خالصاً لوجهك . فعسى أن تمنح كتابي هذا بالقبول . فيقرأه من يكون خالصاً لوجهك . فشفعه في تقصيري بنور وجهك . ولا تردنا خائبين . ونجنا بفضلك وسعةِ رحمتك من النار واللهيب بحرمة من ألبسته خلع التشريف والتقريب . ووعدت من يصلي عليه باجابة دعائه وشرح صدره الرحيب . فقلت مخاطباً لحضرته . (واذا سألكَ عبادي عني فاني قريبُ أجيبُ) أللهم انا نسألك بجاهه العظيم . وبما كان بينك وبينه من التقريب والتكريم . أن تغفر لنا من الذنوب مانعلم ومالانعلم وأنت بكل شيء عليم . وأن تلبسنا ملابس القبول وتبلغنا في الدارين نهايةَ المأمول وصل اللهم أكمل الصلوات . وأتم التسليم والتحيات على من اصطفيته من أشرف العناصر

سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه الذين فازوا بالحظ الوافر وعلى جميع التابعين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين * وكان الفراغُ من تأليف هذا الكتاب يوم الاثنين المبارك الموافق ٢٩ صفر الخير الذي هو من شهور سنة ١٣٢٤ من هجرة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام *



﴿ خاتمة الكتاب ﴾

الحمدُ لله الذي أنزلَ على عبدهِ الكتابَ ولم يجعلْ له عوجاً * فمن يُردِ اللهُ أن يهديَهُ يشرحْ صدرَهُ للإسلامِ ومن يُردْ أن يُضلَّهُ يجعلْ صدرَهُ ضيقاً حرجاً * سبحانَكَ جلّتْ صفاتُكَ * وتجلّتْ آياتُكَ * فهّمتَنا أسرارَ الكتاب * وأذقتنا لذيذَ الخطابْ * فلكَ الثناءُ ولا نُحصي ثناءً عليكْ * ولكَ الشكرُ والشكرُ منكَ وإليكْ * ثمَّ نسألكَ صلاةً صلاةٍ وهباتِ سلامْ * على رحمةِ العالمينَ وخاتمِ الرسلِ الكرامْ ﴿سيدِنا محمدٍ﴾ وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعينْ * وتابعيهم بإحسانٍ إلى يومِ الدينْ ﴿وبعدُ﴾ فإنَّ من نعمِ اللهِ تعالى على عبادهْ وأبعدِ عبادهْ * أنْ تمَّ على يديَّ تأليفُ هذا الكتابِ الجليلْ * ونظمُ عقدهِ على هذا الشكلِ الجميلْ * بعدَ أنْ بذلتُ الجهدَ في تخليصهِ وتذهيبهْ * وتلخيصهِ وتهذيبهِ * وجنيتُ من رياضِ السادةِ

الْمُفَسِّرِينَ ما طَابْ * وَشَرِبْتُ مِنْ حِيَاضِهِمْ أَعْذَبَ الشَّرَابْ
حَتَّي جاء وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ تَعَالٰى رَوْضاً يانِعَ الْأَزْهارْ * مُتَنَوِّعَ
الثِّمَارْ * بَلْ جَنَّةَ فُنُونٍ ذَاتَ أَفْنَانْ * تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا أَنْهَارُ
الْفَصَاحَةِ وَالْبَيَانْ *

وَلَا عَيْبَ فِيهِ سِوَى أَنَّهُ
كِتَابٌ كَرِيمٌ أَتَى مِنْ حَكِيمْ
يُزِيلُ الْعَمَى وَيَرُدُّ الْبَصَرْ
وَيُنْمِي الصَّحِيحَ وَيَشْفِي السَّقِيمْ

وَإِنِّي مَعَ هٰذَا أَعْلَمُ قُصُورِي وَتَقْصِيرِي * وَلَا أَدْرِي
عِنْدَ اللّٰهِ تَعَالٰى مَا لِي وَمَصِيرِي * فَأَبْرَأُ مِنْ حَوْلِي وَقُوَّتِي *
مُلْتَمِساً قَبُولَ مَعْذِرَتِي * وَمَا كَانَ مِنْ صَوَابٍ فَهُوَ لِأُولٰئِكَ
السَّادَةِ الْأَعْيَانْ * وَمَا كَانَ مِنْ خَطَإٍ فَهُوَ لِي وَالْإِنْسَانُ
مَحَلُّ النِّسْيَانْ * وَإِنِّي أَرْجُو اللّٰهَ تَعَالٰى الَّذِي لَا يُخَيِّبُ
رَاجِيهْ * وَلَا يَرُدُّ دَاعِيهْ * أَنْ يَجْعَلَهُ خَالِصاً لِوَجْهِهِ الْكَرِيمْ

لَاشَرِيكَ لَهُ فِيهِ * رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ
الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا
رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ *

باب الخطأ والصواب

صحيفة	سطر	خطا	صواب
٧	١	يعلمُهُ	يعلمْهُ
١٦	٢٠	كتدبير	لتدبير
١٧	٦	قال	قالت
١٧	١٥	فيؤتيه	فيؤته
٣٠	٤	بهن	بهم
٣٠	٤	الا للرجال	للرجال
٣١	١٥	والمصالح	والمصالح
٣٥	٩	أنه	انها
٤٢	١٠	بحقوقها	بحقوقه
٤٥	٥	أولاهن	أولادهن
٤٧	١	الضرار	الضرر
٤٩	١٤	منهما	منها
٥٠	٨	نَبي	نبي
٥١	١٧	عقدةُ	عقدةَ
٥٤	٣	يجب	تجب
٥٥	٦	وعلم	واعلم
٥٨	٤	مهرا	مهرٌ

صحيفه	سطر	خطا	صواب
٥٨	١٥	صدر	صدرت
٥٨	١٥	اذا أمهله	أمهله
٦٠	١٤	الطيبةُ	الطيبةَ
٦٠	١٧	في	من
٦٣	٢	القليلةُ	القليلةِ
٦٥	١٤	زاد	يزيده
٦٨	٨	وهو الآية	وهوالذي في الآية
٦٩	٩	والنفاق بالرياء	والرياء
٩٠	١٤	فسواء	سواء
٩٠	١٧	الأبمان	الأيمان
١٢٣	١٢	جهةٍ	جهةٍ
١٢٤	٨	اختياريةٌ	اختيارية
١٢٤	٩	اضطراريةٌ	اضطراريةً
١٢٧	٤	بقولهم	وبقولهم
١٢٩	١١	عليه	عليها
١٢٩	١٢	أوْ	الواو
١٤٧	١٦	خُلفهم	خَلفهم
١٥١	١	فنطارا	قنطارا
١٧٩	١٥	الى البغض	بالبغض

صحيفه	سطر	خطا	صواب
١٨٠	٣	لفضاء	لقضاء
١٨٣	٩	صحبنها	صحبتها
١٨٦	١٤	وتدا كوه	وتداركوه
٢١٦	١٢	بقلر	بقدر
٢٢٧	٤	والجزم	والعزم
٢٣١	٨	فيه	فيها
٢٤١	١٤	في	من
٢٥٨	٥	ألا تؤثر	أن تؤثر
٢٧٠	٦	و بشرط	ويشترط
٢٨٦	١	ادا	اذا
٢٩٨	١٩	فب	وقبل
٣٠٢	٦	المطردين	المطرودين
٠٠٠	٠	١٠٤	٣٠٤
٣٢٥	٣	دعوةُ	دعوةٍ
٣٣٤	١٤	رآهما	رأ ها
٣٣٦	١١	باالطلاق	بالطلاق
٣٣٧	١٦	اللآتي	اللاتى
٣٣٨	١١	و	أو
٣٣٩	١	كمرض شديد	كهذرمنافٍ للصوم

صحيفة	سطر	خطأ	صواب
٣٣٩	٩	الشرعى	الشرعي أو الحسّي
٣٤٠	٤	أخزتنى	أخرتنى
٥٣٠	١	قذ	قد